د . رمسيس عوض

رباعيات الشذوذ والإبداع

جينيه . جيد . بروست . مان





د . رمسيس عوض

رباعيات الإبداع والشذوذ

جينيه . جيد . بروست . مان





د . رمسيس عوض

رباعيات الإبداع والشذوذ

جينيه . جيد . بروست . مان

The Quaternary Of
Homosexuality & Creativity
BY
Ramsis Awad





LONDON - BEIRUT - CAIRO
Email: healthyliving@t-net.com.lb
P.o.box:113/5752- Beirut

الطبعة الاولى ١٩٩٨

ISBN 1 841170 003
First Published in 1998

المحتويات

مقدمة

لاحظت كأستاذ للأدب الانكليزي بالجامعات المصرية أن الأساتذة، وأنا واحد منهم، يتحرجون من ذكر بعض الحقائق أمام طلبتهم. ومن بين الأشياء الشائكة التي يتجنب الأستاذة الخوض فيها لواط عدد من اعلام الأدب الانكليزي مثل إي إم فورستر، وأوسكار وايلد، ودابليوه أودين، رغم وجود صلة وثيقة بين أدبهم وشذوذهم الجنسي.

وعندما أصدرت عام ١٩٩٥ كتاباً بعنوان «الشذوذ والإبداع» (شرحت فيه العلاقة بين شذوذ أودين الجنسي وانتاجه الشعري) أذهلني أن أعرف أن زميلاً لي تخصص في شعر أودين وحصل فيه على درجة الدكتوراه من إحدى الجامعات المصرية، يجهل هذا الجانب الشاذ من حياته. فإذا كان الطالب معذوراً من جهله فيما هو عذر الأستاذ؟

ويرجع هذا الوضع العجيب بطبيعة الحال إلى أننا نتحاشى أن نذكر أمام الطلبة ما قد يخدش حياءهم. ولكن الأقدمين كانوا أكثر منا أمانة وموضوعية وتحدياً للحقيقة عندما قرروا أنه لا حياء في العلم. ولو أننا اتبعنا مناهجهم لتغيرت صورة النظام التعليمي الراهن لا في مصر وحدها بل في كافة البلدان العربية.

وثمة دافع آخر حدا بي الى تأليف هذا الكتاب فقبل وفاته عام ١٩٩٠ نشر شقيقي المرحوم الدكتور لويس عوض سيرة حياته بعنوان «أوراق العمر». وبمجرد ظهوره اعتبرته الصحافة المصرية فتحاً جديداً في أدب الاعتراف (رغم أن جانباً كبيراً من الكتاب يحدثنا عن خصوصيات الآخرين). ولهذا آليت على نفسي أن أميط اللثام عن أدباء عالميين يفضحون أنفسهم بصراحة تتضاءل معها صراحة لويس عوض في اعترافاته حتى يدرك القارئ العربي حقيقة ما يدور في العالم من حوله وأن الحرية المزعومة التي يتمتع بها الكاتب العربي لا تقاس على الاطلاق بالحرية التي يتمتع بها نظيره في الغرب.

رمسيس عوض

- ١ -

جان جينيه
(١٩١٠ - ١٩٨٦)

الفصل الأول

قل أن نجد إنساناً حياته في مثل شذوذ واضطراب الأديب الفرنسي المعاصر جان جينيه فقد تركزت فيه سائر الشرور. ورغم ذلك فقد تمكن من تغيير نفسه على نحو مذهل. وعندما اسودت الدنيا في عينيه تكررت محاولاته للإنتحار. ولم تكن نوبات يأسه من الدنيا قصيرة بل امتدت أحياناً لسبعة أعوام متصلة. ولكن يأسه القاتل لم يحل دون قدرته على التغلب على مكاره الحياة بل وعلى مقته الشديد لنفسه. فبعد أن انتهى من تأليف رواياته حاصرته الهموم وهاجمه القنوط من الحياة. ولكنه سرعان ما استعاد توازن النفس وألّف أروع مسرحياته في فترة لا تزيد على عامين وهي تحمل العناوين التالية «البلكونة» «السود» و«السواتر». وقد ألّف جينيه هذه المسرحيات الثلاث في الفترة التي هام فيها بعشق عربي إسمه عبد الله. واجتاحه يأس عارم عندما انتحر هذا العشيق وزاد من يأسه أن صديقه ومترجم أعماله برنارد فرتشمان حاول الإنتحار وكاد أن ينجح فيه. وفي منتصف الستينات من القرن العشرين جفت ينابيع الخلق الفني فيه فوجه طاقته إلى معترك النشاط السياسي.

ولد جان جينيه وهولتيرا في ١٩ ديسمبر/كانون الأول عام ١٩١٠ في إحدى مستشفيات باريس من امرأة غير متزوجة إسمها كاميل جابرييل جينيه في الثانية والعشرين من عمرها. ولأن والده لم يكن معروفاً فقد اضطرت إدارة المستشفى إلى نسبته إلى أمه. وفي ٢٨ يوليه/ تموز من عام ١٩١١ هجرت الأم إبنها وهو في الشهر السابع وسلمته إلى ملجأ لرعاية اللقطاء في العاصمة الفرنسية. وانقطعت كل صلتها به فعهدت به إدارة الملجأ إلى عائلة في قرية أليني بوسط فرنسا كي تقوم على تربيته لقاء مبلغ من المال حتى يبلغ الثالثة عشرة من عمره. وفي ١٠

سبتمبر/ أيلول من عام ١٩١١ تمّ تعميد الطفل في كنيسة إليني الكاثوليكية. ومن ثم فقد تلقى تعليماً كاثوليكياً. وفي سبتمبر/أيلول ١٩١٦ التحق الطفل بمدرسة عامة على بعد خطوات من مقر سكنه مع العائلة التي تعهدت بتربيته. وفي ٢٤ فبراير/شباط عام ١٩١٩ ماتت والدته في باريس وهي في الثلاثين من عمرها عندما اجتاح وباء الأنفلونزا هذه المدينة. وعندما كان جينيه طفلاً في نحو العاشرة من عمره ارتكب أولى سرقاته فسرق كراسات وأقلام رصاص وبعض الحلوى. وفي عام ١٩٢٢ وعلى وجه التحديد في ٤ يونيه/حزيران من هذا العام تناول الطفل للمرة الأولى في كنيسة أليني. ويمكن القول إن دراسته الرسمية توقفت عند اجتيازه بتفوق امتحانات الشهادة الإبتدائية. وفي عام ١٩٢٣ أخذ يساعد العائلة التي تعهدت بتربيته في الزراعة. غير أن تفوقه الدراسي ساعده على الالتحاق بمدرسة لتعليم الطباعة بالقرب من باريس. ولكن لم يمض على التحاقه بهذه المدرسة أكثر من عشرة أيام حتى هرب منها إلى مدينة نيس. وفي الخامسة عشرة من عمره تقريباً ألحقته إدارة الشئون الإجتماعية بالعمل كخادم لدى موسيقار ضرير اسمه رينيه دي بوكس في باريس. وأعطاه مخدومه مبلغاً من المال فاختلسه لنفسه وأنفقه في حفلة تنكرية. وأدين الحدث بتهمة السرقة فوضعه المسؤولون في مستشفى للأمراض النفسية والعقلية حيث وضعوه تحت المراقبة. وجاء من تقرير المختصين أن هذا المراهق «يعاني من ضعف ذهني واضطراب عقلي، الأمر الذي يقتضي وضعه تحت إشراف خاص.

تكرار القبض عليه: وحاول الأطباء النفسيون علاجه ولكنه ما لبث أن هرب منهم إلى مارسيليا حيث ألقى البوليس القبض عليه وأعاده إلى المصحة النفسية. غير أنه هرب للمرة الثانية واستقل القطار المتجه إلى بوردو ولكن كمسارية القطار منعوه وأسلموه إلى الشرطة التي زجت به في السجن لمدة ثلاثة أشهر.

وتكرر سجنه في شهر يوليه/تموز عام ١٩٢٦ عندما ضبط أثناء سفره من القطار الذي يربط بين باريس ومو بدون تذكرة سفر سليمة. وبعد مضي خمسة وأربعين يوماً على سجنه أصدرت المحكمة حكماً ببرائته ولكنها حكمت عليه بالعمل في الزراعة في مستعمرة للأحداث في متراي واشترطت عليه البقاء في المزرعة حتى بلوغه سن الرشد. ولعبت مستعمرة متراي التي أمضى فيها الغلام عامين ونصف دوراً بارزاً في أدبه وبعض أعماله السينمائية. ولكنه هرب من المستعمرة في ٥ ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٢٧ في اتجاه باريس غير أن البوليس ألقى عليه القبض بتهمة التشرد وأعاده إلى مستعمرة الأحداث في متراي. وأراد الشاب أن يتخلص من البقاء من متراي فانضم إلى صفوف الجيش في مارس/آذار ١٩٢٩ والتحق بكتيبة تابعة لسلاح المهندسين ثم أرسل إلى مدينتي مونبيليه وأفنيون. وفي يناير/كانون الثاني عام ١٩٣٠ تطوع للعمل في بلاد الشام فأرسله الجيش إلى سوريا حيث أمضى أحد عشر شهراً كلف أثناءها ببناء

قلعة عسكرية صغيرة. ويمثل هذا أول اتصال له بالعالم العربي الذي أصبح مشدوداً إليه طيلة حياته ثم عاد إلى فرنسا عام ١٩٣١ ليهجر الحياة العسكرية وينخرط في الحياة المدنية. ولم يمض على ذلك بضعة شهور حتى تطوع مرة أخرى للخدمة العسكرية في مراكش في مراكش فأمضى الثلاثة أشهر الأولى من خدمته كسكرتير الجنرال جودوت في ميدلت. وفي عام ١٩٣٣ عاد إلى فرنسا بعد انتهاء مدة خدمته العسكرية في مراكش. ذهب إلى باريس حيث قابل أندريه جيد في ١٦ يونيه/حزيران من هذا العام نفسه واستعد للقيام برحلة طويلة إلى أفريقيا. وفي ديسمبر/كانون الأول ١٩٣٣ سافر جينيه مشياً على الأقدام إلى أسبانيا حيث عاش عيشة الفقر والتشرد. ولكن عاد في العام التالي (١٩٣٤) إلى الإنضمام إلى كتيبة تابعة للسلاح المدفعية في الجزائر. وفي عام ١٩٣٥ التحق بكتيبة أخرى تابعة لسلاح المشاة المراكشي ولكنه ما لبث عام ١٩٣٦ أن ترك الخدمة العسكرية دون إذن فاعتبرته إدارة الجيش هارباً من الخدمة العسكرية. وأراد جينيه أن يتجنب تعقب السلطات العسكرية له فقام برحلة بحرية إلى البلاد الأوروبية استغرقت عاماً كاملاً. وقد سجل أحداث هذه الرحلة في كتابه «يوميات لص». وبعد أن زوّر جواز سفره وغير إسمه وصل إلى إيطاليا واستقل الباخرة إلى ألبانيا حيث بادرت السلطات الألبانية بالقبض عليه وطرده من البلاد. وكان في نيته أن يذهب إلى بلاد اليونان ولكنه لم يتمكن من الوصول إليها، فسافر إلى يوغسلافيا. غير أن الشرطة اليوغوسلافية في بلجراد ألقت القبض عليه وأرسلته إلى الحدود الإيطالية. وعندما وصل إلى باليرمو بإيطاليا حاول أن يستقل الباخرة المتجهة إلى أفريقيا. ولكن البوليس الإيطالي اقتاده إلى الحدود النمسوية. وفي فيينا ألقت السلطات النمسوية القبض عليه ليجد نفسه في تشكسلوفاكيا. وفي عام ١٩٣٧ تكررت التهمة نفسها فألقى البوليس التشيكي القبض عليه. وأراد أن يخرج من ورطته فطلب هذه المرة اللجوء السياسي الأمر الذي أحرج السلطات التشيكية المحلية فسلمته إلى منظمة تعرف باسم منظمة حقوق الإنسان. وقدمت إليه هذه المنظمة العون. وتعرف جينيه من طريقها بفتاة أعطاها دروساً خصوصية في اللغة الفرنسية إسمها آن بلوك وهي إبنة طبيب يهودي ألماني. وأثناء سفره إلى فرنسا قبضت عليه السلطات البولندية وسجنته لمدة أربعة عشر يوماً استطاع بعدها عبور ألمانيا النازية ثم توقف قليلاً في الأراضي البلجيكية قبل وصوله إلى باريس. وفي سبتمبر/أيلول من هذا العام نفسه وبينما هو يستعد للقيام برحلة أخرى إلى أفريقيا ضبط متلبساً بسرقة إثني عشر منديلاً من أحد متاجر باريس فصدر حكم بحبسه لمدة خمسة شهور وتبين للمحكمة أنه هارب من الخدمة العسكرية فنقلته سلطات الأمن في يناير/كانون الثاني ١٩٣٨ إلى مدينة مارسيليا حيث تم وضعه في سجن عسكري. وفي شهر مايو من هذا العام نفسه قام محللون نفسيون بفحصه وقرروا طرده من الخدمة العسكرية بسبب عدم اتزانه العقلي وانحلاله الاخلاقي.

وفي ١٥ اكتوبر عام ١٩٣٨ ألقي القبض عليه في مدينة بريست بتهمة سرقة أربع زجاجات خمر فاتحة للشهية من أحد البارات فحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة شهور. ولم تمض على هذه الحادثة بضعة شهور حتى ألقي القبض عليه في ٧ مايو/أيار ١٩٣٩ بتهمة السفر بين باريس وأوكسير بتذكرة سفر مزورة فزج به في السجن لمدة شهر واحد وخمسة أيام. وبعد ثلاثة أيام من خروجه من السجن أعيد إلقاء القبض عليه بالقرب من شارلون بتهمة التشرد وحكم عليه بالسجن لمدة ١٥ يوماً. وفي ١٦ أكتوبر ١٩٣٩ عاد إلى باريس ليقبض عليه بتهمة سرقة قميص وقطعة من الحرير من أحد متاجر العاصمة فحكم عليه بالحبس لمدة شهرين. ولم يمض أسبوعان على الإفراج عنه حتى أعيد القبض عليه بتهمة سرقة بعض الأقمشة. وفي أبريل/نيسان عام ١٩٤٠ عثر البوليس الفرنسي معه على حقيبة ملابس وحافظة نقود مسروقتين فحكم عليه بالحبس لمدة عشرة شهور. ولكن سرعان ما أفرجت السلطات عنه في ١٤ يونيه/حزيران من العام نفسه.

كان جينيه نزيلاً في أحد فنادق باريس وتصادف أن الفندق كان يواجه مكتبة لبيع الكتب فسرق منها بعض كتب التاريخ والفلسفة فحكمت عليه المحكمة بالحبس لمدة أربعة أشهر وذلك في ٣ ديسمبر عام ١٩٤٠. وفي ١٠ ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٤١ طارده ترزي كان جينيه قد سرق منه حزاماً مصنوعاً من القماش. وتمكن صاحب مكتبة أن يمنعه من الهرب بالقرب من كاتدرائية نوتردام لأن جينيه سبق وأن سرق منه أحد مؤلفات بروست فحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة أشهر ويوم. وبعد الإفراج عنه في مارس/آذار عام ١٩٤٢ التحق جينيه بالعمل في كشك لبيع الكتب على ضفاف نهر السين. واستمر حينذاك في تأليف رواية كان قد بدأها في السجن في بداية عام ١٩٤٢ بعنوان «عذراء الزهور». وبعد انقضاء ما يزيد قليلاً على الشهر على هذه الحادثة الأخيرة ألقي القبض عليه لسرقته بعض الكتب وحكم عليه بثمانية شهور في السجن حيث نظم قصيدة قام بطبعها فيما بعد على نفقته تحت عنوان «الرجل المحكوم عليه بالإعدام». وبعد الأفراج عنه من السجن في ١٥ أكتوبر/تشرين الأول من العام نفسه استطاع في نهاية العام أن ينتهي من تأليف رواية «عذراء الزهور».

وفي أثناء صعلكته على ضفاف السين قابل إثنين من المثقفين الفرنسيين اللذين قدماه إلى الأديب جان كوكتو الذي أبدى إعجابه بقصيدته وكان على وعي بأهمية كتابه «عذراء الزهور». وآل كوكتو على نفسه أن يجد ناشراً لهذا الكتاب. وفي أول مارس/آذار من عام ١٩٤٣ نفسه أوفى كوكتو بوعده فجعل سكرتيره يوقع معه عقداً بنشر ثلاث من رواياته وخمس من مسرحياته.

وفي يوم ٢٩ مايو/أيار من العام ذاته أعيد القبض عليه في ميدان الأوبرا بباريس بسبب قيامه بسرقة طبعة نادرة من إحدى المكتبات لقصيدة فيرلين «الأعمال الشهمة» وتعرض جينيه بسبب سجله الحافل باللصوصية للسجن المؤبد. ولكن جان كوكتو كلف أحد المحامين المرموقين بالدفاع عنه. وفحصه محلل نفساني فقرر أنه إنسان ضعيف الإرادة والأخلاق. ولولا وقوف كوكتو بجانبه ووصفه له أمام القاضي بأنه «أعظم كاتب في العصر الحديث» لكان سيحكم عليه بكل تأكيد بالسجن المؤبد. وترفق به القاضي وحكم عليه حكماً مخففاً بالسجن لمدة ثلاثة أشهر. وما كاد يخرج من السجن حتى عاد إلى السرقة فحُكم عليه بالحبس لمدة أربعة شهور. وفي ديسمبر/كانون الأول من هذا العام رأت روايته الإباحية «عذراء الزهور» طريقها إلى النور دون أن يجرؤ الناشر على وضع إسمه على الكتاب الذي أخذ القراء يتداولونه سراً.

وتضافر محبوه ومؤيدوه والمعجبون بفنه للإفراج عنه بصورة نهائية في ١٥ مارس/آذار ١٩٤٤ وكانت هذه آخر مرة يدخل فيها السجن. وفي مايو/أيار من هذا العام نفسه تقابل جينيه مع الفيلسوف الفرنسي المعروف جان بول سارتر في أحد مقاهي باريس. ومع نجاحه الأدبي في عالم الشعر والرواية والمسرحية أخذت أحواله تتحسن بشكل واضح فاستطاع أن يشتري قطعة أرض لبناء منزل. وكان من المفروض أن يقضي عقوبة أخرى بالسجن لمدة سنتين بسبب بعض سرقاته في الماضي. فتولى كوكتو وسارتر الدفاع عنه وقدما إلتماساً وقع عليه حشد من الفنانين والمثقفين الفرنسيين بإسقاط هذه العقوبة الباقية عنه. وفي عام ١٩٤٩ كتب الأديب المعروف فرانسوا مورياك مقالاً في الفيجارو الأدبي يدافع فيه عن جينيه. وأمام هذا الضغط الأدبي الكبير قام رئيس جمهورية فرنسا في ١٢ أغسطس/آب ١٩٤٩ بالعفو عن جان جينيه. وفي عام ١٩٥١ قام الناشر الفرنسي المعروف جاليمار بطبع ونشر أعماله الكاملة. ولكن القضاء الأمريكي حظر دخول كتبه إلى الولايات المتحدة.

حب شاذ يدوم إلى الأبد:

وفي ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٥٥ قابل جينيه شاباً عربياً في الثامنة عشرة من عمره يعمل في سيرك إسمه عبد الله بنتاجا فوقع في غرامه. وتمثل علاقته بعبد الله أهم علاقة غرامية شاذة عرفها في حياته لدرجة أنه باع حقوق نشر كتابه «أحلام محرمة» كي يشتري لعشيقه بعض معدات السيرك. وفي مارس/آذار كتب جينيه «فنان الأسلاك العالية» التي أهداها إلى عشيقه العربي. وفي نوفمبر - ديسمبر من هذا العام حرّض عشيقه عبد الله على الهرب من الخدمة العسكرية وقرر الإثنان السفر معاً إلى هولندا والدانيمارك. وفي العام التالي (١٩٥٨) تعددت أسفاره فزار كورسيكا وتركيا ومصر وإيطاليا والنمسا وألمانيا وهولندا والدانيمارك

وانجلترا فضلاً عن بقائه في اليونان لمدة طويلة. وفي أبريل/١٩٥٩ سقط عبد الله أثناء تدريباته في بلجيكا من فوق سلك السيرك فأصيب في ركبته الأمر الذي اقتضى إجراء عملية جراحية له في الركبة. وفي مارس/آذار ١٩٦٠ وقع حادث آخر لعبد الله فقد هوى من علٍ أثناء تقديمه أحد العروض في الكويت. والغريب أن جينيه كان يستحدث بعض ألعاب السيرك ويقترحها على عشيقه الذي أداها بنجاح عظيم. بل إنه كان يشارك عشيقه في التدريب على بعض الحركات الجديدة مثلما فعل في مدينة باليرمو الإيطالية في يناير/كانون الثاني ١٩٦١. غير أن عبد الله قرر أن ينبذ عمله بالسيرك في نهاية هذا العام.

وفي ١٢ مارس/آذار ١٩٦٤ أصيب جينيه بصدمة عنيفة عندما انتحر عبد الله في أحد فنادق باريس بقطع شرايينه. وبعد انتحار عشيقه قرر جينيه مغادرة فرنسا والسفر إلى إيطاليا وألمانيا. وقد بلغ به اليأس مبلغاً جعله يفضي إلى أصدقائه المقربين بعزمه على هجران الأدب. والجدير بالذكر أن الولايات المتحدة الأميركية رفضت في نوفمبر ١٩٦٥ أن تعطيه تأشيرة دخول بسبب شذوذه الجنسي الشائن. ولكن هذا على أية حال لم يمنع الناشرين الأمريكان من نشر أعماله بعد أن تمّ رفع الحظر عنها. حتى الجمهور الفرنسي المتحرر استقبل تمثيل مسرحية «البرافان» (الساتر) بالمظاهرات المضادة العنيفة. وفي مارس/آذار ١٩٦٧ انتحر مترجمه الأمريكي فريتشمان. ولم تمض أسابيع معدودة حتى حاول جينيه نفسه الإنتحار فقد وجدوه مغشياً عليه إثر تناول كمية هائلة من الحبوب المنومة في خندق قريب من الحدود الإيطالية. ولم يساعده على الشفاء غير الرحلة الطويلة التي قام إلى اليابان والشرق الأقصى في نهاية هذا العام.

وفي عام ١٩٦٨ أظهر جينيه تعاطفاً مع مظاهرات الطلبة في فرنسا وزار جامعة السوربون تعبيراً عن مؤازرته للحركة الطلابية ولكنه امتنع عن الإشتراك في إلقاء الخطب بهذه المناسبة. وإلى جانب ذلك تمكن من الدخول بطريقة غير قانونية إلى الأراضي الأمريكية من طريق كندا. وفي تلك الفترة من حياته كثرت أسفاره إلى بلاد العالم المختلفة. وفي ١٠ يناير/كانون الثاني ١٩٧٠ اشترك في مظاهرة مع الكاتبة المعروفة مرجريت ديرا للإحتجاج على سوء ظروف المهاجرين المعيشية في فرنسا الأمر الذي أدى إلى القبض عليه، ولكن السلطات الفرنسية ما لبثت أن أفرجت عنه. وفي شباط/فبراير من هذا العام زجت السلطات الأميركية بزعماء حركة «الفهد» السوداء في السجن فبعثوا إلى جينيه يناشدونه الوقوف بجانبهم فاقترح أن يحضر بنفسه إلى أمريكا التي استطاع مرة أخرى دخولها من طريق كندا بطريقة غير مشروعة. وفي أمريكا تحدث جينيه إلى طلبة الجامعات والصحافة مدافعاً عن قضية الزنوج. ولم تستطع السلطات الأمريكية السكوت عنه عندما ألقى خطاباً أمام خمسة وعشرين ألف شخص في نيوهافن

فاستدعته مصلحة الجوازات والهجرة فآثر أن يترك الولايات المتحدة على عجل كي يعود إلى باريس.

تتبع جينيه باهتمام شديد أحداث أيلول/سبتمبر الأسود ١٩٧٠، وهي مذبحة الفلسطينين في الأردن. وفي أكتوبر/تشرين الأول من هذا العام قبل دعوة للسفر إلى الشرق الأوسط لزيارة معسكرات اللاجئين الفلسطينية؛ ورغم أنه لم يكن في نيته البقاء غير أسبوع واحد فإنه مكث فيها عدة شهور فضلاً عن أنه عاد لزيارة فلسطين أربع مرات خلال فترة لا تزيد على عامين والتقى في أحد معسكرات اللاجئين سراً بياسر عرفات ووعده بشرح مأساة الفلسطينيين للعالم والدفاع عن قضيتهم. وأوفى جينيه بالوعد الذي قطعه على نفسه. فضلاً عن أنه دافع عن حقوق العمالة العربية المهاجرة إلى فرنسا، فقد اشترك في التوقيع على بيان بعنوان «دعوة إلى المثقفين للوقوف إلى جانب العمال والعرب». وفي عام ١٩٧٢ زار جينيه الشرق الأوسط للمرة الثالثة وكتب في سبتمبر من هذا العام مقالاً مستفيضاً قام الفلسطينيون بنشره في مطبوعاتهم باللغتين العربية والإنجليزية. واشترك بنشاط ملحوظ في المظاهرات المدافعة عن حقوق المهاجرين في شمال أفريقيا إلى فرنسا. فضلاً عن أنه شرع في تأليف كتاب عن محنة الفلسطينيين في الشرق الأوسط وزنوج أمريكا. وهو الكتاب الذي سوف ينشر فيما بعد بعد انقضاء أربعة عشرة عاماً بعنوان «سجين الحب».

وفي عام ١٩٧٤ بث جينيه برنامجاً إذاعياً امتدح فيه الكتاب المغاربة فضلاً عن أنه نشر سلسلة من المقالات المدافعة عن فرانسوا ميتران مرشح الحزب الإشتراكي. وفي سبتمبر/أيلول من هذا العام تعرف جينيه بآخر عشاقه في ميناء طنجة بالمغرب وإسمه محمد القطراني. وفي عام ١٩٧٥ كررت الولايات المتحدة رفضها إعطاءه تأشيرة لدخول أراضيها، فعاش مع رفيقه محمد القطراني في شقة صغيرة بضواحي باريس. وفي مارس/آذار ١٩٧٦ بدأ جينيه في كتابة قصة فيلم سينمائي بعنوان «سدول الظلام» استوحى أحداثه من علاقته برفيقه محمد القطراني. وفي عام ١٩٧٩ عرف جينيه أنه مصاب بالسرطان في حلقه فعولج بالكيميائيات. وكان هذا العلاج سبباً في إنهاك قواه. وفي عام ١٩٨٢ قرر مؤلفنا أن يقضي البقية الباقية من حياته في المغرب.

وفي هذا العام نفسه زار منطقة الشرق الأوسط بمرافقة مجاهدة فلسطينية تدعى ليلى شهيد. وزار بيروت في اللحظة نفسها التي قامت القوات الإسرائيلية بغزوها. وشاهد بعين رأسه المجازر التي ارتكبتها الميليشيات المسيحية في معسكرات اللاجئين في كل من صبرا وشاتيلا. وتأثر بمنظر الجثث الملقاة على الأرض فأوحى له هذا بكتابة مقال هام بعنوان «أربع ساعات في

شاتيلا» نشرته مجلة الدراسات الفلسطينية في شهر يناير/كانون الثاني ١٩٨٣. وفي ديسمبر/ كانون الأول من هذا العام منحته وزارة الثقافة الفرنسية الجائزة القومية الكبرى للأدب. وفي عام ١٩٨٤ عاد إليه مرض السرطان. وتوفي في ١٥ أبريل/نيسان عام ١٩٨٦ في غرفته بأحد فنادق باريس الصغيرة. ولكن دفنه تمّ بعد مرور عشرة أيام في الجبّانة الإسبانية المطلة على مدينة لاراش المغربية.

وبعد وفاته أصبح جينيه أسطورة بسبب حياته الشديدة الإضطراب فهو اللص العاهر المتشرد الذي استطاع أن يشق طريقه في عالم الأدب. ورغم مسلكه المشين فإنه تميز بسعة الإطلاع وعمق الثقافة، فقد توفر على دراسة المسرح الأغريقي وكان يأمل أن يكتب شيئاً شبيهاً به. كما أن حياته الشائنة الفاضحة لم تحل دون صداقته لبعض عظماء العالم له أمثال جان كوكتو وجان بول سارتر وألبرتو مورافيا والموسيقار سترافنسكي. فضلاً عن صداقته الوطيدة بزعماء الزنوج من أمريكا وبعض رموز جيل البيتنك الأمريكي وعلى رأسهم آلان جنسبرج والروائي المغربي طاهر بن جلّون. كان جينيه متعدد المواهب فقد ألّف الشعر والرواية والمسرحية والمقال والنقد وسناريوهات الأفلام. وكان يتصرف على نحو غريب في عشقه المثلي. فكثيراً ما كان يقوم بدور الخاطبة ويزوج عشاقه الذكور من النساء ويشتري لهم البيوت التي كان في بعض الأحيان يصممها بنفسه. وكان يحتفظ في كل بيت من هذه البيوت بركن خاص به، ولكنه كان من النادر أن يحضر إليها. وكان يحلم شخصياً بأن يكون له بيت خاص به ولكن هذا لم يتحقق إذ أمضى معظم حياته في الفنادق فضلاً عن أنه كان لا يعيش عيشة مستقرة في الشقق التي يستأجرها.

ليس من شك أن جان جينيه نشأ معقداً بسبب إدراكه لأنه لقيط. ومن دلائل تعقيده أنه كان دائب الزراية بفكرة الأمومة كما يتجلى لنا من روايته الأولى «عذراء الزهور» المنشورة بين عامي ١٩٤٣ و١٩٤٤. ومن المحتمل أن تكون أمه قد أنجبت شقيقاً له. وقد رفضت إدارة الشئون الإجتماعية فتح الملفات الخاصة بمؤلفنا حتى لا يكون هذا مدعاة لإحراج أي شقيق له قد يكون على قيد الحياة. إن العادة درجت على أن تقوم المستشفى بعزل اللقطاء عن أمهاتهم بعد يومين أو ثلاثة من الولادة وتسليمهم إلى أمهاتهم بالتبني الجدد. ولكن من حسن حظ جينيه أنه بقي في رعاية والدته لمدة سبعة شهور متصلة ولا يعرف على وجه التحديد السبب في ذلك. هل كانت أمه تأمل في تربيته في كنفها، ولكن ظروفها السيئة اضطرتها إلى التخلي عنه أم كانت تريد الإحتفاظ به حتى يتم فطامه في وقت معقول. أم كانت تبغي الحصول على المكافأة التي تمنحها الدولة للأمهات العازبات تشجيعاً لهن على الإحتفاظ بأطفالهن. ولعل هذا من حسن حظ مؤرخي الأدب. فلو أن والدة جينيه سلمته قبل إنقضاء الشهور السبعة لما

اضطرتها ملاجيء الدولة إلى الإفضاء بإسمها ولما عرف الدارسون من هي والدته. وبعد تسليمها الطفل إلى ملجأ الأيتام قام بتوقيع الكشف الطبي عليه فاتضح أنه بصحة جيدة ولا يعاني من أية أمراض معدية.

جينيه يعيش في كنف أسرة ريفية:

كانت أمه بالتبني وهي امرأة متدينة إسمها يوجيني على علاقة طيبة براهب وسيم إسمه لوسيين عرف عنه غواية الكثيرات من نساء القرية. وقد صوره مؤلفنا في «عذراء الزهور». أما والده بالتبني شارل فكان حرفياً قليل الكلام. وفي طفولته سعت أمه بالتبني إلى إعداده كي يكون قسيساً، فقد كان عضواً في كورال الإنشاد الديني. ويبدو أن والديه بالتبني كانا يعاملانه برفق وحنان. ويرى بعض الشهود أن جينيه كان طفلاً محظوظاً فقد تربى في بيت نجار وليس في بيت فلاح الأمر الذي أتاح له وقتاً كافياً للدراسة والتحصيل. ومما زاد من حسن حظه قرب سكنه الشديد من المدرسة فلم يفته حضور الحصص. فضلاً عن أن هذا القرب يسر له الإلتقاء بمدرسيه وقتما شاء لأن بعضهم كان يقطن في المدرسة نفسها مثل مسيو شوبارت إلذي علمه القراءة والكتابة. غير أن قسيس القرية كان يفرق في معاملته بين الأطفال الشرعيين من أعضاء الكورال الكنسي والأطفال غير الشرعيين فهو يستعين بالأطفال الشرعيين في الصلاة على الوجهاء في الموتى ويستعين بالأطفال غير الشرعيين، في الصلاة على الموتى الفقراء. ناهيك بمعايرة الأطفال لهم بأنهم أولاد حرام وأولاد كلاب إلى آخر هذه النعوت. وفي أيام الدراسة حدثت له واقعة يقول جينيه إنها كانت السبب في الشعور بالمقت الشديد نحو فرنسا. ويضيف أن هذه الحادثة جعلته يشعر رغم بياض بشرته أنه مضطهد، فقد طلب مدرس الفصل من تلاميذه كتابة وصف للمنازل التي يعيشون فيها فأعجبه وصف جينيه لبيته وامتدحه أمام أقرانه الذين احتجوا على مدرسهم بقولهم: «إنه ليس بيته فهو إبن بالتبني». عندئذٍ غمره إحساس كاسح بالمذلة والهوان وشعر بكراهية عمياء نحو بلاده.

كان من عادة الصبي جينيه أن يستعير الكتب من المكتبة الصغيرة الموجودة بمدرسته حيث انكب على قراءة قصص المغامرات وأعمال كل من فكتور هيجو وجورج صاند. ويشهد زملاؤه في الدراسة على ولعه الشديد بالقراءة وكان غامضاً في بعض الأحيان عزوفاً عن الإختلاط بأقرانه هادىء الطبع قليل الكلام مستغرقاً في الأحلام لا يبتسم إلا نادراً. ويعزو أحد أقرانه ميله إلى التأليف السينمائي إلى فترة الحرب العالمية الأولى حيث حلّت بعض الفرق في القرية وأقامت خيمة في ميدانها تعرض فيه كل يوم فيلماً جديداً. وإلى جانب الكتابة للسينما

أثر عشقه الباكر لها في أسلوب كتابته اللاحقة فهو أسلوب يقترب كثيراً من أسلوب المعالجة السنيمائية.

وفي شبابه كان جينيه يتردد على أحد الملاهي الليلية في حي مونمارتر بباريس ويقال إن شاباً مخنثاً إسمه مارسيل باتيفولييه كان أثناء وجوده في هذا الملهى يقرأ الصحيفة لشاب آخر يدعى إرنستين فاعترضته كلمة بيديراست الأجنبية ومعناها «من يؤتى من الخلف» فسأل عما تعنيه هذه الكلمة. فإذا بعض النساء الموجودات في الملهى ينفجرن في الضحك قائلات للسائل عن معنى الكلمة، «لا تسأل وإلا سرعان ما سيكون بين ظهرانينا جان جينيه آخر». الأمر الذي يدل على جنوحه منذ يفاعته نحو المثلية. وأيضاً كانت هناك شواهد عديدة على تخنثه حتى في شبابه ما يتناقض مع مظاهر الرجولة التي إكتسبها في حياته اللاحقة. ومن دلائل تخنثه استمتاعه العظيم بصحبة الفتيات والنساء وإظهاره ما يظهرن من اهتمام مثل تصميم الفساتين وخبز الفطائر وتنظيم الحفلات النسائية واختراع أكلات جديدة لدرجة أن أحد سكان قريته قال عنه إن له عقلية نسائية.

قلنا إن جان جينيه كان عضواً في كورال الإنشاد الكنسي يؤدي عمله بكل جدية واهتمام لدرجة أن القسيس رقاه إلى المنشد الأول في الفرقة الكورالية. وبترقيته أصبح الصبي يصاحب القسيس أثناء تلاوته القداس. وخلبت طقوس الكنيسة وشعائرها لب الصبي وأثارت خياله الأدوات التي استخدمها القسيس في إقامة هذه الطقوس مثل الشمعدانات المذهبة الجميلة ومفروشات المذبح الموشاة بالفضة. وكان يحلو للصبي أن يتخيل نفسه كاهناً يؤدي شعائر الزواج والميلاد والموت. ومن الغريب أن يتحول هذا الصبي المؤمن بالدين إلى كاتب يسخر من الكنيسة ووجود الله. فنحن نرى كيلد فروى في رواية «عذراء الزهور» يدخل خلسة إلى الكنيسة ويدنس مقدساتها. وقد كتب جينيه في أحد أعماله في هذا الصدد يقول: «حدثت المعجزة... وهي أنه ليست هناك معجزة. إن الله أصبح كالبالونة المفشوشة. الله أصبح شيئاً أجوف، مجرد ثقب فارغ... شكل جميل مثل رأس ماري أنطوانيت المجوفة والمصنوعة من الصلصال».

ويعترف جان جينيه بأنه كان في طفولته يسرق أشياء صغيرة من والديه بالتبني وأنه لم يجد أية غضاضة في سرقة من يحبهم حتى ولو كانوا فقراء. ورغم أن وصفه بأنه حرامي كان يحز كثيراً في نفسه فإنه شعر بالرغبة في التباهي بأنه لص. وبعد مرور أكثر من خمسة وستين عاماً شهد بعض زملائه السابقين في المدرسة بأنه يسرق إمداداتها من أدوات كتابية. تقول ماري لويز روبرت وهي زميلة له في الدراسة إنه كان يسرق النقود من خزانة محل بيع السجائر الذي

تديره برتي أخته بالتبني. ولكن جينيه لم يكن لصاً عادياً فقد كان يحب أن يشارك الآخرين في حصيلة ما يسرق. غير أن أمه بالتبني كانت تثق في أمانته ثقة عمياء، فقد رفضت أن تستمع إلى والدة ماري لويز روبرت عندما حاولت أن تنبهها إلى أن أبنها بالتبني حرامي. ويبدو أنه تعلم السرقة قبل أن يبلغ العاشرة من عمره وأنه بدأ بسرقة بعض الحلوى التي احتفظت بها أمه في دولاب الصحون والفناجين. وكان من عادته كما أسلفنا توزيع حصيلة سرقاته على المعارف والخلاّن. ففي يوم من الأيام اكتشف مخزن الأدوات الكتابية الخاص بالمدرسة فسطا على كل ما يحتويه المخزن من كراسات وأقلام رصاص. وثمة شيء آخر لفت أنظار زملائه في أيام الدراسة هو إصراره على التحدث معهم بلغة فرنسية فصحى وليس باللغة الدارجة التي درج التلاميذ على استخدامها فيما بينهم. ويشهد زملاء الدراسة بأن جينيه كان طفلاً محظوظاً بالمقارنة ببقية أطفال القرية بالتبني، فوالداه بالتبني لم يسندا إليه أي عمل شاق وعاملاه برفق فلم يطلبا منه غير جر البقرة إلى المرعى ثم إعادتها إلى الحظيرة في المساء. ولم يكتف الصبي أن يكون لصاً بل شجع زملاءه على السرقة فحرض طفلاً بالتبني آخر أن يسرق من والديه ورقة بمائة فرنك. غير أن بائع الخضراوات اكتشف أمر هذه السرقة عندما حاول الصبي أن يفكها منه. ورغم سرقات جينيه فإن أقرانه من التلامذة كانوا ينظرون إليه باحترام بسبب تفوقه الدراسي عليهم، فقد دأب أستاذه على قراءة موضوعاته الإنشائية على الفصل. ثم إنه كان أحد القلائل في قريته الذين استطاعوا اجتياز الإمتحان السنوي الذي عقدته الدولة. وكانت نتيجة اجتيازه الإمتحان العام أن الدولة منحت العائلة التي تبنته مبلغاً إضافياً من المال قيمته خمسون فرنك كما نفحت معلمه أربعين فرنكاً. فضلاً عن أنها أعطت جينيه نفسه عشرة فرنكات.

وفي صباه تعرف جينيه بفتاة يتيمة إسمها سولاج فربطها الإستغراق في الخيال بأوثق الروابط. وعندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها في نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٨ تم تسريح جورج شقيق جينيه بالتبني من الجيش كما تم تسريح زوج برت أخته بالتبني. وكان كلا الرجلين يحملان المقت للصبي الذي لم يخف مقته لهما. ويبدو أن جميع السرقات التي ارتكبها جينيه تمت في الفترة من ١٩٢٠ حتى ١٩٢٢ أي عندما كان بين العاشرة والثانية عشرة. والواقع أن أم جينيه بالتبني كانت شديدة التدليل له. وربما كانت تدرك أنه لص ولكنها رفضت إعلان هذا على الملأ. ودفعها تدليلها للصبي إلى أن تتركه يفعل ما يشاء في البيت وزاد من حدة تعلقها بابنها بالتبني أن جورج إبنها الحقيقي غاب عنها على جبهة القتال. وبطبيعة الحال فرحت الأم بعودة إبنها الحقيقي من الحرب وبدأت عواطفها تتحول من إبنها بالتبني إليه، الأمر الذي أوغر صدر جينيه وجعله يشعر بالغيرة منه. ولعل غيرته من جورج دفعته إلى السطو

على ممتلكات شقيقه بالتبني. ونحن نرى جينيه في أدبه يعلي من شأن المجرمين الأحداث ويمجد عناصر البطولة فيهم.

قلنا إن جينيه كان عضواً بارزاً في كورال الكنيسة. وكان من عادة القسيس أن ينفح أعضاء هذا الكورال مبلغاً صغيراً من المال لشراء الحلوى كمكافأة لهم على المجهود الذي يبذلونه في الإنشاد الديني في حفلات الزواج والجنازات. ولكن هذا القسيس امتنع عن إعطاء أطفال الكورال مستحقاتهم وتراكمت عليه الديون فتزعم الصبي جينيه إضراباً ضده وحرّض بقية زملائه في كورال الكنيسة على الإمتناع عن العمل إلا بعد أن يدفع لهم القسيس مستحقاتهم. والغريب أن الصبي جينيه الذي لا يتورع عن سرقة أحبائه كان على وعي كامل بما له من حقوق مالية لدى الآخرين. وبلغ سوء سمعته حداً جعل زميلاً له في الدراسة أسمه فيليكس رونين يقول عنه: «أستطيع أن أقول لك أنه كان صبياً يفتقر تماماً إلى الأمانة». في عام ١٩٥١ أصدر الفيلسوف الفرنسي المعروف جان بول سارتر كتاباً بعنوان «القديس جينيه: الممثل والشهيد» ذهب فيه إلى أن جينيه اختار طريق الشذوذ الجنسي بمحض إرادته. غير أن اعترافات جينيه تدحض هذا الرأي. يقول جينيه في هذا الشأن: إن المرء لا يستطيع أن يختار حياته الجنسية تماماً كما أنه لا يستطيع أن يختار لون عينيه. وعندما طرحت عليه مجلة «بلاي بوي» في عام ١٩٦٤ هذا السؤال: «هل اخترت عن عمد أن تصبح من شواذ الجنس وخائناً ولصاً وجباناً؟» أجاب بالنفي قائلاً: «إن هذا لم يكن من اختياري. ولم يصدر عني أبداً قرار بذلك... كنت أسرق لسبب بسيط هو شعوري بالجوع. وفيما بعد تعين علي تبرير هذه السرقة واستيعابها. أما بالنسبة لشذوذي الجنسي فلست أعرف أي شيء عنه. فمن ذا الذي يعرف السبب في شذوذه الجنسي... كنت في طفولتي على وعي بقدرة الأولاد الآخرين على اجتذابي نحوهم. فأنا لم انجذب نحو النساء مطلقاً. ومعنى هذا أنني اتخذت قراري بعد أن شعرت بهذه الجاذبية نحوهم. أي أنني بعد إنجذابي نحوهم اخترت طريق المثلية بمحض إرادتي طبقاً لمفهوم سارتر عن الحرية.» وبعد مرور إثني عشر عاماً على هذا الإعتراف سأله سائل عن الوقت الذي اكتشف فيه إنجذابه نحو الرجال فقال: «في وقت باكر للغاية. ويحتمل أنني كنت في الثامنة من عمري أو في العاشرة على أقصى تقدير. كنت صغيراً جداً على أية حال».

تمتع جينيه بملكة التأليف المسرحي التي تفوق ملكته في قرض الشعر وتأليف الروايات. ويرى بعض النقاد أن شعره وقصصه تأثرا تأثراً واضحاً باهتماماته المسرحية. ويدور كل إنتاجه الأدبي حول علاقات القوى داخل المجتمع. والجدير بالذكر أن الصبي جينيه توقف عن السرقة عندما توفيت أيوجيني أمه بالتبني في ٤ أبريل/نيسان ١٩٢٢ وأن ابنتها برت هي التي تكفلت

بتربيته بعد موت أمها وبذلك صار زوجها مشاركاً في مسئولية تربية الطفل. وعامل زوج برت الصبي بخشونة وحاول أن يسند إليه أداء بعض الأعمال الشاقة لولا أن الصبي قاومه بعناد واضح فاقتصر عمله على مساعدة برت في جمع الزوان من حقل الخضراوات والذهاب بالبقرة الحلوب إلى المرعى. علماً بأن جان جينيه أخذ أول تناول له في هيكل الكنيسة في ٤ يونيه/ حزيران عام ١٩٢٢ وكان يبلغ آنذاك الحادية عشرة من عمره.

جينيه في سجن ميتراي:

وعندما التحق جان جينيه بمدرسة الحرفيين في باريس كان عليه أن يختار بين تعلم النجارة أو الطباعة فآثر أن يتعلم الطباعة. ولم يكد يمر أسبوعان على انتظامه بمدرسة الحرفيين حتى فرّ هارباً منها. فنشرت إدارة المدرسة في ٣ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٤ تقريراً بأوصافه جاء فيه أنه ذو منظر مخنث. ولا غرو فقد كان يعقص شعره الطويل كالنساء. وذكرت إدارة المدرسة أنه لم يكن هناك ما يبرر هربه من المدرسة على الإطلاق غير ضعفه الذهني وفساد عقله بسبب استغراقه في قراءة قصص المغامرات، الأمر الذي زيّن له منذ بداية التحاقه بالمدرسة فكرة الهرب إلى أمريكا أو مصر والعمل في مجال السينما. وزاد في غرابة هروبه من المدرسة أنها لم تكن ترغمه على البقاء فيها، فقد كان في وسعه أن يتركها ويعود إلى ذويه بالتبني في نهاية الشهر. والغريب أيضاً أنه في كل مرات هروبه كان يتوجه شطر الموانىء لأن الموانىء هي وسيلته إلى الخروج إلى العالم الخارجي. وبعد هروبه من المدرسة ألقي القبض على الغلام الهارب في ميناء نيس يوم ١٠ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٤.

وفي أبريل/نيسان ١٩٢٥ قام مدير الشئون الإجتماعية بإسناد تربية الغلام إلى موسيقي ومغنٍّ شعبي ضرير يدعى رينيه دي بوكسيل بسبب احتياجه إلى مرشد وسكرتير. ويقول سارتر إن جينيه تعلم من هذا المغني الشعبي قواعد العروض والقوافي أي أنه تعلم منه قواعد القريض. ولكن علاقة هذا المغني بجينيه سرعان ما تدهورت بسبب عودة جينيه إلى السرقة، الأمر الذي أدّى إلى حبس الغلام في إصلاحية. فقد أعطاه مخدومه ١٨٠ فرنكاً لشراء بعض الحاجيات ولكن الغلام بدد هذا المبلغ عن آخره في خيمة ملاهٍ رآها مقامة في طريقه. وأبلغ مخدومه الشرطة بهذه السرقة فلم ينكر جينيه أنه بدد المبلغ المعطى له. وبهذا فتح البوليس الفرنسي ملفاً لمؤلفنا باعتباره مجرماً منحرفاً. ويبدو أن مسلكه في فترة بقائه عند الضرير كان مسلكاً منحرفاً من الناحية الأخلاقية. فقد كان يخرج من البيت تحت جنح الظلام واضعاً المساحيق على وجهه على نحو ما تفعل النساء. وبعد مرور عامين على ترك جينيه مخدومه استدعت الشرطة المغني الشعبي الضرير كشاهد عندما ألقي القبض على الغلام لأنه استقل القطار بدون أن يحمل

تذكرة سفر. فاحتج جينيه على هذا بقوله إن السفر يتطلب وجود نقود معه. فماذا يفعل وهو يعشق السفر؟!

وفي ٥ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٥ أجرى أحد الأطباء النفسيين كشفاً على جينيه عندما كان في الخامسة عشرة من عمره. وقرر هذا الطبيب أن الغلام يعاني الضعف الذهني وعدم الإتزان العقلي، الأمر الذي يقتضي وضعه تحت إشراف خاص. واقترح الطبيب النفسي إلحاقه بمؤسسة في باريس تعنى برعاية الأطفال والمراهقين المنحرفين كمحاولة أخيرة لإصلاح حالهم قبل تحويلهم إلى إصلاحيات الأحداث. غير أن الصبي لم ينصلح حاله، ففي ٩ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٦ لاذ بالهرب من هذه المؤسسة. وبعد مرور عشرة أيام على هروبه وجده البوليس الفرنسي هائماً على وجهه في ميناء مارسيليا. ويصف لنا جينيه في روايته «عذراء الزهور» جانباً من حياة التشرد التي عاشها آنذاك وكيف أنه كان يقتات من صناديق القمامة. وبعد أن ألقى البوليس القبض عليه في ميناء مارسيليا أعاده إلى باريس. ولكنه عاد إلى الهرب مرة أخرى في غضون أقل من شهر. وألقي القبض عليه عندما استقل القطار من باريس إلى ميناء بوردو بدون تذكرة سفر. وبعد يومين من إعادة إلقاء القبض عليه اقتاده البوليس في ٨ مارس/آذار ١٩٢٦ إلى سجن بيتيت روكيت. وبعد خروجه من السجن عهدت إدارة الشئون الإجتماعية في باريس بتربيته إلى عائلة ريفية في مدينة أبيفيل في شمال فرنسا حيث عمل بفلاحة الأرض. وكعهده دائماً سرعان ما اختفى من المزرعة ليلقى القبض عليه في مدينة مو في ١٩ يوليه/تموز ١٩٢٦. وانتهى الأمر بالزج به في سجن هذه المدينة وأطلق سراحه منه بعد مرور خمسة وأربعين يوماً من الحبس فيه. وفي ٢ سبتمبر/أيلول ١٩٢٦ اقتاده حارسه مكبلاً بالأغلال إلى إصلاحية ميتراي الزراعية.

تصور رواية «معجزة الوردة» (١٩٤٦) على نحو مفصل تلك الفترة من حياته، فنصف هذه الرواية يتناول حياة جينيه في مستعمرة أو إصلاحية ميتراي. لقد كان الهدف من إلحاقه بإصلاحية زراعية هو وضع الغلام في جو ريفي وزراعي على أساس أن احتكاكه اليومي بالطبيعة سوف يقيه من الإنحراف. ولم تكن مستعمرة ميتراي قاصرة على اللقطاء والعاديين من المنحرفين، بل كانت مكاناً ترسل إليه بعض العائلات النبيلة المنحرفين من أبنائها. وفرض المسئولون عن هذه المستعمرة الزراعية على نزلائها روتيناً يومياً، صارماً يتلخص في العمل شبه المتواصل لمدة ثلاث عشرة ساعة يومياً الأمر الذي حدا جينيه إلى التذمر. وإلى جانب العمل في المزرعة والمحاجر وتعليم النزلاء حرفاً مثل الحدادة والبناء ورتق الأحذية وتفصيل الملابس اهتمت مستعمرة ميتراي بتلقينهم مبادىء الدين المسيحي والموسيقى. وتشمل روايته «معجزة، الوردة»

أحلام يقظته المريضة حيث تخيل جينيه نفسه صبياً يعمل على ظهر سفينة قراصنة ينتهكون جسده بانتظام ويرغمونه على الصعود عارياً أعلى الصاري.

ومن الواضح أن العنف والقسوة والشذوذ الجنسي انتشرت على نطاق واسع في مستعمرة ميتراي. وقد نشر صحفي بارز إسمه الكسيس دينان عام ١٩٣٦ كتاباً عما في هذه المستعمرة من قسوة وشذوذ، الأمر الذي أدى إلى إغلاق السلطات الفرنسية لها عام ١٩٣٩. ومن جانبه قام جينيه في كتابه «لغة الأسوار» المنشور في الثمانينات من القرن العشرين بفضح إدعاء مستعمرة ميتراي بأنها مؤسسة داعية إلى التراحم والإحسان، فقد قال إن هذه المستعمرة تجني الأرباح الوفيرة من وراء استغلال عمالة الأحداث دون أي مقابل. وذهب جينيه إلى القول إن إصلاحيات الأحداث في بلاده أعدت القتلة والمجرمين للإنضمام إلى جيش الإستعمار الفرنسي وأن مستعمرة ميتراي وحدها استطاعت على مدى قرن أن تمد الجيش الفرنسي بما لا يقل عن عشرين ألف جندي. وأضاف جينيه أن الحكومة الفرنسية أعدت خطة لتمكين الأيتام والسجناء المفرج عنهم من استيطان الجزائر. وأيضاً شعر جينيه بالعطف على قضية الفلسطينيين المشردين من بلادهم، وذهب إلى أن إصلاحية ميتراي وراء كثير من المصائب التي لحقت بهؤلاء الفلسطينيين. فأحداث هذه الإصلاحية الذين شاركوا في استعمار تونس جردوا كثيراً من قبائلها البدوية من جميع ممتلكاتها، الأمر الذي أرغم هذه القبائل على النزوح إلى فلسطين. والغريب أن جينيه مجد مستعمرة ميتراي وأعلى من شأنها ورأى في تفشي القسوة والإجرام فيها رمزاً للبطولة والتمرد والفردية المتميزة. ويدافع جينيه عن المجرمين والخارجين على القانون فيقول: «أما أنا فقد اخترت أن أكون في صف الجريمة. وسوف لا أساعد الأطفال على دخول إصلاحياتكم ومصانعكم ومدارسكم وقوانينكم ومقدساتكم ولكن على انتهاكها.» وراق له في مستعمرة ميتراى سيادة أخلاق القرون الوسطىفيها. فالعبد في القرون الوسطى عليه السمع والطاعة والسيد عليه الأمر والنهي. ويضيف جينيه إلى هذا أنه شعر بقدر من السعادة يغمره لإحساسه بأنه يمتلك ما في المزرعة من حقول وغابات وبساتين وينابيع ماء ومراعٍ ألخ. ويذهب جينيه إلى أن مستعمرة ميتراي هي التي وضعت فيه بذرة الكتابة عندما كان في الخامسة عشرة من عمره. وهي بذرة لم تؤت ثمارها إلا بعد إنقضاء نحو خمسة عشر عاماً أخرى من حياته. وقد ارتضى جينيه لنفسه أن يكون من طبقة العبيد الذين يسمعون فيطيعون ويقدمون فروض الطاعة والولاء للآمرين والناهين الأقوياء والأشداء. ولكن الصبي جينيه لم يكن كسائر العبيد، فقد تميز عنهم بمنظره الأنثوي الجذاب ما جعل أقوياء المستعمرة يتطاحنون للإستحواذ عليه. وهو لم يشعر بأية غربة في ميتراي لأنه كان لقيطاً وسط اللقطاء وطريداً وسط المطاريد. ويعترف جينيه بانتمائه القوي إلى مجتمع الخارجين على القانون. فعندما مات طفل في مستشفى

المستعمرة قام الأطفال الآخرون بحفر قبر لدفنه فيه. حينئذ شعر جينيه أن الذي مات أقرب إليه من حبل الوريد.

وقد تناوب على الزواج من الصبي جينيه ثلاثة من الأحداث الأشداء كان فيليروي أولهم. وعندما التحق فيليروي بالبحرية سلمه إلى فان روي، ولكن فان روي أعجبه طفل آخر فترك عشيقه جينيه لشاب يدعى ديفيرس. ويسجل جينيه بلا حياء تجاربه الجنسية الشاذة في روايته معجزة الوردة». وتم زواج ديفيرس منه في منتصف الليل في كنيسة المستعمرة. وشهد على الزواج إثنا عشر زوجاً وعشاقهم من الأحداث. ويصف جينيه ليلة زفافه إلى ديفيرس بأنها أجمل أيام حياته. ولولا أن فيليروي القوي كان يحميه لأصبح مطمعاً مشاعاً لهم جميعاً. يقول جينيه: «أحببت فيليروي الذي أحبني. وأصبحت زوجة له». ويروي جينيه على نحو مقزز تفاصيل علاقته الشاذة بفيليروي وكيف أنه كان يمص قضيبه ويبتلع سائله المنوي ويقبل الشعر الأسود المحيط بعضو الذكورة فيه. فضلاً عن بذاءات فظيعة أخرى مثل تلك الميدالية الحاملة لصورة قلب يسوع المسيح والمتدلية من صدر فيليروي والتي كان جينيه يضعها في فمه.

ولكن إدارة مزرعة ميتراي لم تكن تدري شيئاً عن ممارساته الشاذة، بل اعتبرت سلوكه العام مرضياً. ولهذا استجابت له عندما طلب منها العمل في مزرعة خاصة. غير أن جينيه لم يكد يقضي شهراً واحداً في هذه المزرعة الخاصة حتى هرب منها ليبدأ من جديد حياة التجوال والتشرد. ونظراً لبرودة الجو قام بسرقة بطانية لتدفئة جسده. ويتضمن كتابه «يوميات حرامي» وصفاً تفصيلياً لهذه الحادثة. ولكن البوليس ما لبث أن ألقى القبض عليه بتهمة التشرد والسرقة وزج به في سجن أورليانز لمدة عشرين يوماً قدم بعدها إلى محكمة أورليانز للأحداث وحكمت عليه المحكمة بأنه مذنب. ولكنها لم تر مانعاً من تبرئته عندما أبدى مدير مستعمرة ميتراي استعداده لقبول عودة الهارب إليها. وهكذا عاد جينيه إلى مزرعة ميتراي حيث ظل يعيش فيها طوال الفترة من ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٧ حتى مارس/آذار ١٩٢٩. وتمثل هذه الفترة الثانية التي قضاها جينيه في مزرعة ميتراي علامة بارزة في طريق تطوره الأدبي. ففيها انكب على قراءة شاعر فرنسا الكبير رونسار (١٩٢٤ - ١٩٨٥) الذي حفظ أشعاره عن ظهر قلب. والجدير بالذكر أن جينيه أولى جمال اللغة الفرنسية اهتماماً بالغاً مثلما فعل الشاعر رونسار من قبل. يقول جينيه في هذا الشأن: «إذا كانت اللغة سبباً في غوايتي - وهي بالتأكيد كذلك - فإن هذا لم يحدث لي في المدرسة بل حدث لي في مزرعة ميتراي وأنا أناهز الخامسة عشرة من عمري عندما أعطاني شخص ما ربما من طريق الصدفة البحتة سونيتات رونسار. فأغشي علي عند قراءتها. كنت أريد من رونسار أن يفهمني فهو لا يتسامح مطلقاً في استخدام اللغة الدارجة. وما أردت قوله تطلب مني استخدام هذه اللغة كشاهد على عذابي.» ولعلنا

نذكر في هذا الصدد أن الصبي جينيه أصر وهو تلميذ بالمدرسة على التحدث إلى أقرانه بالفرنسية الفصحى على خلاف بقية التلاميذ الذين اعتادوا استخدام الفرنسية الدارجة. وإلى جانب إهتمامه بالأدب الراقي مثل أدب دستيوفسكي وبروست ورونسار وراسين وشاتوبريان اهتم جينيه بأدب المغامرات والجريمة. ومن المؤكد أن مؤلفنا وجد في عالم الجريمة سحراً خاصاً دعاه إلى تكريس أدبه لتمجيده. والجدير بالذكر أن ذكرياته عن مستعمرة ميتراي معقدة وذلك لتأرجحها بين نقيضين هما شعوره بالسعادة والتعاسة معاً في هذه المزرعة.

جينيه يتطوع في الجيش:

وعلى أية حال قدم جينيه في أول مارس/آذار ١٩٢٩ طلباً بالإنضمام كمجند إلى صفوف الجيش حيث تطوع للخدمة العسكرية لمدة سنتين. وانتهى الأمر بإلحاقه بكتيبة سلاح المهندسين المتمركزة في أفينيون. وتقدم جينيه إلى إدارة التجنيد بطلب آخر من أجل إلحاقه بقوات الشرق الأدنى المتمركزة في بيروت. ولعله كان يطمع في الحصول على مكافأة العشرين فرنكاً التي منحتها إدارة الشئون الإجتماعية إلى كل مجند يتطوع للخدمة العسكرية في مراكش أو سوريا. وفي ٢٨ يناير/كانون الثاني ١٩٣٠ أبحر جينيه من مارسيليا إلى بيروت فوصل إليها في ٤ فبراير/شباط في العام نفسه. وما إن وطأت أقدامه أرض بيروت حتى لفتت نظره أربعة مشانيق تدلت جثثهم في الهواء. وكانت فتحات بنطلوناتهم أول ما لفت نظره إلى هؤلاء المشنوقين، فقد سمع أن قضيب الرجل ينتصب عند شنقه وأنه يقذف سائله المنوي لآخر مرة.

من الواضح أن شخصية الجاسوس الإنجليزي المعروف ت.إي. لورانس مؤلف «أعمدة الحكمة السبعة» راقت له. فهو لم يقرأ كتابه فحسب بل راقت له أيضاً ممارسته الشذوذ الجنسي مع الأعراب. وخالط جينيه الفلسطينيين والسوريين مثلما خالط ت.إي. لورانس الأعراب من قبل. وفي ٢٤ يوليه/تموز ١٩٢٠ اجتاحت القوات الفرنسية الأراضي السورية. وعندما تمرد الدروز ضد القوات الفرنسية الغازية قام الجنرال الفرنسي جورود بقذف دمشق بالمدفعية وتحويلها إلى كومة من الركام. وانتهى الأمر بتكريس الإحتلال الفرنسي ووضع سوريا تحت الإنتداب الفرنسي الذي استمر من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٤٠. ورغم أن الأوامر الصادرة عن قيادة جيش الإحتلال في سوريا ألزمت الجنود الفرنسيين بضرورة التزام الحذر وعدم التجوال فرادى أو بدون سلاح، فقد ضرب جينيه بهذه الأوامر عرض الحائط. وأغرته أسواق دمشق فجازف بالتجوال فيها بمفرده وبمخالطة الأهالي دون أن يحمل معه أي سلاح. وكان يحلو للأطفال في دمشق المنكوبة أن يقتادوه ليرى بنفسه آثار الخراب الذي أحدثته مدافع الجنرال

جوروود فشعر بالعطف على السوريين لأنهم ضحايا العدوان الفرنسي عليهم، الأمر الذي زاد من مقته لبلاده وذكره بما لقيه في حياته الباكرة من بني جلدته من تعسف. وهكذا اعتبر جينيه نفسه ضحية الفرنسيين تماماً كما السوريون ضحايا لهم. وبطبيعة الحال دفعه بؤس حياته الباكرة إلى إظهار العطف نفسه على الفلسطينيين المشردين.

كان جينيه في التاسعة عشرة من عمره عندما وطأت قدماه الأراضي السورية. وهو يروي لنا في كتابه «سجين الحب» أن إدارة الجيش أسندت إليه مهمة إعادة بناء بعض المباني التي تهدمت أثناء الغزو. وغمره شعور جارف ومنعش بالحرية التي تمتع بها في فترة تجنيده بالشام مقابل حياة الحرمان التي عاشها في ميتراي وغيرها من الإصلاحيات. وعلناً وقع مؤلفنا في غرام حلاق سوري يبلغ من العمر ستة عشر عاماً. ولم تكن هذه العلاقة الشاذة سراً خافياً على أحد من الأهالي الذين ابتسموا لها. ويعترف جينيه أنه لم يكن بمقدوره أن يقيم أية علاقة جنسية مع أي من الغلمان دون أن يحس نحوهم بعاطفة الود والحب. في حين كان كسب المال دافعه إلى إقامة علاقة مثلية ببعض الذكور الذين لا يحمل لهم الحب، الأمر الذي يدل على أنه يتصرف على نحو ما تتصرف به المومسات. ولم يكن جينيه يحترم الأوامر العسكرية فقد كان يخرج من الثكنات تحت جنح الظلام ويرتاد المقاهي الصغيرة في الأسواق حيث يستمر في لعب الميسر حتى مطلع الفجر ثم يعود إلى معسكره منهوك القوى. وبطبيعة الحال كان الشبان السوريون يحتمون بوجودهم معه فيضربون عرض الحائط بالأوامر العسكرية الفرنسية التي تحظر عليهم التجمهر أثناء الليل. وتعلم جينيه شيئاً من اللغة العربية من احتكاكه بالعرب. والجدير بالذكر أن إدارة جيش الإحتلال كلفته بإعادة بناء برج تهدم، ولكن هذا البرج تشرخ وانهار بمجرد الإنتهاء من إعادة بنائه عند إطلاق قذيفة مدفع منه. ونقل جينيه إلى المستشفى للعلاج نتيجة لذلك. فضلاً عن إصابته بمرض الصفراء. واكتشف جينيه أن انهيار البرج جاء نتيجة ظهور الأعشاب الموجودة في شقوق الإسمنت. وأوحت له صورة هذه الأعشاب بصورة الفلسطينيين الذين ينبتون كالأعشاب في كل مكان في الأراض الفلسطينية المحتلة. ولكنها أعشاب قادرة على تفتيت الجرانيت. يقول جينيه إنه تعلم من انهيار البرج الذي قام بتشييده أن يصبح صديقاً للفلسطينيين الضائعين. وأثناء تجنيده في سوريا قرأ جينيه روايتي «بيت الموتى» و«الجريمة والعقاب» لدستيوفسكي. كما أنه في حياته اللاحقة نشر مقالاً عن روايته «الأخوة كارامازوف». ومن الواضح أن المجند جينيه كان لا يحترم الأعراف العسكرية ولايكترث بها. فقد كتب جان كو السكرتير الخاص للفيلسوف جان بول سارتر أن قائد جينيه العسكري كلفه أثناء خدمته في سوريا أن يعطيه تقريراً مهماً عن تحركات العدو. فجاءه مؤلفنا يقول له: «إسمع يا جنرال. إذا كان علي أن أعطيك تقريري وأنا واقف بدون إنتباه وعلى بعد ست خطوات

منك فلن أتمكن أبداً من شرح هذا التقرير لك. لا بد لي من التحرك فهلا وافقت على ذلك؟» وكانت النتيجة أن الجنرال زج به في السجن الحربي.

وتسببت حادثة انهيار البرج الذي بناه في تدمير مستقبله العسكري وترحيله إلى فرنسا التي عاد إليها يوم عيد الميلاد عام ١٩٣٠. وعلى أية حال لم يحل هذا دون استمراره في الجيش لفترات أخرى دامت في مجموعها نحو ست سنوات لا يذكر الكثير عنها في اعترافاته وكتاباته. وفي ١٦ يونيه/حزيران عام ١٩٣١ تطوع للخدمة العسكرية لمدة عامين أرسل خلالها للعمل في جيش الإحتلال الفرنسي في مراكش. وأغلب الظن أن إغراء العلاوة والمكافأة المادية هما اللذان جعلاه يطلب الخدمة في مراكش مثلما سبق أن طلب الخدمة في سوريا. وفي ٢٣ يونيه/حزيران ١٩٣١ أبحر من ميناء بوردو إلى الدار البيضاء التي وصل إليها بعد رحلة دامت ثلاثة أيام. وهناك عمل تحت قيادة الجنرال جودوت الذي سبق له العمل في سوريا والذي منحه الجيش الفرنسي الأوسمة والنياشين بسبب نجاحه في قمع تمرد الدروز على قوات الإحتلال الفرنسي بالقرب من دمشق. والغريب أن هذا الجنرال اختار جينيه ليصبح سكرتيره لمدة ثلاثة أشهر. وتخبرنا اعترافاته «يوميات لص» عن مجند زميل له إسمه أرمان وقع جينيه في غرامه. وكان أرمان عاشقاً من طراز غريب فهو يمارس الشذوذ مع جينيه دون أن يبدو عليه أدنى اكتراث وأيضاً بدون أن تظهر عليه علامة ود أو حنان نحو عشيقه. ويخبرنا جينيه أنه كان في تلك الفترة يسرق من زملائه المجندين. ففي أحد الأيام سرق من زميل له ورقة مالية كبيرة قيمتها مائة فرنك كان الشاب قد أخفاها في مكان ظن أنه أمين. ويروي لنا جينيه كيف أنه كان يتسلى بمنظر الجندي المسكين وهو يبحث كشخص به مس من جنون عن ورقته المالية الضائعة دون جدوى وكيف أنه كان يشك في كل من حوله باستثناء جينيه السارق الحقيقي لدرجة أن منظره المضحك أثار إشفاق جينيه فكاد أن يرجع إليه ورقته المالية المسروقة.

وفي ٧ فبراير/شباط ١٩٣٣ أبحر جينيه من الدار البيضاء عائداً إلى فرنسا حيث التحق بالثكنة الموجودة في تول ومكث فيها حتى ١٥ يونيه/حزيران من العام نفسه. وفي تلك الفترة سعى جينيه إلى استجلاء ظروف ولادته، ولكن المستشفى التي شاهدت مولده رفضت أن تدلي إليه بأية معلومات. ونحو بداية شهر يوليه/أيلول ١٩٣٣ تمكن مؤلفنا من الحصول على عنوان أندريه جيد فزاره وأخبره أنه على وشك القيام برحلة إلى طرابلس بليبيا، فشجعه جيد على المضي قدماً فيها. قرأ جينيه في تلك الفترة من حياته عملين لجيد هما «ثمار الأرض» (١٨٩٧) و«المنحل» (١٩٠٢) كما ألف جيد فيما بعد كتابه «كوريدون» المدافع عن الشذوذ الجنسي.

ويروي لنا جيد في كتابه «إذا ماتت البذرة» (١٩٢٠ - ١٩٢١) كيف أنه اكتشف ميله إلى

ممارسة المثلية أثناء وجوده في شمالي أفريقيا. والجدير الذكر أن جيد قابل اللواطي المشهور أوسكار وايلد الذي نبه جيد إلى ما يعتمل في نفسه من رغبات جنسية. ومهد أوسكار وايلد أمام جيد طريق الشذوذ والإنحراف فأرسل إليه موسيقاراً عربياً شاباً حلو التقاطيع. والجدير بالذكر أيضاً أن رواية «المنحل» تتضمن إشارات إلى أوسكار وايلد. فضلاً عن أن هذه الرواية تنتهي بأن يفكر بطلها في ممارسة الشذوذ الجنسي مع غلام عربي هو شقيق عشيقته العربية. ثم رحل جينيه من شمال أفريقيا إلى برشلونة بإسبانيا ومن هناك أرسل خطاباً إلى أندريه جيد في فرنسا يطلب إليه بطريقة غير مباشرة العون المادي وأن يتكرم بالرد على رسالته. والغريب أن هذه الرسالة لم تخل من الأخطاء في اللغة الفرنسية. وليس هناك ما يدل على أن المرسل إليه اهتم بالرد عليها وخاصة لأنه كان بعيداً عن البلاد عند وصولها.

يقول جينيه في سيرة حياته الروائية «يوميات حرامي» إنه عاش في برشلونة التي وصل إليها في نهاية عام ١٩٣٣ وإنه كان في إسبانيا يحترف الدعارة ويبيع جسده من أجل المال. وكان يتصيد زبائنه في دورات المياه العامة. ولأنه انحدر من القاع فقد نذر حياته للدفاع عن الجياع والعرايا وأبناء السبيل والضائعين والمطرودين (مثل الفلسطينيين وأشباههم). وكانت برشلونة آنذاك تمور بمختلف الصراعات السياسية بين أنصار الديموقراطية وأنصار الديكتاتور فرانكو فانتصر جينيه لجماعة قليلة العدد من الإرهابيين الفوضويين. ودافع مؤلفنا عن الخيانة واعتبرها تأكيداً للفردية ضد المواصفات الإجتماعية السائدة. ولولا إحسان نساء برشلونة عليه وبّرهنّ به لتضور جوعاً. ولم تنمح ذكرى هذه الأيام السوداء من نفسه، فلما ابتسم له الحظ وأصاب الثراء في شيخوخته لم ينس أبداً الشحاذين وأبناء السبيل وكان أحياناً يغدق عليهم العطاء. ويقول لنا جينيه في «يوميات حرامي» إن البوليس في برشلونة ألقى القبض عليه بتهمة ممارسة الدعارة. والغريب أنه كان أحياناً يرتدي ملابس النساء. وما ن عاد جينيه من إسبانيا إلى فرنسا حتى ألقى البوليس الفرنسي القبض عليه وهو يرتدي ملابسه الإسبانية الرثة. وبعد أن أفرجت عنه السلطات الفرنسية تطوع للخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي ثلاثة أعوام ابتداء من ٢٤ أبريل/نيسان ١٩٣٤ في مدينة مونبليه فأرسلته إدارة الجيش مرة أخرى إلى مدينة تول في أقصى الشمال الشرقي في فرنسا.

ويعترف لنا جينيه في «يوميات حرامي» إنه كان في سن العشرين يعيش على السرقة والدعارة بسبب كسله وعدم رغبته في الإضطلاع بأي عمل. ورغم عيشة الضياع فإن مؤلفنا حفظ عن ظهر قلب ديوان شعر رامبو «السفينة الثملة» و«موسم في الجحيم» وبعض قصائده المنشورة تحت عنوان «تجليات». فضلاً عن ديوان بودلير المعروف «أزهار الشر». والذي لا شك فيه أن جينيه اقتدى في كسله بكل من هذين الشاعرين وكان مزهواً به. وتخبرنا «يوميات

حرامي» أنه وقع في غرام شرطي في مارسيليا إسمه برناردني وأن هذا الشرطي رغم أنه متزوج كان يسمح له بمص قضيبه. وعندما ألقى رجال البوليس الفرنسي القبض عليه بسبب تشرده وقاموا بضربه أثناء التحقيق معه، خف برنارديني لنجدته وتوسط لدى زملائه للكف عن ضربه. وعلى أية حال عندما تطوع جينيه للخدمة العسكرية لم يرسله الجيش بسرعة إلى مراكش كما كان يأمل. فهرب من الجيش وسافر من تلقاء نفسه يوم ١٨ يونيه/حزيران ١٩٣٦.

جينيه يجوب أوروبا:

جاب جينيه أرجاء أوروبا في عام واحد ابتداء من يوليه/تموز ١٩٣٦ حتى يوليه ١٩٣٧ واستطاع خلال هذا العام السير على الأقدام لمسافة ثمانية آلاف وخمسمائة كيلو متر بهدف الإبتعاد عن مطاردة السلطات العسكرية الفرنسية له. غير أن جينيه في تجواله لم يكن يحمل أي جواز سفر أو أية وثائق تدل على هويته، ولهذا قامت كل من ألبانيا ويوغوسلافيا بطرده من أراضيها. وذهب إلى إيطاليا فطردته هي الأخرى إلى النمسا التي رفضت السماح له بالبقاء فيها. فتوجه إلى تشيكوسلوفاكيا التي ما لبثت أن أبعدته عن أراضيها، الأمر الذي اضطره إلى العودة إلى باريس في يوليه ١٩٣٧ حيث ألقى البوليس الفرنسي القبض عليه في ٢ سبتمبر/أيلول ١٩٣٧. واعترف جينيه مزهواً ومباهياً أنه من أهل لوط.

ويفسر جينيه عودته من دول أوروبا الشرقية إلى فرنسا برغبته في ممارسة السرقة بحرية أكبر لأن البوليس في أوروبا الشرقية ـ على حد قوله ـ أكثر كفاءة من البوليس الفرنسي. وتثبت محاضر المحاكم ومستنداتها التي حوكم جينيه أمامها أنه في يوم ٢٥ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٣٧ ضبط متلبساً بتزوير جواز سفر حقيقي في شهر يوليو ١٩٣٦ وأنه غير الاسم المسجل فيه من جينيه إلى جيجنتي حتى يتمكن من عبور الحدود الفرنسية والعودة إلى فرنسا. ويبدو أنه اختار إسم جيجنتي لسهولة تزويره وقربه من إسمه الأصلي. وأغلب الظن أن القنصل الإيطالي أعطاه في وقت ما تأشيرة دخول إلى الأراضي الإيطالية إستناداً إلى جواز سفره المزور. يقول جينيه في سيرة حياته الروائية «يوميات حرامي» إن السلطات اليوغوسلافية زجت به في السجن بتهمة محاولة إطلاق رصاص مسدسه على صديق له يوغوسلافي إسمه أنطون. ويعترف جينيه بأنه سرق معطفاً وجده معلقاً في ممر القنصلية الفرنسية في مدينة تريستا الإيطالية.

لا مناص من القول إن جينيه رسم لنفسه في كتابه «يوميات حرامي» صورة منفرة ومقززة للغاية. فهو يقول عند القبض عليه في الأراضي التشيكية إنه كان يلبس الأسمال البالية التي يغطيها القمل. ورغم هذا فقد كانت معرفته بالثقافة والأدب مذهلة في تلك الفترة من حياته. ويتباهى جينيه أمام سيدة من لجنة حقوق الإنسان أظهرت عطفاً بادياً عليه أنه اقترف سائر

الجرائم التي يعرفها البشر باستثناء جريمة القتل. وتروي لنا هذه السيدة أن جينيه اختلف ذات مرة في فترة تجنيده مع رئيسه الضابط فلم يتورع عن ضربه معبراً عن شديد احتقاره للنظام الإجتماعي الفرنسي الذي يزج بالمجرمين في السجن ثم لايلبث أن يقبل انضمامهم إلى صفوف الجيش للذود عن حمى بلادهم التي لايعرفون عنها شيئاً. وأيضاً ليس أدل على قذارته من أنه لم يغير ملابسه والسويتر الذي يرتديه لمدة ثلاثة أشهر متصلة لدرجة أن عائلة يهودية ثرية عطفت عليه وحاولت أن تغريه بالإستحمام فأدخلته إلى حمام به حوض ماء ساخن وبه بعض الأملاح المستخدمة في الإغتسال. وتركوه لشأنه لمدة ساعة كاملة ظناً منهم أنه يغتسل. ثم طرقوا باب الحمام ودخلوا عليه فأدهشهم أن يروا جينيه بكامل ثيابه بجوار حوض الماء وقد سير بعض المراكب التي صنعها من ورق التواليت على سطح الماء.

كان جينيه يدرك أنه يفتقر إلى الظرف والرشاقة الإجتماعيين. فزاد ذلك من إحساسه بالمهانة ما زاد من صلفه وغطرسته. وليس أدل على انحداره الأخلاقي إلى الحضيض من أن شاباً من معارفه يدعى ميخائيل أندريتش عرفه في تشيكوسلوفاكيا بلواطي من رجال الصناعة بهدف أن يمارس هذا الرجل شذوذه الجنسي معه فاستطاع جينيه أن يقنع عاشقه بالإشتراك معه في ارتكاب بعض السرقات. ولم يكتف بذلك بل تآمر مع صديقه القواد ميخائيل لسرقة رجل الأعمال ومغادرة تشيكوسلوفاكيا والذهاب إلى بولندا حتى لا يكتشف أمرهما. ولكن ما وطأت أرجلهما أرض بولندا حتى قام البوليس البولندي بالقبض عليهما بتهمة ترويج النقود المزيفة. فحكم على جينيه بالحبس لمدة شهرين وعلى ميخائيل بالحبس لمدة ثلاثة أشهر. ويقول الدارسون إن فترة حبس جينيه كانت أسبوعين وليس شهرين كما يزعم «في يوميات حرامي».

ويتضح لنا من بعض مراسلاته في بولندا أنه كان حتى ذاك الوقت لا يزال يشكو من ضعف مستواه في اللغة الفرنسية الأمر الذي جعله يقول إنه لا يطمئن إلى سلامة هجائه للكلمات الفرنسية وإنه لم يكن بمقدوره أن يسطر سطراً واحداً في قصصه وشعره دون الرجوع إلى قاموس وكتاب قواعد اللغة الفرنسية الذي يوزع على طلبة المدارس. ولهذا جاء نشر رائعته الروائية «عذراء الزهور» (١٩٤٤) بمثابة معجزة غير متوقعة. وفي تلك الفترة من حياته بدأ يقرأ الصحف الألمانية دون أية مشقة. وبعد بولندا رحل مؤلفنا إلى برلين ليقضي فيها عدة شهور ويحترف الدعارة لعدة أيام يعيش عليها ويقتات منها. كانت ألمانيا آنذاك تشهد تصاعد المد النازي وقرب وصول هتلر إلى الحكم. ونحو عام ١٩٣٧ لم ير جينيه في ألمانيا النازية غير الغش والخداع والكراهية والقسوة والشره والطمع. واعتبر مؤلفنا الشعب الألماني أمة من اللصوص فامتنع عن السرقة هناك لاعتقاده أن شيوع اللصوصية في مجتمع لا تجعل من ارتكابها أي خروج على أعراف هذا المجتمع. وفي برلين استغرق في قراءة أعمال نيتشه التي راقت له. كما

أنه التقى سراً ببعض المعارضين للتيارات النازية. فاتصل بمعارض يدعى ويلهلم لوشنر الذي تم إعدامه فيما بعد بتهمة التآمر لإغتيال هتلر. ورغم كراهية جينيه المشبوبة لهتلر فإنه عبر عن ابتهاجه لأن هذا النقاش العريف استطاع أن يلحق الهزيمة ببلاده فرنسا المتعجرفة. وبلغ اتقانه اللغة الألمانية حداً جعله فيما بعد يتدخل بقلمه لتصحيح بعض الألفاظ الواردة في كتبه المترجمة إلى اللغة الألمانية. والجدير بالذكر أن زياراته إلى ألمانيا لم تنقطع بعد اندحار القوات النازية وانتهاء الحرب العالمية الثانية بسبب إعجابه بالمذلة التي ألحقتها هذه القوات ببلاده التي يمقتها من سويداء قلبه.

وفيما بعد التقى جينيه بروائي ألماني مخنث من شواذ الجنس إسمه هيوبرت فسأله هذا الروائي إذا كان قد تعرّض بالضرب لأحد ممن يمارسون معه الشذوذ فاعترف بأنه فعل هذا في كل من ألمانيا وأسبانيا. لقد كان شواذ الجنس حتى الستينات من القرن العشرين يخجلون من شذوذهم. أما مؤلفنا فلم يفتأ يتباهى بشذوذه أمام العالم كله في صفاقة منقطعة النظير. مؤكداً لنا في «يوميات حرامي» أن هناك ارتباطاً بين الخيانة والسرقة والشذوذ الجنسي. ومن ثم حرصه على الإتيان بها جميعاً.

جينيه يعود إلى فرنسا:

عاد جينيه إلى فرنسا في يوليه/تموز ١٩٣٧ وعبر الحدود بجواز سفره المزيف، وتنم بعض رسائله آنذاك على فرحته بالرجوع إلى باريس. وتزامنت عودته مع حدث هام هو عقد المعرض الدولي للفنون والوسائل في باريس. أحب جينيه طائفة من الشعراء الفرنسيين على رأسهم رامبو وفيرلين وبودلير ونيرفال ومالارميه إلى جانب فرانسوا فيلون الشاعر اللص الذي عاش في باريس في القرن الخامس عشر. وهناك أوجه شبه بين جينيه وبودلير الذي مجد الفحش والدعارة والسكر حتى الثمالة والتحرش بكافة أعراف الطبقة الوسطى. ويتشابه هذان الأديبان في انتمائهما إلى قاع المجتمع وحثالته. وأعجب جينيه بوجه خاص برامبو الذي كان يشبهه في ممارسة الشذوذ الجنسي وتحدي مواضفات المجتمع. فضلاً عن أن كليهما راقت لهما حياة المساجين الذين وصفهم رامبو بأنهم يفوقون القديسين في قوتهم ويقول عنهم جينيه في «معجزة الوردة» إنه شاهد مساجين محكوما عليهم بالأعدام يتحولون إلى قديسين تحيط بهم هالة من النور. ومن الغريب أن إلهام جينيه الفني كان يعمل على هيئة طفرات. فقد ألف رواياته الخمس في نحو خمسة أعوام وهو بين الثانية والثلاثين والسادسة والثلاثين من عمره. والجدير بالذكر أن مؤلفنا لم يرق له التقليد الواقعي الذي أرسى قواعده كل من بلزاك وفلوبيرت وزولا وفضل عليه التقليد الرومانسي الذي يمثله دانتزيو وراشيلد.

وفي ١٦ سبتمبر/أيلول ١٩٣٧ ألقى البوليس القبض على جينيه لضبطه وهو يسرق إثني عشرة منديلاً من محلات سامريتان في باريس بالإشتراك مع زميل له يدعى لي شابلين. فأصدرت المحكمة عليهما حكماً بالحبس لمدة شهر مع إيقاف التنفيذ لاعتقادهما بعدم وجود سوابق لهما. وكان هذا أول حكم بالحبس تصدره هذه المحكمة ضدهما. ثم نشرت إحدى الصحف خبراً مفاده أن جينيه قام بسرقة بعض أوراق تحقيق الشخصية وحقيبة يد وعلب معدنية حافظة للسجائر من بعض السيارات الواقفة في موقف بالحي الثامن في باريس. فضلاً وهو الأهم عن سرقته لأوتوجرافين يحملان توقيع ملكي فرنسا تشارلس التاسع وفرنسوا الأول من متجر بالحي السادس في باريس. واعترف جينيه بسرقة محتويات السيارة. ولأنه أخفى مسدساً محشواً بست رصاصات في قفازه فقد اتهمته السلطات بحمل سلاح دون ترخيص الأمر الذي أدى إلى وضعه في السجن رهن التحقيق انتظاراً لنظر القضية بعد شهرين. وفي ٢٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٣٧ انعقدت المحكمة للنظر في القضية المؤجلة وأدانته بتهمة سرقة الأوتوجرافين كما أدانته بتهمة سرقة بعض أوراق تحقيق الشخصية من بعض السيارات وحمل سلاح دون تصريح. وفي يوليو ١٩٣٦ قام جينيه بتزوير جواز سفر حقيقي استخدمه عدة مرات في عبور الحدود الفرنسية. وأعيد جينيه إلى زنزانته لقضاء مدة عقوبته البالغة خمسة أشهر. غير أنه لم يمكث في هذا السجن سوى أسبوعين، بعدها قامت السلطات العسكرية في ١٣ يناير/ كانون الثاني ١٩٣٨ باستدعائه للمثول أمام محكمة عسكرية وتوجيه تهمة الهرب من الخدمة العسكرية إليه. وفي ١٦ يناير/كانون الثاني من العام نفسه زج به في السجن الحربي وتم شطب إسمه من قوائم الجيش. ومن سجنه أرسل خطاباً إلى إحدى عضوات «منظمة حقوق الإنسان» التي ساعدته في تشيكوسلوفاكيا واسمها ليلى بريجشيم طالباً منها أن تخف لنجدته فأرسلت إليه بعض المال. وأدركت ليلى بريجشيم أنه لم يكن له صديق واحد في الحياة غير القتلة واللصوص الذين خالطهم في زنزانته. وتدخلت ليلى بريجشيم لمساعدته فطلبت من محام راديكالي شاب اسمه جاستون برجري أن يتولى الدفاع عنه. وفي مايو/ايار ١٩٣٨ قام طبيب نفساني بالكشف عليه فقرر أنه غير متزن وغير مستقر ويفتقر إلى أي إحساس أخلاقي. وفي ١٣ مايو/أيار ١٩٣٨ مثل جينيه أمام محكمة عسكرية في مارسيليا بتهمة الهرب من الخدمة العسكرية وسرقة زملائه في الجيش وهو ما اعترف به في «يوميات حرامي». وحكمت عليه المحكمة العسكرية بالحبس لمدة شهرين ولكنها أخلت سبيله في اليوم نفسه الذي صدر فيه الحكم عليه بسبب بقائه في السجن رهن التحقيق مدة العقوبة. وهكذا تم طرده من صفوف الجيش بعد إعطائه معاشاً قدره تسعة آلاف فرنك.

وفي ٧ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٨ دخل جينيه حاناً صغيراً في منطقة برست بباريس،

بينما كان صاحب الحان يتأهب لإغلاقه واشترك مؤلفنا مع مجند آخر من معارفه إسمه ليون دومي في سرقة أربع زجاجات من الخمر. ولكن شاويشاً استطاع القبض عليهما قبل فرارهما. وأعاد دومي زجاجتي الخمر التين كان يمسك بهما إلى صاحب الحان في حين تمكن جينيه من الهرب بغنيمته. ولكن لسوء الحظ تم القبض على دومي مرة أخرى بعد مرور أسبوع واحد بسبب إشتراكه مع زميل في سرقة عامل عجوز. وتعرف البوليس على سرقة دومي السابقة فاعترف بأن جينيه كان شريكاً له في السرقة السابقة. وهكذا ألقي القبض على جينيه. وحكمت المحكمة عليه وعلى دومي بالحبس لمدة شهرين. وظل مؤلفنا في سجن برست حتى أطلق سراحه في ١٧ يناير/كانون الثاني ١٩٣٩ عاد بعدها إلى باريس.

وفي ربيع عام ١٩٣٩ سعى مهندس إسمه موريس رينال يعمل في المترو إلى مقابلة جينيه باعتباره مزوراً محترفاً في مقهى جراف الذي اشتهر بارتياد شواذ الجنس له. وطلب رينال من جينيه أن يقوم بتزوير بعض أوراق تحقيق الشخصية من أجل صديق له ألماني. والمضحك أن جينيه عجز عن مساعدة رينال في عملية التزوير. ورغم هذا فقد توثقت عرى الصداقة بين الرجلين حتى عام ١٩٤٣. وإنها لمفارقة أن نرى هذا المهندس يقوم بتزوير أوراق تحقيق شخصية جينيه نفسه. يقول المهندس رينال في هذا الصدد: «يجب القول إن جينيه في هاتين السنتين ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ كان يعيش في فقر مدقع. فلم يكن يملك مليماً واحداً. وكانت ملابسه ممزقة. ولم يكن لديه دائماً ما يكفيه من الطعام. وكان معظم الوقت لا يعرف إلى أين يذهب وأين يبيت ليلته. وأخيراً أقرضته مفاتيح غرفة كنت قد استأجرتها في ٢٢٢ شارع لافاييت. فلا غرو إذا رأينا مؤلفنا يهدي بعض أعماله إلى صديقه المهندس وإلى ذكرى التهام قطة في غرفته. ولإلتهام هذه القطة قصة حقيقية يروي المهندس تفاصيلها في رواية جينيه «طقوس الجنازة» (١٩٤٨) حيث نرى البرد والجوع يستبدان بريتون بطلها، الأمر الذي يدفعه إلى الخروج من حجرته التي لا يملك إيجارها بحثاً عن قطعة كبيرة سمينة. وعندما يجدها يعود بها ريتون إلى حجرته. وعبثاً حاول ريتون قتل القطة بطرقات مطرقة متكررة، فأراد خنقها بحزامه ولكن القطة أبت أن تموت. فخشي ريتون أن يكون شيطان قد سكن القطة كما خشي أن يظن جيرانه أن جريمة قتل تتم في حجرته. ويتضح من إهداء الرواية إلى المهندس رينال أن جينيه نجح في قتل القطة وطبخها والتهامها. والجدير بالذكر أن المهندس رينال كان يشاركه في شذوذه الجنسي السلبي.

وفي ٧ مايو/أيار ١٩٣٩ تم القبض على جينيه في محطة سكة حديد بلدة تونير بالقرب من باريس بتهمة السفر بتذكرة سفر مزورة. فقد إدعى أمام صراف التذاكر أنه مجند راجع من إجازته وحصل منه على تذكرة سفر مخفضة الثمن إلى محطة وصول قريبة للغاية ثم زورها

وغيرها إلى محطة وصول بعيدة. وقد روت الصحافية المحلية هذا الحادث واصفة مرتكبه بأنه يتحدث عدة لغات وأنه سبق الحكم عليه مرتين. والواقع أن الصحيفة أخطأت فقد كانت هذه الحادثة المرة الخامسة التي تدينه فيها المحكمة وتصدر حكمها ضده. وفي ١٣ يونيه/حزيران ١٩٣٩ انعقدت المحكمة لسماع أقوال المتهم ثم أدانته بتهم التزوير والتشرد وانتهاك قوانين السكة الحديد. وقامت المحكمة بحبسه لمدة شهر ووقعت عليه غرامة قدرها خمسون جنيهاً. غير أن المحكمة أخلت سبيله لأنه كان قد أمضى في الحجز أكثر من شهر. وبعد مرور ثلاثة أيام ألقي القبض عليه في ١٦ يونيه/حزيران ١٩٣٩ بتهمة التشرد وعدم وجود بطاقة تحقيق شخصية معه. غير أن المحكمة ما لبثت أن أسقطت تهمة التشرد عنه لأنه لم يكن لديه وقت كاف للبحث عن عمل منذ الإفراج عنه في آخر مرة. ولكن المحكمة حكمت عليه بالحبس لمدة أسبوعين بسبب عدم وجود بطاقة تحقيق شخصية معه. وبعد مرور شهور قليلة ألقى البوليس القبض عليه مرة أخرى في باريس يوم ١٦ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٩ وقدمه للمحاكمة بتهمة سرقة قميص وقطعة قماش من الحرير من متاجر اللوفر بباريس. وبعد يومين صدر ضده حكم بالحبس لمدة شهرين حيث ظل في السجن حتى ١٧ ديسمبر/كانون الأول من العام نفسه. وهي المرة الأولى التي تتهمه فيها المحكمة بتكرار انهاكاته للقانون.

وفي حديث أدلى به جينيه إلى أحد الصحفيين عن بداياته الأدبية قال مؤلفنا إنه لا يعرف الأسباب التي حدته إلى الكتابة ولكنه متأكد من الظروف التي أحس فيها بدافع قوي يدفعه إليها. ففي عام ١٩٣٩ كان نزيل أحد السجون التي اعتاد أن يدخلها وأراد أن يبعث من زنزانته إلى صديق ألماني بطاقة معايدة بمناسبة عيد الميلاد فإذا به يقف مبهوراً أمام بياض البطاقة الناصع الذي جعله ينسى المعايدة ويكتب عن روعة البطاقة التي تشبه الثلوج في بياضها. كانت تلك هي الشرارة الأولى التي فجرت فيه ينابيع الكتابة والإبداع الأدبي.

قلنا إن جينيه لم يكتم فرحته عندما شاهد الهزيمة الماحقة التي ألحقها هتلر ببلاده. ولكن مقته لهتلر كان أمراً لا يرقى إليه الشك. وعندما سأله محاور عن رأيه في غزو ألمانيا النازية للأراضي البولندية جاءت إجابته في منتهى الغرابة: «ولكنك تعرف أن البولنديين زجوا بي في السجن لشهور عديدة. ورغم أن الحكومة الفرنسية آنذاك كانت في حالة انهيار بسبب غزو القوات النازية لفرنسا فإنها قامت يوم ٢٣ أبريل/نيسان ١٩٤٠ بتقديمه إلى المحاكمة بتهمة سرقة حقيبة سفر وحافظة نقود تحتوي على ٩,٢٠٠ فرنك من شخص يدعى روبرت أوجر.

وأشارت المحكمة إلى بعض الجنح الأخرى التي سبق له ارتكابها. وحكمت عليه بالسجن لمدة عشرة شهور. وفي ٣ مايو/أيار ١٩٤٠ استأنف ضد الحكم الصادر عليه فقامت السلطات

الفرنسية بإطلاق سراحه مبكراً يوم ١٤ يونيه/حزيران من العام نفسه أي يوم دخول القوات النازية باريس. وفي تلك من حياته تعرف على شاب يساري غض الأهاب وحلو الملامح إسمه جين ديكارنين. ورغم ما عرف عن هذا الشاب من صدق وأمانة فقد استطاع جينيه إغراءه بالإشتراك معه في سرقة الكتب وبمسايرته في شذوذه الجنسي. وقد أدلى مؤلفنا بحديث صحفي جاء فيه أن أهم عاشقين له على الإطلاق هما ديكارنين اليساري الذي انخرط في مقاومة الإحتلال النازي لفرنسا وعبد الله بنتاجا لاعب السيرك العربي الذي سبق الإشارة إليه. يقول جينيه إنه عندما عكف على كتابة «عذراء الزهور» و«معجزة الوردة» تصور أنه يخاطب هذين العاشقين. ولا يستبعد أن جينيه كان يقوم بسرقة الكتب ليعطيها إلى عاشقه ديكارنين الذي كان يدير كشكاً لبيع الكتب. على أية حال تمكن البوليس الفرنسي من القبض على جينيه متلبساً بسرقة بعض الكتب فحكمت عليه المحكمة بالحبس لمدة أربعة شهور. وبذلك أمضى مؤلفنا تاسع عقوبة له من ٥ ديسمبر/كانون الأول ١٩٤٠ حتى ٤ مارس/آذار ١٩٤١. وتوالت الأحكام الصادرة ضده فزج به في السجن للمرة العاشرة في الفترة بين ١٠ ديسمبر/ ١٩٤١ و١٠ مارس/آذار ١٩٤٢. وأيضاً حكم عليه بالحبس للمرات الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة إبان الحرب العالمية الثانية. وبذلك يكون جينيه قد أمضى سنة كاملة وتسعة أشهر في السجن في الفترة بين ديسمبر/كانون الأول ١٩٤٠ ومارس/آذار ١٩٤٤. ولا يستطيع أحد أن يفسر إنطلاق طاقاته الإبداعية في تلك الفترة بالذات. ولكن من المؤكد أن السجون وفرت له الوقت اللازم للقراءة والتأليف. فلا غرو إذا رأيناه في ٥ ديسمبر/كانون الأول ١٩٤٠ (وهو في الثلاثين من عمره) يقول للقاضي الذي يحاكمه: «لو لم أكن لصاً لبقيت على جهل ولأصبحت كل روائع الأدب الجميلة غريبة عني. فقد سرقت أول كتاب في حياتي كي أتعلم منه الأبجدية. ثم توالت سرقاتي للكتب». واعترف جينيه للقاضي بأنه شعر فيما بعد بالندم على أنه كان يعيد بيع الكتب التي يقوم بسرقتها. ولكنه عدل عن هذه السياسة وشعر بارتياح أكبر عندما ترك دون أن يحس به أحد الكتب المسروقة بعد الإنتهاء من قراءتها في بعض المكتبات الصغيرة المنتشرة على ضفاف نهر السين. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن جينيه تخصص في الفترة من ١٩٤٠ حتى ١٩٤٧ في سرقة الكتب والإتجار بها. وهكذا فإنه لم يكذب كثيراً عندما وصف نفسه حينذاك بأنه سمسار كتب. وهو لا يخجل من أن يروي لنا في «يوميات حرامي» الأساليب التي كان يتبعها في مغافلة أصحاب المكتبات وسرقة الكتب من تحت أنوفهم في بعض الأحيان. وشهد بعض أصحاب المكتبات بأنه سارق كتب. فعلى سبيل المثال يشهد ريتشارد أناكريون بأن جينيه دخل مكتبته في يوم ما ليعرض عليه شراء كتاب نادر من تأليف كوليت فلم يتردد أناكريون في شرائه منه. ثم زاره زميل له في تجارة الكتب يملك مكتبة بيليس.

وما إن وقعت أنظاره على كتاب كوليت النادر حتى صرخ صائحاً إن هذا الكتاب سرق من مكتبته منذ بضعة أيام. وأصر الرجل أن يعرف إسم السارق حتى يُبَلِّغ عنه البوليس. ولكن أناكريون رفض الإفصاح عن إسمه واكتفى برد الكتاب النادر إلى صاحبه. وعلم جينيه بالواقعة فزار أناكريون بعد بضعة أيام ليشكره على حسن صنيعه. وشعوراً من مؤلفنا بالإمتنان نحو أناكريون أهدى إليه نسخة من أشعاره التي تحمل عنوان «الأغاني السرية». إن جينيه في خيلائه وغروره يزعم أنه لم يقرأ سوىٰ أعمال بودلير وبروست. ولكن الواقع يشير إلى سعة إطلاعه. والدليل على ذلك أن نفراً من معارفه امتحنوه فقد كانوا يصحبونه إلى مكتبة عامة عامرة بالكتب ثم يتناولون كتاباً بطريقة عشوائية ويقرأون فيه بعض الفقرات فينجح جينيه في معرفة إسم الكتاب ومؤلفه.

ويعترف جينيه بشدة تأثره ببروست ويذهب بعض النقاد إلى التشابه الكبير بين أدب كل من بروست وجينيه، والفرق بينهما أن بروست سجل في أدبه حياة الطبقة العليا والأرستقراطية في حين أن جينيه سجل في أدبه حياة المضيعين والمشردين. فضلاً عن اختلافهما في معالجة موضوع الشذوذ الجنسي. فالراوي في «البحث عن الزمن الضائع» لبروست رغم أنه رجل يحب النساء إلا أنه يراقب ممارسة الشذوذ الجنسي بسماحة ورحابة صدر وصبر وموضوعية تبدو وكأنها موضوعية علمية. أما جينيه ـ وهو الراوي لجميع رواياته باستثناء رواية «الشجار» فهو الشخصية المحورية فيها وهو مصاب بالشذوذ الجنسي من رأسه إلى أخمص قدمه. وهناك فرق آخر فقد سبق مؤلفنا في مضمار الشذوذ الجنسي ثلاثة أدباء فرنسيين كبار هم بروست وأندريه جيد وكوكتو. ولكن واحداً من هؤلاء الشواذ الثلاثة لم يعترف بشذوذه أمام الملأ مثلما فعل جينيه. فعندما نشر جيد «كوريدون» عام ١٩١١ لم يجسر على الإعلان عن نفسه كمؤلف هذا الكتاب، كما أن ناشره أخفى إسمه أيضاً. وهو الحال نفسه مع كتاب كوكتو «الكتاب الأبيض» فقد تم نشر هذا الكتاب دون أية إشارة إلى مؤلفه وناشره ولكن كوكتو فيما بعد سمح بنشره فيما بعد ضمن أعماله الكاملة. والفرق بين أندريه جيد وجان جينيه في معالجة الشذوذ الجنسي أن الأول يدافع عنه بأسلوب يبدو علمياً ويسعى إلى إثبات وجود هذا الشذوذ بين أنواع الحيوانات المختلفة في حين أن جينيه يعتبره أمراً واقعاً وتحصيل حاصل لا يحتاج إلى تبرير أو تفسير.

وفي بداية شهر ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٤١ قدم جينيه للمحاكمة للمرة العاشرة بتهمة سرقة قطعة قماش من ترزي إسمه جوزيف بيوكون وطارده البوليس في الشارع وهو يحاول الهرب بقطعة القماش المسروقة. وفي يوم ٢٧ يناير/كانون الثاني ١٩٤٢ مثل أمام المحكمة الإصلاحية في باريس فاتهمته بسرقة ثلاثة أمتار من القماش تبلغ قيمتها ألف

وخمسمائة فرنك. ولكن المحكمة على أية حال مالت إلى الإعتقاد أن المتهم لا يتمتع بكامل قواه العقلية فطلبت من الدكتور جورج إيير ـ وهو الطبيب نفسه الذي كشف عليه عندما كان يافعاً منحرفاً في الخامسة عشرة من عمره. وارتاع الطبيب عندما رأى أن المنحرف القديم ظل على حاله. وسأله الطبيب المحتار إذا كان مجنوناً بالفعل فيضعه في مستشفى الأمراض العقلية أم غير مجنون فيزج به في السجن. ورد جينيه عليه بأنه غير مجنون، ولكنه سأل الطبيب إذا كان هناك مكان وسط بين السجن ومستشفى المجانين. على أية حال انعقدت المحكمة يوم ١٠ مارس/آذار ١٩٤١ لتدينه وتقرر حبسه لمدة ثلاثة أشهر ويوم. ولما كان قد أمضى هذه الفترة في الحجز قامت المحكمة بإطلاق سراحه. وبالنظر إلى سجله الحافل بالإتهامات والمخالفات فإنه كان يعيش على هامش المجتمع الفرنسي، الأمر الذي حماه من إلحاق القوات النازية الخسف به.

جينيه يقابل كوكتو:

وشاءت الظروف أن يلتقي جينيه بإثنين من المثقفين في مكتبه بجوار نهر السين في باريس في أبريل/نيسان عام ١٩٤٢. وأعجب هذان الشابان بثقافته العريضة وسعة إطلاعه، فقاما بتقديمه إلى الكاتب الفرنسي الشهير جان كوكتو، الأمر الذي يمثل نقطة تحول في حياته الأدبية. والغريب أن جينيه لم يخف عن هذين الشابين شذوذه الجنسي وممارسته للسرقة.

وفي يوم ١٤ أبريل/نيسان ألقى البوليس القبض عليه متلبساً بسرقة بعض الكتب من مكتبة ستوك الباريسية. وفي ١١ مايو/أيار أصدرت المحكمة حكماً عليه بالسجن لمدة ثمانية أشهر ودفع غرامة ماليه قيمتها ثلثمائة فرنك. وفي أثناء التحقيق معه واجهته المحكمة بارتكاب سرقات مماثلة من المكتبة نفسها في مناسبات متعددة خلال عام ١٩٤٢. ويعتبر هذا الحكم الحادي عشر في سلسلة الأحكام القضائية الصادرة ضده. والجدير بالذكر أن أدب جينيه منذ باكورته يفيض بالبذاءات المقززة مثل تشبيهه العادة السرية بالكاتب الذي يهبط عليه الوحي. وهو يمجد الجريمة، ويعلي من شأن الشذوذ الجنسي بوجه عام ومص القضيب بوجه خاص مستخدماً في ذلك صوراً شعرية مستقاة من كبار الشعراء أمثال فيلون ورونسار وبودلير ورامبو. فضلاً عن أنه يدعو في أدبه إلى مبدأ عبادة عضو الذكورة. وهو في شعره يصف الجريمة والشذوذ الجنسي في إطار رومانسي ورعوي جميل معبراً عنهما بلغة دينية. يقول جينيه عن بدايات قصيدته البذيئة «الرجل المحكموم عليه بالموت» إنه بدأ في تأليف هذه القصيدة وهو في السجن ثم قرأ ما أنجزه منها على زملائه المساجين فأهانوه واستهزأوا به. وتهكم عليه أحد المساجين بقوله: «إنني أحزق مثل هذا النوع من الشعر صباح كل يوم» مشيراً بذلك إلى عملية تبرزه صباح كل يوم. غير أن زراية زملائه المساجين به زادته إصراراً على استكمال هذه القصيدة. وقد قال مؤلفنا للكاتب

المسرحي السوري عبد الله ونوس: «هذا الإستقبال المفعم بالإحتقار لقصيدتي ملأني بالفرح الحقيقي والفخر الشديد... هذه البدايات كانت مجرد جزء من علاقتي الشاملة بالكتابة. ومضيت في الكتابة ولكني كنت أكتب لنفسي لأن الكتابة كانت تعطيني لذة شخصية... لم أفكر أبداً في الناس الآخرين... ولم أكن لأسمح بمطالبهم ومراعاة خاطرهم بالتدخل في هذه العلاقة الحميمة. كنت أكتب من أجل السكرة والنشوة وحتى أستأصل الروابط التي لا زالت تربطني بعالم رفضني فرفضته أنا بدوري».

يقول رولاند كودكنباخ إنه عرض قصيدةِ جينيه «الرجل المحكوم عليه بالموت» على كوكتو فأعجب بها كوكتو وطلب منه أن يحضر مؤلفها إليه. وهكذا قيض لكوكتو أن يضطلع بدور الملاك الحارس في حياة جينيه الذي نظم قصيدته في سبتمبر/أيلول ١٩٤٢ أثناء وجوده في سجن فرنسي. وهي قصيدة شهوانية طويلة تمجد سفاحاً في العشرين من عمره إسمه موريس بيلورج الذي تم تنفيذ حكم الإعدام فيه في ١٢ مارس/آذار ١٩٣٩. وكان من عادة كوكتو أن يمد يد المساعدة للمحتاجين من الأدباء الواعدين ويجد لذة خاصة في احتضانهم وتقديم العون إليهم بقدر ما يستطيع. ويرجع الفضل إلى كوكتو في أنه من أوائل الذين اكتشفوا موهبة مارسيل بروست في الأدب وبيكاسو في الرسم. أدمن كوكتو المخدرات ومارس اللواط مع البحارة في تولون وألف كتاباً عن شذوذه الجنسي معهم بعنوان «الكتاب الأبيض». وفي عام ١٩١٨ قابل كوكتو رايموند راديجست وهو شاب مليح الوجه في الخامسة عشرة من عمره فشجعه على المضي في الكتابة، بل إنه اشترك معه في تأليف بعض المصنفات الأدبية. وارتبط كوكتو بعلاقة عشق مع هذا الشاب الذي مات في ميعة الشباب عام ١٩٢٣ عن عمر لا يتجاوز العشرين من عمره نتيجة إصابته بمرض التيفود وإفراطه في تناول الكحول: وأيضاً ارتبط كوكتو وهو في سن الأربعين بممثل في نصف عمره على قدر عظيم من الوسامة إسمه جان ماريه.

كان جينيه قد ألّف «عذراء الزهور» عندما قابل كوكتو. ومعنى هذا أن نضج جينيه الفني كان مكتملاً. ولكن هذا لم يمنع من أن يحذو حذو كوكتو في تنوع إنتاجه فاقتدى به في تأليف القصيدة والرواية والمسرحية والمقالة والنقد الفني وسيناريوهات الأفلام. وكانت هناك بعض الخلافات الجوهرية بين كوكتو وجينيه، فكوكتو كان لا يترك مناسبة للدعاية عن نفسه في حين كان جينيه عزوفاً عن الشهرة. وبقدر ما كان كوكتو يتجنب الخوض في السياسة نذر جينيه العشرين سنة الأخيرة من حياته للدفاع عن قضايا اليسار. تقابل جينيه وكوكتو يوم ١٥ فبراير/شباط ١٩٤٣. وكان جينيه على غير عادته متأنقاً في ملبسه. ورغم أن كوكتو استقبله بالمدح وكال له الثناء فقد ظل مؤلفنا لفترة على حذر منه ويرتاب في إخلاصه وصدق مشاعره.

ومن ناحيته رأى كوكتو أن جينيه إعتقد في بادىء الأمر أن أديب فرنسا الكبير يسخر منه. وكتب كوكتو في يومياته أن الأناقة والإتزان والحكمة كانت تفيض من هذا الرجل الملتاث الشاذ. وامتدح كوكتو قصائد جينيه ووصفها بأنها أروع ما ظهر في تلك الفترة. وذهب إلى أن هذه القصائد من فرط بذاءتها غير قابلة للنشر وأن المرء لا يستطيع مطالعتها إلا إذا كان يحتمي في مخبأ بعيداً عن أنظار الناس. ورغم ما أظهره جينيه من تواضع فقد كان تواضعه مشوباً بالصلف والغطرسة فضلاً عن أن هذا التواضع كان يخفي العدوانية في طياته. ورغم موهبة كوكتو الخارقة في التودد إلى الناس وإقامة علاقات حميمة معهم فإن جينيه إرتاب في صدقه في بادىء الأمر.

وبعد ذلك قام كوكتو باستقبال جينيه في بيته وأخذ مؤلفنا يقرأ على مسامعه لمدة ساعة تقريباً بعض أجزاء من باكورة رواياته «عذراء الزهور». وكان جينيه أثناء القراءة أشد ما يكون وثوقاً من نفسه. وامتنع كوكتو عن إبداء رأيه في الرواية الأمر الذي أساء إلى مشاعره. وعندما غادر جينيه المنزل التفت كوكتو إلى صديق له رسام كان موجوداً أثناء القراءة. وسأل كوكتو صديقه عن رأيه في الرواية فرد عليه الصديق قائلاً إنها تتضمن نغمة لم يسبقه إليها أحد. وعلّق كوكتو بقوله إن العهر الذي تتضمنه الرواية لا يروقه. ولكنه سرعان ما أضاف أنه شعر من طريقة نظرة جينيه إليه بأنه مخطىء في حكمه السيىء على الرواية. وحتى يستيقن من حقيقة شعوره نحوها طلب من جينيه أن يعطيه فرصة قراءة الرواية من ألفها إلى يائها. ويرى بعض الدارسين أن كوكتو امتنع عن الكتابة عن شذوذه الجنسي في حياة والدته حتى يتجنب الإساءة إليها وأنه قام بتأليف روايته «الكتاب الأبيض» التي تعالج الشذوذ الجنسي بعد وفاتها. ويرى هؤلاء الدارسون أنه من الجائز أن كوكتو شعر بالغيرة من جينيه الذي تفوّق عليه في هذا المضمار. على أية حال أعاد كوكتو النظر في أمر رواية «عذراء الزهور» ولام نفسه على موقفه السابق السلبي منها وشعر بأنه كان مغفلاً عندما أدانها وقرر أن هذه الرواية ربما تفوق في روعتها قصيدة «الرجل المحكوم عليه بالإعدام». يقول بول موريتهيين سكرتير كوكتو إن كوكتو لم يذق طعم النوم في الليلة التي قرأ فيها «عذراء الزهور» بسبب روعتها كتحفة أدبية ليس لها نظير. وبعد مضي أسبوع على قراءة كوكتو للرواية نراه يصفها في يومياته بأنها قنبلة فجرها جينيه وأنها أعظم حدث في العصر وأنها أثارت دهشته وإعجابه بقدر ما أثارت تقززه واشمئزازه. ويذكر كوكتو في يومياته أنه سأل صديقه الشاعر فاليري النصيحة بشأن رواية جينيه. فنصحه فاليري بحرقها. ولكن قلب كوكتو لم يطاوعه أن يحرق مثل هذه الأعجوبة والتحفة الأدبية الخارقة على حد تعبيره.

ويذهب جان بول سارتر إلى أن جينيه يختلف عن الكاتب جوهاندو الذي تعرف عليه مؤلفنا وسلك سبيل اللواط الذي سلكه جينيه. يقول سارتر إن جينيه لم يكن مؤمناً تماماً بوجود الله فمن ثم فإنه لم يكن متأكداً من الخلاص في حين أن جوهاندو كان موقناً من الخلاص وغفران الله لخطاياه. على أية حال عندما تعرف مؤلفنا على جوهاندو ترك في نفسه عميق الأثر عندما قال له: «إن السجن ليس سجناً بل هو المهرب والحرية ففيه يستطيع الإنسان الهرب من تفاهات الحياة كي يعود إلى جوهرها». واعترف جينيه لجوهاندو بأنه يتوق إلى الإقلاع عن السرقة وأن يكسب قوته من طريق التأليف والكتابة فإذا بجوهاندو يعترض على ذلك قائلاً: «يا صديقي. من المؤكد أنك تملك نوعاً من الموهبة في الكتابة ولكن لا تحاول احترافها وإلا أفسدت كل شيء. وإذا شئت أن تصدقني فينبغي عليك الإستمرار في السرقة».

ولم تمضِ بضعة شهور حتى تلقى جوهاندو رسالة من جينيه بعث إليه بها من سجنه الجديد جاء فيها: «بما أنك يا سيدي المسئول عن دخولي السجن بسبب اتباعي لنصيحتك وبما أني عطشان وجوعان وأقاسي من البرد ولا أملك مليماً واحداً، فإني سوف أشعر بالإمتنان نحوك إذا تمكنت على الفور من تلبية كل حاجاتي». والجدير بالذكر في هذا الشأن أن نصيحة كوكتو لجينيه في هذا الأمر كانت مختلفة فقد قال له: «أنت لص سيىء لأنك تضبط متلبساً بالسرقة ولكنك كاتب مجيد» علماً أن زوجة جوهاندو أنحت على كوكتو باللوم لأنه عرف زوجها بشخص جينيه السيىء.

وبالرغم من إدراك كوكتو بأن رواية جينيه «عذراء الزهور» غير قابلة للنشر بسبب فحشها وبذائتها فقد تحمس لنشرها وهو يعرف أنها سوف توزع سراً. ولهذا طلب من فرنسوا سنتين لمراجعة المخطوط كما طلب من سكرتيره الخاص بول موريهيين أن يتولى نشر هذه الرواية وبقية أعمال جينيه في المستقبل. وبالفعل وقع بول موريهين عقداً مع جينيه بذلك يوم ١ مارس/آذار ١٩٤٣ وتعهد موريهين بنشر رواية «عذراء الزهور» مقابل ثلاثين ألف فرنك ثم «أطفال البؤس» و«يوميات حرامي». وقد أوردت إحدى الصحف الصادرة في ٤ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٥ أن جينيه ألف كتاباً عن الإمبراطور الروماني هليوجابالوس (٢٠٤ ـ ٢٢٢ ميلادية) الذي دفعه تخنثه وشذوذه الجنسي إلى السير في شوارع روما لابسا ملابس النساء والذي لم يخجل من إقامة احتفال عام بمناسبة زواجه من واحد من رجاله. ويبدو أن جينيه أخفق في إقناع الناشرين الفرنسيين بنشر هذا الكتاب الذي ضاعت مخطوطته في الخمسينات من القرن العشرين. وعلى أية حال لم يطبع سكرتير كوكتو من رواية «عذراء الزهور» أكثر من مائتي نسخة لا تحمل إسم المؤلف أو الناشر. ويعترف لنا جينيه في سيرة حياته «يوميات حرامي» بأنه احترف دعارة الذكور في برشلونة بإسبانيا. فضلاً عن أنه وصف لنا حي بغاء الذكور في هذه المدينة. ولا شك أن

سنوات حبسه في إصلاحية ميتراي مهدته لإحتراف هذا النوع من البغاء. فقد كان يمارس الجنس الشاذ مع بعض نزلاء هذا السجن مقابل بعض المكاسب التي يجنيها. وفيما بعد حرض مؤلفنا واحداً من عشاقه إسمه لافا على استدراج أحد الزبائن من شواذ الجنس ثم يقوم بالإعتداء عليه بالضرب وسرقة ما لديه من نقود. وذات مرة سعى إلى التسلية وأزجاء وقت الفراغ مع أدبية صديقة له. فألبسها ملابس عاهرة ودفع بها إلى الشارع متظاهراً بأنه قوادها. وبالفعل نجحت الخطة واستطاع الهازلان الإيقاع بزبونة. وخشي الإثنان المضي في تسليتهما أكثر من هذا فتوقفا عن هذا الهزل وانفجرا في الضحك المدوي.

وتشير «يوميات حرامي» إلى أن جينيه صادق في حياته اللاحقة رجلاً يونانياً اشتهر بلبس ملابس النساء. كما أنه اعتاد ارتياد ملهى مدام آرثر الليلي في حي مونمارتر الذي كان يعج بالذكور المخنثين الذين يرتدون أزياء النساء. وباختصار أمضى جينيه سنوات عديدة من حياته يمارس دعارة الذكور من أجل اللذة أحياناً وطلباً للمال أحياناً أخرى. ومن حسن حظه أن سلطات السجون التي دخلها لم تكن تعرف عن طبيعة كتاباته شيئاً. ولو أنها قرأت ما يكتبه لأدركت على الفور أنه حالة ميئوس من اصلاحها وأنه لا ينوي الإلتحاق بأي عمل وسوف يستمر في ممارسة الجريمة. وفي يوم من الأيام قام الحارس عليه بمصادرة مخطوطاته وعاقبه بالسجن الإنفرادي لا بسبب أفكاره المنحرفة والإجرامية ولكن لاستخدامه بعض الورق الخاص بالسجن.

وفي ربيع ١٩٤٣ كان جينيه في طريقه إلى الشهرة والمجد حتى قبل توزيع روايته «عذراء الزهور» المحدود عام ١٩٤٤ نتيجة أزمة الورق الناجمة عن الحرب العالمية الثانية. والغريب أن إسمه بدأ يتردد على ألسنة أهل باريس حتى قبل أن يقرأوا له حرفاً. وساعد على ذلك بطبيعة الحال احتضان كوكتو له واعترافه بعبقريته. ففي ٣ مارس/آذار ١٩٤٣ كتب كوكتو في يومياته إن إسم جينيه أخذ يذيع على نحو مروع دون أن يقرأ له أحد سطراً واحداً. وعندما زج به في السجن بعد ذلك (كعادته) ذاع صيته أكثر وأكثر بين الناس رغم أنه لم يكن حتى ذلك الوقت قد نشر غير قصيدته الطويلة «الرجل المحكوم بالإعدام». لقد أراد جينيه أن يبصق في وجه المجتمع الفرنسي البورجوازي المنافق وأن يفضح كل مظاهر الزيف والإدعاء من حوله فلم يجد وسيلة إلى هذا غير الإمعان في الفحش والعهر والبذاءة والكتابة عنها. وشجعه على هذا بطبيعة الحال أن كوكبة من معارفه من رجال الفن والأدب الفرنسي آنذاك كانوا من شواذ الجنس أمثال كوكتو وكريستيان برنارد وعشيقه بوريس كوتشينو مدير الباليه الروسي وجوهاندو وجان ماريه وبعض الكتاب الأصغر سناً أمثال سنتين ولودنباخ وتورليه. وأيضاً لم يتوقف عن سرقاته إمعاناً من جانبه في تحدي قيم المجتمع البورجوازي الذي بادله احتقاراً باحتقار.

عرض جينيه على عالم نفساني:

وبعد ظهر يوم ٢٩ مايو ١٩٤٣ ألقى البوليس القبض على جينيه وهو يسرق ديوان شعر نادر لفيرلين هو «الأعيان الشهمة» من مكتبة تقع قريباً من ميدان الأوبرا بباريس. ولم ينكر جينيه أمام المحقق أنه قام بسرقة الكتاب كما أنه وصف نفسه بأنه لقيط من أب مجهول وأم تدعى كاميل جابرييل جينيه وأنه يحمل الجنسية الفرنسية وليس يهودياً. ولكنه ادّعى أمام المحقق أنه مهندس كهرباء. وعند تفتيش حجرته بالفندق عثر البوليس على ستة كتب أخرى قال جينيه إنه قام بشرائها. وهذه الكتب هي «الأرض» لإميل زولا و«المرأة السامرية» لإدمون روستان و«الفردوس لايزال موجوداً» لهنري دي مونترلانت و«الجريمة والمجتمع» بقلم ا. لوريولت وكتاب عن المدن الإغريقية بقلم مؤرخ من القرن التاسع عشر بعنوان «المدينة القديمة» إلى جانب «معجم الوردة» الذي ألّفه آبيل دلمونت عام ١٨٩٦ والذي استقى منه مؤلفنا كثيراً من الحكايات التي وردت في أعماله مثل حكاية الأمبراطور الروماني المخنث هليوجابالوس. ولولا أن صاحب المكتبة الذي سرق الديوان منها شهد بأن جينيه إشتراها منه بالفعل في اليوم السابق لتفاقمت مشاكله مع الشرطة.

وما إن عرف كوكتو بأمر القبض عليه حتى بادر بتقديم جميع المساعدات الممكنة إليه. فقد كلف محامياً ضليعاً في الجرائم الأدبية إسمه جارسون أن يتولى الدفاع عنه. وكتب إليه يقول: «عزيزي جارسون. أضع جينيه وديعة بين يديك فهو يسرق من أجل تغذية جسده وعقله. إنه رامبو جديد. ولا أحد يستطيع أن يدين رامبو مهما فعل». ومما سهل على المحامي مهمته أن جينيه لم يعد في نظر الباريسيين ذلك اللقيط اللص المتشرد والداعر بل أديب منتظر محل تقدير وإعجاب. وفي ١١ يونيه/حزيران ١٩٤٣ ظهر جينيه بمرافقة محاميه أمام القاضي لاستجوابه فاعترف يسرقته. واستطاع المحامي اقناع القاضي بضرورة عرضه على أشهر طبيب فرنسي حجة في الأمراض العقلية والنفسية آنذاك إسمه البرفيسور هنري كلود للتأكد من مدى مسئولية المتهم عن أفعاله. وقام كلود بدراسة حالته دراسة دقيقة مفصلة ووقف على كل ظروفه وملابساته. وأشار كلود في تقريره إلى سعة اطلاع المتهم غير العادية في مجال الأدب وسجل إعجاب جينيه بعبقرية كوكبة من الشعراء الفرنسيين تضم فيلون وفيرلين وبودلير ومالارميه. وتحدث المتهم بنوع من الفخر بسبب معرفته بعدد من رجالات الفكر والأدب في فرنسا آنذاك أمثال جان كوكتو. وأيضاً أشار التقرير إلى الأهمية القصوى التي يعلقها المتهم على حرية التعبير عن أفكاره مهما بدت غريبة في أعين الآخرين. وذكر التقرير أن جينيه ليس مولوداً بالشر والإنحراف. كل ما هنالك أنه يستسلم لنوازعه اللواطية دون أن يحس فيها بأدنى عيب أو غضاضة. وعندما سئل المتهم عن السبب الذي حداه إلى سرقة ديوان فيرلين بالذات أجاب

بقوله إنه رأى فيه صورة لشاب مليح ود لو أنه أقام علاقة لواطية معه. ولم يجد الطبيب وصفاً لحالته غير «الجنون الأخلاقي». ونبه البروفيسور كلود العدالة كي تشتد مع هذا الصنف من الناس ولكن عقابها لا يجب أن يكون أقسى مما ينبغي طالما أنهم لا يتمادون في خروجهم على أعراف المجتمع. وأنهى الطبيب العلامة تقريره كما يلي:

١ ـ إن جينيه ليس مجنوناً وإنه لا يعاني أية إنحرافات خطيرة في قدراته العقلية من شأنها أن تستوجب عقاباً كبيراً.

٢ ـ إنه لم يكن يعاني الفوضى الذهنية عند إتيانه بالأفعال المنسوبة إليه. ومن ثم فعليه الإعتراف بهذه الأفعال أمام المحكمة. غير أنه يمكن تصنيفه ضمن الأفراد غير المتزنين وغير المتوائمين ممن يعانون من الجنون الأخلاقي أي ضمن الناس ذوي الإرادة الضعيفة والحاسة الأخلاقية الضعيفة. والقوى العقلية لمثل هؤلاء الناس ليست على درجة من النشاط الكافي كي يسمح لهم بالتمييز بين الصواب والخطأ. كما هو الحال مع الشخص العادي. وعلى أية حال يجب اعتباره مسئولاً في تطبيق العقاب المنسوب إليه.

٣ ـ ينبغي وصف جينيه بأنه شخص ينتمي إلى ذلك الصف من الناس الذين يمكن تخفيف المسئولية عنهم بدرجة ضئيلة.

لقد ذهب جينيه في حديثه مع البروفيسور كلود إلى أنه أراد من تشرده وإيثاره الفاقة والعوز والحرمان أن يعيش بالقرب من الطبيعة بقدر المستطاع الأمر الذي جعله لا يحس بوطأة هذه الأشياء عليه. ولعله أراد أن يستثير عطف الطبيب عليه بمثل هذا القول. وكذب مؤلفنا على الطبيب عندما أفهمه أن المحاكم أصدرت ضده سبعة أحكام سابقة. والواقع أنه كان في تلك المرة يحاكم للمرة الثانية عشرة كما أن المحكمة التي مثل أمامها كانت تعلم أنه سبق مثوله أمام القضاء تسع مرات من قبل. وعلى أية حال كانت نتيجة التقرير الذي قدمه البرفيسور كلود إلى المحكمة أن القضاء اعتبره مسئولاً عن أفعاله وليس مختلاً في قواه العقلية. وحذّره القاضي من أنه إذا زاد الحكم عليه هذه المرة عن ثلاثة أشهر فسوف يزج به في السجن مدى الحياة لأن القانون الفرنسي ينص على الحكم المؤبد على كل مجرم لا ينصلح حاله بمرور الأيام، الأمر الذي أدخل الرعب في نفس جينيه وزاده حرصاً وإصراراً على الخروج من السجن بأي ثمن حتى ولو اقتضى منه الهرب. وأراد المحامي أن يعزز موقف المتهم فطلب من كوكتو الحضور أمام المحكمة التي تحدد انعقادها يوم ١٩ يوليه/تموز ١٩٤٣ حتى يقول كلمة طيبة عن المتهم. ويقول شهود العيان إن جينيه كان رابط الجأش هادئاً وواثقاً من نفسه ولا يحاول التحرش بهيئة المحكمة واستفزازها. وتقدم المحامي إلى المنصة ليقول لهيئة المحكمة: «لقد أنهى موكلي مرحلة

من حياته كان فيها لصاً ليبدأ مرحلة جديدة ككاتب وأديب». ثم قرأ الخطاب الذي بعث به كوكتو إليه ووصف فيه جينيه بأنه رامبو جديد.

وطلبت المحكمة شهادة كوكتو الذي أعلن أمامها أن جينيه «هو أعظم كاتب في العصر الحديث» غير أن كوكتو فيما بعد قال لموريس تويسكا إنه بالغ في أهمية جينيه لمساعدته للتخلص من محنته. وسأل القاضي المتهم: «ماذا ستقول لو أن شخصاً سرق كتبك؟» فأجابه جينيه: «سوف أشعر بالفخر». ثم سأله القاضي إذا كان يعرف ثمن الكتاب الذي سرقه فرد عليه قائلاً: «إنني لم أعرف ثمن الكتاب ولكني كنت بكل تأكيد على علم بقيمته». وبعد الإنتهاء من المحاكمة أصدر القاضي لحسن حظ جينيه حكماً بحبسه لمدة ثلاثة أشهر. ولو أن مدة هذا الحكم زادت يوماً واحداً لتم حبسه حبساً مؤبداً. ولم يرق دفاع كوكتو عن جينيه في عين الصحافة الفاشية فكتبت تشير إلى وجود علاقة لواطية تربط بينهما. وأضافت هذه الصحافة أن المتهم يحذو حذو كل من فيلون ورامبو في انحلالهما. وكان كوكتو يأمل في تحويل صديقه جينيه من لص إلى أديب.

رواية «معجزة الوردة»:

وأعيد جينيه إلى السجن لاستكمال مدة عقوبته حيث تعرف بشاب إسمه لوسيان جاي لوبيه في الثالثة والعشرين من عمره. وقد أوحى له هذا الشاب بتأليف رواية «معجزة الوردة» وبرسم شخصية بلكيان فيها، كما أنه أوحى له برسم صورة جاي في رواية «يوميات حرامي». وقد بلغ وله جينيه بهذا الشاب أنه طلب من جان ديكارنين أن يحضر إلى السجن ليتسلم مظروفاً يحتوي على ألف فرنك لشراء بذلة يلبسها جاي الذي تقرر نقله إلى سجن آخر تمهيداً للإفراج عنه. وكتب مؤلفنا إلى ديكارنين يقول: «لست أعرف الهزر في هذا الأمر فأنا أشعر بالفضل للوسيان جاي في أني كتبت رواية «معجزة الوردة».

كان مؤلفنا قبل مقابلته للوسيان جاي لوبيه سلبياً في شذوذه الجنسي. ولكنه قرر بعد معرفته بهذا الشاب أن يلعب دوراً إيجابياً وخاصة لأنه كان قد بلغ الرابعة والثلاثين من عمره. ولكن أمله في هذا التحول باء بالفشل الأمر الذي أثار سخطه على الممارسات الشاذة في نهاية الأمر. على كل حال دفعه هيامه بهذا الشاب إلى أن يلح في رجاء أصدقائه أن يرسلوا إلى حبيبه الجائع في السجن طروداً تحتوي على الأطعمة. بل إنه طلب من صديقه ديكارنين أن يبيع كل ممتلكاته (ممتلكات جينيه) من أجل شراء هذه الأطعمة. وزاد من توطيد العلاقة بين جينيه ولوسيان جاي لوبيه تخرجهما من سجن واحد هو إصلاحية ميتراي.

وفي غضون أقل من شهر منذ آخر مرة دخل فيها السجن عاد جينيه إلى سرقة الكتب مرة

أخرى فتم القبض عليه في ٢٤ سبتمبر/أيلول ١٩٤٣. ويلقي كوكتو الضوء على هذه الحادثة فيقول: «إن ضابط شرطة توجه إلى بيته بعد ظهر اليوم المشار وأيقظ كوكتو من نومه ليسأله إذا كان أحد مؤلفات ألان فورنييه مأخوذ من مكتبته. ونظر كوكتو من نافذته إلى الشارع فوجد جينيه مكبلاً بالأغلال ومربوطاً إلى شخص بجواره. فصاح كوكتو في غضب: «سوف يسرق دائماً. وسوف يكون غير منصف على الدوام. وسوف يحيط نفسه دائماً بأناس يقومون بتوريط أنفسهم لو أنهم تقدموا إلى مساعدته». وطلب جينيه من ديبوا رئيس الشرطة آنذاك أن يخف إلى مساعدته. وتوجه ديبوا إلى كوكتو ليعبر عن سخطه على تصرفات جينيه قائلاً: «إنه لص وأنا رئيس الشرطة. الشيء الوحيد الذي يتعين عليه عمله هو ألا يجعلهم يضبطوه متلبساً مرة أخرى».

أما رواية «معجزة الوردة» فتزخر بالرموز المستمدة من حياة القرون الوسطى. وتقع أحداثها في دير تابع لعائلة البوربون المالكة قبل أن تندلع الثورة وتحوله إلى سجن. والمعجزة التي تتناولها الرواية تتلخص في أن الأغلال التي يرسف فيها السجين تتحول إلى أكاليل غار وورود. والرواية تصور حياة السجين على أنها شيء مقدس فهي أقرب ما تكون إلى حياة النساك والرهبان والقديسين وهي تخلو تماماً من متاع الدينا. على كل حال كان من المفروض أن يفرج عن جينيه في ٢٥ ديسمبر/كانون الأول ١٩٤٣. ولكن الإحتلال النازي في فرنسا أصدر لأسباب سياسية قانوناً في ١٥ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٤١ يلزم المحليات بعدم الإفراج عن السجين إذا كان الإفراج عنه يتضمن خطراً على الأمن القومي وإذا ثبت أن المفرج عنه ليست له مهنة محددة أو محل إقامة ثابت أو وسيلة مشروعة لكسب العيش. وهي جميعاً تنطبق على جان جينيه وتحول دون الإفراج عنه. ووجد مؤلفنا نفسه مهدداً بالبقاء في السجن طيلة حياته فانزعج من ذلك انزعاجاً شديداً. ولم يجد مخرجاً من مأزقه سوى أن يثبت للشرطة أن بإمكانه أن يكسب قوته من حرفة الأدب. وطلب جينيه من شاب من أسرة ثرية يدعى مارك باربزات سرعة نشر روايته «سيدة الزهور» تمهيداً لنشر روايته الأخرى «معجزة الوردة» وأن يذهب بنفسه إلى الشرطة لإقناعها بقدرة جينيه على أن يكسب عيشه من الكتابة. وقام باربزات بالفعل بزيارة المسئولين في الشرطة وكتب يوم ٢٧ ديسمبر/كانون الأول ١٩٤٣ على ورقة شركة الأدوية التي تملكها عائلته ضماناً بأنه سوف يجد له عملاً أو يعطيه مبلغاً شهرياً يعينه على الحياة. ولما علم والد باربازات بأمر هذا التعهد استشاط غضباً لأن إبنه لم يكن يملك القدرة على الوفاء به.

وفي سجنه الجديد الذي اغتص بالسجناء السياسيين اليساريين أحس جينيه بالغربة فهم يتحاشون المجرمين العاديين وينظرون إليهم باحتقار. ورغم أن المقاومة الفرنسية بوجه خاص واليسار السياسي بوجه عام أشاحا بوجهيهما عنه، فإن دعاة الجمال في الأدب وأهل اليمين

والمتعاونين مع سلطات الإحتلال النازي رحبوا به. وعند تحرير فرنسا من الإحتلال لم يشارك جينيه الفرنسيين فرحتهم بل أبدى تعاطفه مع الأقلية المتعاونة مع قوات الإحتلال وتشككه في التنظيمات اليسارية، ولكنه في الوقت نفسه تعاطف مع الأقليات المتشرذمة الضائعة مثل الفلسطينيين. وفي صبيحة ١٤ فبراير/شباط ١٩٤٤ تم نقل جينيه إلى مستشفى تنون بالقرب من توريل حيث أجريت عليه الفحوص بأشعة إكس فاتضح أنه يعاني من مرض في الكبد. ونصح الدكتور موندور بضرورة إبقائه في إحدى المستشفيات لإجراء كونسولتو طبي عليه. يقول موريس تويسكا الذي أصبح رئيس شرطة في يومياته عن الحرب العالمية الثانية بتاريخ ٢٣ فبراير/شباط ١٩٤٤ إن كوكتو ورئيس للشرطة السابق أندريه ديبوا طلبا منه أن يتدخل لمساعدة جينيه. وذكر تويسكا أنه فحص ملف الرجل فوجده حافلاً بالإنتهاكات الأمر الذي يذكرنا بحياة فيلون وفيرلين ورامبو. وبفرض أن جينيه واحد من صغار الأدباء فقد قرر تويسكا تقديم يد العون له. وقام تويسكا بتوصية مأمور السجن عليه وتوفير الورق اللازم لكتابة روايته «معجزة الوردة». وأوصى رئيس الشرطة المأمور بأخذ مخطوطة الكتاب وتسليمها إلى عامل آلة كاتبة معين أرسله أصدقاء جينيه. ومن ناحيته كتب جينيه مباشرة خطاباً إلى أميدي برسيير بوزارة الداخلية الفرنسية يخبره أن المسيو مارك باربزات يضمنه فضلاً عن أن كتبه سوف تعود عليه بالثروة الطائلة. وسعى مؤلفنا هرباً من ضوضاء السجن وخوفاً من هلاكه في معسكر الإعتقال إلى الإنتقال إلى المستشفى حيث يتولى الدكتور موندور علاجه من السل الذي أصاب كبده وحتى لا يحرم الأدب الفرنسي من روائعه الأدبيه.

كان من الواضح أن الدكتور موندور تأثر بفكرة كوكتو الطيبة عن جينيه ومن ثم اقتنع بضرورة إنقاذ حياة هذا الأديب بأي ثمن وتوفير أدوات الكتابة له، فضلاً عن الوحدة كي يتمكن من تأليف أعماله. وهكذا تغيرت وجهة نظر المسئولين عن السجون إليه فقد باتوا يحملون له التقدير والتوقير لمواهبه الأدبية. ورأى الدكتور موندور أن حالة كبد جينيه رغم سوءها لا تستدعي التدخل الجراحي ولكنها تستدعي الراحة. وفيما بعد اضطر مؤلفنا إلى الإمتناع عن شرب الخمر بسبب تلف كبده بنسبة ملحوظة.

وأخيراً ابتسمت الأيام لجينيه فقد نجح أصدقاء كوكتو وهم تويسكا وديبوا وموندور في الإفراج عنه من سجن أو معسكر توريل في ١٤ مارس/آذار ١٩٤٤. وبعد مضي أسابيع قليلة من الإفراج عنه ظهرت مجلة لارباليت المحترمة وهي تتضمن فصلاً من فصول رواية «سيدة الزهور» وهو العدد نفسه الذي نشر فيه سارتر مسرحيته المعروفة «لامفر» إلى جانب طائفة من كبار رجال الأدب في فرنسا. وقد أدى اشتراك سارتر وجينيه في العدد عينه إلى تعرفهما

بيعضهما البعض. وهكذا طبقت شهرة جينيه الآفاق. وابتهج لأن حبيب قلبه جاي لوبيه قد تم الإفراج عنه وملأه الأمل في لقياه. وقبل أن يعرف جينيه خبر الإفراج عنه بيوم واحد أرسل خطاباً إلى كوكتو يوبخه لعدم مساعدته بالدرجة الكافية. وفي ١٥ مارس/آذار ١٩٤٤ أي في اليوم التالي لإطلاق سراح جينيه كتب كوكتو في يومياته يقول إن مؤلفنا سوف يعود إلى ارتكاب حماقاته وإن البوليس سيعود للقبض عليه وإن أحداً في هذه الحالة لن يستطيع أن يفعل شيئاً من أجله. والغريب إن جينيه كثيراً ما عض اليد التي أحسنت إليه وقلب ظهر المجن لليمينيين الذين أظهروا العطف عليه في وقت أشاح فيه اليساريون بوجوههم عنه.

لقد قال جينيه ذات مرة إن السجون راقت له لأنها أفضل مكان يمكن ممارسة الشذوذ الجنسي فيه دون أدنى حرج. ومن حسن حظه على أية حال أن البوليس الفرنسي تركه وشأنه دون أن يزج به في السجن بعد إطلاق سراحه من سجن توريل في مارس/آذار ١٩٤٤. ولا يعني هذا أنه أرعوى أو أن المحاكم توقفت عن إصدار الأحكام ضده. كل ما هنالك أن البوليس أغمض عينيه عنه ولا غرو فقد صار نجماً من نجوم المجتمع الفرنسي. فعلى سبيل المثال صدر ضده عام ١٩٥٦ حكم بالحبس لمدة ثمانية أشهر بسبب قيامه بنشر كتابيه عام ١٩٤٨ اعتبرا من الأدب المكشوف. والحقيقة أن جينيه كان يفرط في بذاءته في كتاباته لأنه يعرف أن هذه الكتابات لن ترى طريقها إلى النشر. على أية حال كان وضعه القانوني في الفترة بين ١٩٤٤ و١٩٤٧ شائكاً للغاية رغم اختلاطه بعلية القوم بمن فيهم وزير الداخلية فقد معرضاً للزج به في السجن في أية لحظة يثبت أنه انتهك القانون حتى ولو كان انتهاكه له بسيطاً. لقد سبق أن صدر ضده حكم بالحبس لمدة سنتين ولكن لم يتم تنفيذ هذا الحكم الذي ظل معلقاً كالسيف المسلط على رقبته. ولولا أن رئيس الجمهورية الفرنسية وقع مرسوماً بالعفو عنه عام ١٩٤٩ لظلت حريته مهددة في أية لحظة.

والغريب أن مسلكه الشائن لم يتغير قط حتى وهو في أوج شهرته إذا اعتاد ارتياد الفنادق الصغيرة بأوراق تحقيق شخصية مزورة أملاً في أن يتمكن من الهرب من دفع الحساب المتراكم عليه. وكان أصدقاؤه يساعدونه في ذلك. فذات مرة أراد الهرب من الفندق الذي يقيم فيه ولكن واجهته مشكلة إخراج بقية ملابسه فطلب من أصدقائه أن يلبسوا ثيابه المختلفة تحت ملابسهم الأصلية ثم يخرجون من الفندق ويخلعونها ليردوها إليه.

في تلك الفترة توثقت علاقة جينيه بمارك باربزات الذي ضمنه لدى البوليس فأسند إليه مؤلفنا نشر مسرحياته الثلاث الشهيرة: «البلكونة» (١٩٥٤ ـ ١٩٥٥) و«السود» (١٩٥٥) و«البرافان» (١٩٥٥ ـ ١٩٥٦) فضلاً عن إعادة نشر رواية «سيدة الزهور» (أو عذراء الزهور)

وقد ازدهرت علاقة باربزات به في أخصب فترتين في حياة مؤلفنا الأدبية: الفترة الأولى تمتد من ١٩٤٣ حتى ١٩٤٩ وفيها أنتج رواياته الخمس وأشعاره كافة والفترة الثانية تمتد من ١٩٥٥ حتى ١٩٥٧ وهي الفترة التي شاهدت إنتاج مسرحياته الثلاث الشهيرة. فضلاً عن مقالتيه الهامتين. ورغم صداقته الحميمة بباربزات وزوجته أولجا فإنه لم يتورع عن سرقتهما أثناء نزوله ضيفاً عليهما. وكان صاحبا البيت على وعي بما يفعله ضيفهما ولكنهما كانا يسكتان على سرقاته حتى يتحاشيا إحراجه. وكانت سرقة الكتب الشيء الذي يلذ له. وذات مرة فتح باربزات حقيبة ملابس ضيفه فوجد فيها إثني عشر كتاباً نادراً مسروقاً من مكتبته فاكتفى بإعادتها إلى مكانها دون أن يحدثه في هذا الأمر. تقول أولجا زوجة مارك باربزات إن جينيه كان لا يهتم مطلقاً لو أنها وصفته بالكاتب القذر ولكنه يغضب كثيراً لو قالت له: «إنك لص صغير قذر». والغريب أن جينيه كان على قناعة بأن سرقة الطبقة المتوسطة لا غبار عليها فقد قال ذات مرة في هذه الصدد لإحدى معارفه: «إن أبناء الطبقة الوسطى لا يذوقون طعم السعادة إذا لم أقم بسرقة شيء منهم». وذات مرة طلب هذا الرجل الغريب الأطوار من أولجا زوجة صديقه أن تكشف عن نهديها فتحرجت في بادىء الأمر ولكنها استجابت لطلبه الغريب. ولعل مثل هذه التصرفات شجعتها على أن تسأله ذات مرة عن أسلوبه في اصطياد العيال فلم يرَ غضاضة في أن يشرحه لها.

وبعد أن ساءت علاقة جينيه بكوكتو بدأ يتبع سياسة اجتذاب الأدباء الشبان الناشئين نحوه حتى يبتعدوا عن كوكتو وينفضوا عنه. فقد تعرف على سبيل المثال بأديب بوهيمي ناشىء في السادسة عشرة من عمره إسمه أوليفييه لاروند كان كوكتو قد قسى في الحكم على أدبه. فسعى جينيه إلى اجتذاب هذا الشاب نحوه وتشجيعه وإزجاء النصيحة الأدبية له. ووقع جينيه في غرام هذا الشاب الذي أبى أن يستجيب له. ولكن هذا لم يمنع الشاب من أخذ المال منه. وفي تلك الفترة من حياته أخذ مؤلفنا يفلسف شذوذه ويميز بين الرجال الذين يثيرون الجنس فيه والرجال الذين يشعر نحوهم بأوثق الروابط الجنسية. والرأي عند جينيه أن لاروند وجين ديكارنين ولوسيان وجافا وديكتيمو ينتمون إلى الطراز الأخير. فضلاً عن أنه نجح في اجتذاب بعض عشاق منافسه كوكتو أمثال كريستيان بيرارد وبوريس كوتشنو الذي كتب عدداً من السيناريوهات لفرقة الباليه الروسية. وليس أدل على تأصل عادة السرقة فيه من أنه عندما دعاه مصمم الأزياء جاك فات إلى بيته فإنه غافل مضيفه وسرق صندوقاً صغيراً يحتوي على بعض المجوهرات والأحجار الكريمة. ولما فحصها جينيه فيما بعد واكتشف أنها مزيفة صاح قائلاً: تباً لهذا اللص! ثم أعاد الصندوق المسروق إلى صاحبه من طريق شخص آخر.

جينيه يقابل سارتر

قابل جان جينيه الفيلسوف جان بول سارتر لأول مرة في مايو/أيار ١٩٤٤ وكان سارتر وعشيقته سيمون دي بوفوار قد سمعا عن عبقرية جينيه ولكنهما لم يصدقاها في بادىء الأمر. غير أنهما اقتنعا على الفور بعبقريته عندما قرءا جانباً من روايته «سيدة الزهور» وأدركا صوته المتميز رغم تأثره بكل من بروست وكوكتو وجوهاندو. كان سارتر يجلس مع نفر من أصدقائه في مقهاه المفضل في باريس كافيه فلور عندما هبط جينيه عليه دون سابق معرفة أو ميعاد وسأله: «هل أنت سارتر؟» ثم انصرف ليعود ثانية ويكرر لقاءه بالفيلسوف الكبير. وكتبت سيمون دي بوفوار عن تطور علاقة جينيه بها وبسارتر تقول إن مؤلفنا كان منبوذاً من المجتمع منذ أن رأت عيناه النور فلا غرو إذا رأيناه لا يكن أي احترام لهذا المجتمع ويحاول الإنتقام منه من طريق السلوك الشائن المعيب. وأضافت أنه يحسن الإصغاء لمحدثه ويستجيب سريعاً له. ولم يخطر ببالها أنه قام بتعليم نفسه بنفسه. وجذب انتباهها حدة ذكائه. وتؤكد سيمون دي بوفوار أن سارتر وجينيه اشتركا في شيء واحد هو حب الحرية وكراهية كل ما يعترض طريقهما من زيف وإدعاء مثل إدعاء المبادىء السامية والقيم الروحية النبيلة فضلاً عن زيف المثل العليا والمواضعات والمؤسسات الراسخة. وأيضاً استرعى انتباهها في كتاباته وأحاديثه قوله إنه لن يتردد أبداً في سرقة صديق أو خيانته. ورغم تصريحه بهذا فقد لاحظت عليه بعده عن النميمة واغتياب الناس. فبالرغم من أن علاقته بكوكتو بدأت تسوء فإنه لم يسمح لأحد بالهجوم عليه في غيبته. ويبدو أن كوكتو شعر بالغيرة من سارتر عندما تأكد من المودة العظيمة التي يحملها جينيه نحوه. غير أن علاقته الوطيدة بسارتر أصابها الفتور في السبعينات من القرن العشرين ولكن مودة جينيه لسيمون دي بوفوار ظلت على حالها حتى النهاية.

وعندما تعرف جينيه بسارتر كان سارتر في الفترة بين ١٩٤٥ و١٩٥٦ يسيطر على الساحة الثقافية تماماً. وفي عام ١٩٤٧ أصدر سارتر دراسة عن بودلير أهداها إلى جينيه. وامتدح سارتر في هذه الدراسة أندريه جيد لأنه قبل شذوذه الجنسي وتأقلم معه. لم يكن سارتر ينزع إلى المثلية بل كان زير نساء يتهافت عليه الجنس الناعم. ورغم هذا أصبح جينيه أثيراً إلى قلبه لدرجة أنه اعترف بأنه لا يخص سوى إثنين بحبه العميق هما الأديب جينيه والرسام النحات جياكو ميتي. غير أنه لم يقبل أن ينأى جينيه بنفسه عن السياسة التي وجد سارتر أنها شيء مهم في حياة الإنسان. على أية تغير جينيه في قابل أيامه فانخرط بسبب تأثير سارتر عليه في السياسة في العشرين سنة الأخيرة من حياته. وهناك أوجه شبه بين سارتر وجينيه فكلاهما يمقت الحياة البورجوازية ويحب كثرة السفر والتجوال بحرية دون أحمال وأثقال. ولم يبخل سارتر على جينيه بالمديح. فعندما نشر هذا الأخير رواية «معجزة الوردة» عام ١٩٤٦ استقبلها سارتر

بالتهليل والتكبير ووصف الرواية بأنها اكتشاف الحقيقة من طريق الشذوذ الجنسي. والرأي عند سارتر أن الشذوذ الجنسي في حالة جينيه اختيار وإن هذا الإختيار هو الذي يحدد شكل الرواية ومضمونها. وذات مرة سأل جينيه الفيلسوف سارتر: «بما أنك لا تهوى الشذوذ الجنسي فلماذا تحب كتبي؟» فأجاب سارتر بقوله إن إزورارة الشخصي عن الشذوذالجنسي هو الذي يدفعه إلى حب كتاباته. ثم أردف قائلاً إن جينيه يسعى إلى اكتشاف العالم عن طريق الشذوذ الجنسي. ويقارن سارتر بين بروست وجينيه فيقول: «إن الشذوذ الجنسي عند بروست مسألة قدر ومصير في حين أنه عند جينيه اختيار كما يتجلى في رواية «معجزة الوردة» سواء في كلماتها أو مناظرها أو نظام أحداثها. فمؤلف هذه الرواية قد اختار السرقة والسجن والوعي بالشر.

وليس أدل على حسن العلاقة التي ربطت بين مؤلفنا وكل من سارتر وسيمون دي بوفوار من أن جينيه نشر عام ١٩٤٦ بعض أجزاء من روايته «يوميات لص» في مجلة «الأزمنة الحديثة» التي كان سارتر يتولى تحريرها. فضلاً عن أنه أهدى هذه الرواية إلى كليهما. ويبدو أن جينيه كان يعتقد أنه يفوق سارتر في موهبته. ولا شك أن الحوارات الكثيرة التي جرت بينهما ساعدت سارتر في كتابة بحثه الهام «القديس جينيه: الكوميدي والشهيد» (١٩٥١). وبالرغم من تعاطف سارتر الواضح مع جينيه فإن ذلك لم يمنعه من اتهامه بمعاداة السامية. ويرى أنها معاداة للسامية من نوع غريب فهي تحفزه على الإمتناع عن سرقة اليهود ومضاجعتهم.

وعندما انتهى جينيه من تأليف رواية «الطقوس الجنائزية» اراد أن يبيع حق نشرها بخمسمائة ألف فرنك. وحيث أنه لم يكن بمقدور صديقه باربزات أن يدفع هذا المبلغ الكبير فإنه التجأ إلى الناشر الفرنسي المعروف جاليمار الذي قام في عامي ١٩٥١ و١٩٥٢ بنشر أعماله كاملة. ودأب جينيه على سحب مبالغ طائلة من هذا الناشر بسبب حاجته المستمرة إلى المال ورغبته الملحة في الإنفاق. وعندما سافر سارتر إلى أمريكا امتدح عبقرية جينيه أمام أصدقائه من الأمريكان الأمر الذي حفزهم إلى ترجمة بعض أعماله. ويقول جينيه إن دفاعه العلني عن اللواط نفعه وأضره في آن واحد، فقد نفعه في اتساع رقعة شهرته وأضره من ناحية إحجام الكثيرين عن شراء كتبه وقراءتها علناً. على أية حال كان هدفه من هذا الإعلان عن لواطه في معظم ما كتب هو الإنتقام من المجتمع الفرنسي الذي نبذه. ولا غرو إذا رأيناه يعبر عن فرحته عندما استطاعت القوات النازية أن تستذل بلاده التي احتقرته وأذلته. يقول جينيه: «هناك في كتبي دائماً شيء غير مشروع وإباحي. والناس لا يجسرون على طلب كتبي من المكتبات بل يتوارون بعض الشيء عند شرائها وقراءتها».

العشيقان جافا ولوسيان:

وفي صيف ١٩٤٦ قابل جينيه ممثلاً مسرحياً وسينمائياً ومخرجاً مشهوراً إسمه لويس جوفيه

الذي أخرج له مسرحية «الخادمات» بعد أن طلب منه إجراء التعديلات عليها. وعندما تحول مؤلفنا من كتابة الرواية إلى الكتابة للمسرح اضطره هذا إلى تغيير أسلوبه في الكتابة، فقراءة الرواية تتم في عزلة ووحدة في حين أن المسرح يقتضي وجود جمهور من المشاهدين. وفي يونيه ١٩٤٧ منحته دار جاليمار للنشر جائزة أدبية عن مسرحيته «الخادمات» بفصل تحمس سارتر لها. وقد تكونت لجنة المحكمين من عدد من ألمع نجوم الأدب في فرنسا أمثال سيمون دي بوفوار وأندريه مالرو. غير أن الكاتب المعروف ألبرت كامو اعترض على منحه هذه الجائزة. ولكن اعتراضه لم يؤثر في نتيجة التحكيم.

وفي إحدى زياراته لمدينة «كان» بفرنسا قابل جينيه شاباً في الثانية والعشرين من عمره يدعى جافا في يخت أحد الأثرياء. وتعرف جينيه على هذا الشاب من طريق صديق مشترك إسمه رينيه الذي أسر ذات يوم إلى جافا بأن جينيه يود أن يتعرف عليه. ولعب الفأر في عب جافا وسأل رينيه إذا كان صاحبه من أهل لوط فطمأنه رينيه بأنه ليس كذلك. كان جافا قبل أن يغرف مؤلفنا يميل إلى معاشرة النساء. فلم يعترض جينيه على ذلك. وفي عام ١٩٤٨ تطوع جافا في صفوف الجيش الفرنسي المتجه إلى الهند الصينيه آنذاك. وخشي جينيه أن يفترق جافا عنه. فتدخل بنفوذه لدى واحد من كبار السياسة للحيلولة دون التحاقه بالجيش. وهكذا أصبح جافا عشيقاً له وجاء عشقه في وقت ربطته بالشاب لوسيان علاقة لواطية. ويروى جينيه في «يوميات حرامي» أن رينيه الذي شاركه السكن كان لصاً يستولي على أشياء بحوزة شواذ الجنس بعد قيامه باستدراجهم في دورات المياه العامة وبالقرب من محطات السكة الحديد أو في غابة بولونيا. وكان يعود في آخر الليل إلى سكنه حاملاً أسلابه وغنائمه من الخواتم والساعات المسروقة. وكان جينيه يزجي له النصح بشأن أفضل الوسائل لابتزاز ضحاياه. وبناءً على نصيحته اشترك جافا ورينيه في أعمال السلب والنهب في أواخر الأربعينات إذ كان جافا يستدرج ضحاياه من أهل لوط إلى حجرته ثم يأتي رينيه فجأة ليداهم الضحية ويقوم بالإستيلاء على ممتلكاتها. ولم يقتصر نشاط رينيه الإجرامي على أهل لوط بل امتد إلى العاديين من الناس. ويذكر جافا أنه أثناء العمل في بروفات مسرحية جينيه المسماة «حارس الموت» التي ألفها عام ١٩٥٤ حضر أندري ديبوا إلى المسرح لمقابلة أحد أعضاء الفرقة. وما إن وقعت عينا رينيه على الزائر ديبوا حتى بادر بالإختباء تحت الكرسي. وبعد إنصراف ديبوا سأل رينيه عمن يكون هذا الزائر فأخبره جينيه بأنه رئيس الشرطة. فابتلع رينيه ريقه وأسقط في يده واعترف بأنه قام منذ أسبوع واحد بسرقة هذا الرجل في غابة بولونيا. ويقول جافا أن رينيه تزوج فيما بعد وأنجب خمسة أطفال وعمل منجداً في باريس، ولم تكن الصورة التي رسمها جينيه لجافا في «يوميات حرامي» أفضل بكثير من الصورة التي رسمها لرينيه. يقول جينيه إنه أحب جافا وإتخذه عشيقاً

له رغم ما اتسم به من جبن وتخاذل وضعف وسوقية في السلوك والمشاعر وغباوة. فقد أعجبه في جافا افتقاره إلى الحس الأخلاقي وانخراطه في عالم الجريمة وحياته الجنسية المزدوجة. والغريب أن جينيه كان يمارس شذوذه مع جافا ولوسيان في الوقت نفسها. ورغم أن لوسيان تزوج عام ١٩٤٧ فإن علاقته اللواطية استمرت مع جينيه. والغريب أيضاً أن وشائج الصداقة ربطت بين العاشقين جافا ولوسيان فلم يحس أحد منهما بالغيرة من الآخر.

كانت زوجة لوسيان فتاة جذابة إسمها جيني. وقد وافق جينيه على زواج عشيقه منها نظراً لأنها كانت حبلى من لوسيان فأراد جينيه أن يتربى طفلها في كنف أبيه الشرعي حتى لا تتكرر مأساة جينيه مع أمه. ولم يزد الحاضرون لحفلة الزفاف المدني على أربعة كان جينيه واحداً منهم. وكان من عادة مؤلفنا أن يقرأ بعض أجزاء مسرحياته بصوت عالٍ على لوسيان وزوجته التي أنجبت من زوجها طفلين علاوة على طفليها من زوجها السابق الذي هرب وتخلى عنها. وكان جينيه يشعر بعاطفة قوية تربطه بالأطفال الأربعة. ولعلها أحاطته بدفء الجو الأسري الذي حرم منه. واشترى لعشيقه لوسيان قطعة أرض خارج مدينة «كان». وفي عام ١٩٤٧ بدأ في تشييد منزل للوسيان وعائلته واستغرق بناء هذا المنزل أكثر من خمسة أعوام لعدم توفر المال الكافي لديه. ولم تكن الزوجة مخدوعة في زوجها فقد كانت على وعي بانتهاكاته للقانون فضلاً عن علاقته اللواطية بجينيه. وبسبب رغبة مؤلفنا في استكمال المنزل، ألح في طلب المال من ناشريه وخاصة عندما ألقى البوليس القبض على لوسيان عام ١٩٤٧ فقد طلب من باربزات مثلاً مبالغ باهظة من أجل إقامة السقف. وعندما حصل على عائد مالي كبير نتيجة تقديم مسرحية «الخادمات» على خشبة المسرح أعطاه كله إلى زوجة لوسيان. وامتد كرم جيينه إلى عدد من أحبائه وعشاقه فقد أقام لهم عدة منازل وخصص لنفسه فيها ركناً ملأه بالكتب والأوراق والمخطوطات. غير أنه نادراً ما بات فيها بل آثر أن يبيت في حجرة يستأجرها في فندق. وظل جينيه وفياً للوسيان فترة لا تقل عن عشرين عاماً، غير أن صبره نفد معه ومع الآخرين في نهاية الأمر. والجدير بالذكر أن جينيه لم ينبذ سلوكه المعوج وهو في قمة مجده الأدبي فقد وجد متعة وتسلية في تحريض عشاقه ومعارفه على استدراج أهل لوط بهدف سرقة ما في جيوبهم. بل إنه قام بنفسه بتعليمهم أفضل الوسائل لسرقتهم.

وكانت علاقة جينيه بجافا أشد ما تكون غرابة فنادراً ما لاط به طوال الفترة من عام ١٩٤٧ حتى ١٩٥٤. وكان إذ شعر بالرغبة في اللواط أقام علاقة عابرة مع رجل لا يعرفه. ورغم هذا كان جينيه وجافا يتقاسمان السكن كما لو كانا زوجاً وزوجة. فقد أصر جينيه على أن يحدثه جافا في التليفون إذا اعتزم أن يتأخر خارج المنزل. وفي إحدى المرات غاب جافا عن البيت

ليلتين أو ثلاثة فإذا بجينيه يستشيط غضباً ويتشاجر معه شجاراً حاداً وعنيفاً. وأيضاً كان جينيه يستشيط غضباً إذا اكتشف أن عشيقه يضاجع النساء على السرير الذي ينامان عليه. وفي إحدى المرات اكتشف جينيه شعرة نسائية على المخدة فهاج وماج وأرغد وأزبد. ومع ذلك فعندما كان جافا يتغيب عن البيت ليضاجع النساء وكان مؤلفنا أشد ما يكون حرصاً على معرفة أدق التفاصيل منه ويثلج صدره أن يعلم أن جافا كان سعيداً في علاقاته النسائية. ولم يكن جافا أميناً معه فقد كلفه بإعادة نسخ مخطوطات بعض مؤلفاته فلجأ هذا الشاب إلى التربح منها من طريق الغش والتدليس. فقد مزج أجزاء من روايتيه «الطقوس الجنائزية» و«الشجار» وادعى بعد إجراء بعض التعديلات أنها كتاب جديد من تأليف جان جينيه ثم قام ببيعه إلى رئيس تحرير مجلة «ساميدي سوار» غير أن جاك جورين اكتشف هذا التزوير بخبرته الطويلة في جمع المخطوطات. وكان جينيه يتغدى مع جافا وسيمون دي بوفوار في مطعم فالتف حوله الصحفيون ليسجلوا ما حدث. فقال لهم ببساطة إن جافا هو المسئول عن هذا التدليس.

وفي عام ١٩٥٠ استأجر جينيه شقة مكوّنة من حجرتين ليعيش فيها مع جافا ولكن سرعان ما ملّها وضاق ذرعاً بها وهجرها ليعود مع عشيقه إلى حياة الفنادق التي كان يرتادها بأوراق مزورة فقد كان يخشى التعرف على حقيقة شخصيته نظراً لأنه لم يستوف مدة الحبس الصادرة ضده. وفي تلك الفترة من حياته قام مع عشيقه جافا بزيارة أسبانيا وإيطاليا وبلاد المغرب. وكان بعض الموسرين والموسرات يدعونه لقضاء فترة في بيوتهم في الريف الفرنسي. فيلبي الدعوة مصطحباً معه عشيقه جافا. وغمر مؤلفنا الفرح الشديد عندما قام صديقه جورين - وهو من شواذ الجنس - بشراء مخطوطة رواية «المشاجرة» نظير عشرة آلاف فرنك. كان جورين متخصصاً وخبيراً في جمع المخطوطات النادرة. فقد اشترى مخطوطة «موسم في الجحيم» التي نظمها رامبو ونسخة من ديوان «أزهار الشر» كان مؤلفه بودلير قد أهداها إلى كل من سارتر وسيمون دي بوفوار. وأيضاً اشترى هذا الرجل حجرة النوم التي مات فيها الأديب الكبير مارسيل بروست.

كان جينيه لا يكف عن طلب المال والخدمات من جورين ومن بينها صرف الشيكات الآتية بإسم مؤلفنا الذي لم يكن بإمكانه صرفها بسبب سجله الإجرامي الحافل وإيجاد عمل لواحد من أصدقائه من خريجي السجون يدعى لويس ريجولف. ناهيك بطلباته التي لا تنتهي للمال الذي كان مؤلفنا لا يرده. ولكن علاقة جورين بجينيه تدهورت بسبب تصرفات لوسيان المعوجة. ففي أحد الأيام حضر لوسيان إلى مكتب جورين مدعيا أن جينيه أرسله في طلب مبلغ كبير من المال. وشعر جورين أن لوسيان يكذب فأعطاه مبلغاً ضئيلاً من المال فاغتاظ لوسيان منه

ودس له لدى جينيه قائلاً إن جورين أساء معاملته وجعله ينتظر لمدة ساعتين كاملتين. ولأن مؤلفنا كان سريع الغضب وانفعالياً فقد أنحى باللائمة على صديقه رغم أنه اعترف بأن صديقه أحسن صنعاً عندما اكتفى بإعطاء لوسيان مبلغاً زهيداً. وقرر جينيه في غضبه أن يقطع صلته بجورين رافضاً أن يستمع إلى محاولة صديقه شرح الموقف. غير أن المياه بينهما عادت إلى مجاريها بعد مرور سنوات وذلك في ديسمبر ١٩٥٦.

كان من عادة جينيه المبالغة في مدح عشاقه والإشادة بهم. ويبدو أن مؤلفنا لم يكن على يقين من جودة أسلوبه في الكتابة لأن كثيراً ما كان يسأل الآخرين رأيهم فيه. وهو أسلوب يصفه النقاد بأنه بديع يرجع اكتماله إلى رغبته في تغليف الشر بغلاف من الكلمات رائع وجميل. وكانت إحدى هواياته الشاذة الإستمتاع بمنظر الجبانات والمدافن. وفي مايو ١٩٤٨ ألّف باليه قدم على خشبة المسرح فلقي نجاحاً ملحوظاً. وقد أعيد تمثيل هذا الباليه في أمريكا.

الحكم المؤبد ينتظر جينيه:

إن جينيه كان يشعر بالخطر يحدق به ولا غرو فقد هرب من تنفيذ بعض الأحكام عليه وكان الحكم عليه لأي سبب ولو كان تافهاً مثل التسبب في حادثة سيارة كفيلاً بعودته إلى السجن وحبسه حبساً مؤبداً. ولهذا سطر كوكتو وسارتر خطاباً مفتوحاً لرئيس الجمهورية الفرنسية في يوليه ١٩٤٨ يناشدانه بأن يشمل جينيه بالعفو حتى يعيش حياته الطبيعية. فضلاً عن أن أربعين كاتباً وسياسياً وفناناً من بينهم بيكاسو وكوليت تصدوا للدفاع عنه حتى قبل أن ينشر كوكتو وسارتر التماسهما إلى رئيس الجمهورية. غير أن إثنين من كبار الكتاب امتنعا عن توقيع الملتمس هما ألبرت كامو ولويس أراجون. واستجاب رئيس الجمهورية ولكن قام بتعليق الحكم الصادر ضد جينيه لأنه ليس من سلطته أن يلغيه. واشترط رئيس الجمهورية على جينيه شرطين: أولهما أن يستمر في حسن السير والسلوك لمدة خمس سنوات وثانياً أن يدفع غرامة مقدارها عشرون ألف فرنك. ولولا تهديد المسئولين بأن رئيس الجمهورية سوف يرجع عن قراره إذا لم يدفع الغرامة لما دفعها. وبذلك تحسنت أحواله بشكل لافت للنظر. فعلى سبيل المثال قبلته جمعية مؤلفي الدراما عضواً فيها بعد أن رفضته لسجله الإجرامي كما أصبح له حساب جارٍ في بنوك فرنسا وسويسرا بعد أن كان لا يستطيع مجرد صرف شيكاته. ولكن ليس من المؤكد أنه أصبح يتمتع بحق التصويت في الإنتخابات. ويبدو أن عبقرية جينيه كانت لا تتفتق إلا بين المجرمين والمشردين والمساجين فقد نضبت بعد أن اختفت هذه الأشياء من حياته إذ لم يعد هناك شيء يشحذ هذه العبقرية. والغريب أن داء السرقة لازمه حتى النهاية ورغم إدراك علية القوم ووجهائهم لذلك فإنهم لم يكفوا عن دعوته إلى حفلاتهم حتى لو غافلهم وسرق منهم هذا

الشيء أو ذاك. والغريب أيضاً أن اللصوص والمتشردين وأرباب السجون بدأوا ينفضون عنه لأنهم أحسوا بأنه لم يعد واحداً منهم.

وفي العقد الأخير من حياته شكا جينيه من أن معظم الناس يقبلون على قراءته من باب حب الإستطلاع والرغبة في الوقوف على فضائحه الشخصية وأضاف أنه لا يحب أن يخوض الناس في سيرته كما أنه يريد أن يبدأ حياة جديدة تماماً. وعلى أية حال وقع جيينه عام ١٩٤٨ عقداً بأن يصدر الأمريكي برنارد فريتشمان ترجمة باللغة الإنجليزية لرواية «سيدة الزهور». وفريتشمان مسئول عن ذيوع صيته في أميركا حيث أقبل القراء على قراءته سراً. ولا شك أن جيل الستينيات المتمرد المعروف بإسم جيل البيتس (أمثال ألان جنسبرج وجاك كرواك) تأثر بكتابات جينيه الفاضحة تأثراً واضحاً. ويعترف مؤلفنا بالفضل إلى فريتشمان في إطلاع الأمريكان على ترجمة لأدبه: «لقد أسدى إلى سارتر صنيعاً كبيراً وأنت يا فريتشمان فعلت الكثير بل الكثير جداً من أجلي». والجدير بالذكر أن مؤلفنا كان في الأربعينات متطرفاً في حماسه للشيوعية كفكر وفلسفة رغم بعده عن الإنخراط في التنظيمات السياسية والحزبية.

والذي يدل على أن مؤلفنا لم يرعو أن الرسامة فيني رسمت بورتريه لجينيه باعته إلى لوطي إسمه وايلد وأحد المعجبين بكاتبنا. وأعاد وايلد البورتريه إلى الرسامة كي تجري عليه بعض الإصلاحات. ورأى جيينه الصورة فأراد أن يستحوذ عليها ليبيعها إلى شخص آخر وطلب من الرسامة أن تدعي لوايلد أنها فقدت الصورة. ولكنها رفضت الإستجابة لطلبه. فغضب منها وقطع صلته بها.

نضوب قريحته وإدانة العنصرية

أخرج جينيه فيلماً فاضحاً بعنوان «أغنية الحب» (١٩٥٠) وعدداً لا بأس به من سيناريوهات الأفلام. وعندما عرض فيلم «أغنية الحب» في مدينة نيويورك تدخل البوليس لحظره. وتكررت هذه الحادثة في ولاية كاليفورنيا. ويجدر بالذكر أن القضاء الأميركي أصدر حكماً بحظر الفيلم والتنديد به. ولكن بمجيء عام ١٩٧١ لم تجد دور العرض الإنجليزية في لندن غضاضة في عرضه كما أن باريس سمحت بعرضه عام ١٩٧٢. وإذا كان جينيه في الجزء الأول من حياته كرّس كتاباته لمعالجة اللواط فإنه نذر الجزء الأخير منها لإدانة العنصرية والحكم الشمولي والإستيطان الإستعماري. وفي نهاية الأربعينات صار يعاني من الإكتئاب وبدأ يتشكك على نحو ما في كل من يتعامل معه. وبعد تحرير فرنسا من الإحتلال الألماني عام ١٩٤٥ لم تكن علاقة جيينه بكوكتو قد تدهورت تدهوراً شديداً. فقد تصدى جينيه للدفاع عنه ضد هجوم السورياليين عليه بسبب نزوعه إلى المثلية. وظل مؤلفنا يتردد على شقة كوكتو حتى الأربعينات

والخمسينات من القرن العشرين وذلك قبل احتدام الخلاف بينهما وانفصالهما الكامل عن بعضهما البعض. وفي ١٥ أغسطس/آب عام ١٩٥٢ كتب جينيه إلى كوكتو يقول: «إنني في نظرك لا أعترف لك بالجميل. إنني أدين لك بالفضل الكبير. ولكني الآن لم أعد أدين لك بأي شيء». وعبر جينيه في تلك الفترة من حياته عن ضيقه بصناعة الأدب واشمئزاه منها وعزمه على حرق جميع مخطوطاته التي سطرها في الأعوام الخمسة الأخيرة. وأهان كوكتو إهانة بالغة عندما قال له: «إنك لم تفعل أي شيء خلال الأعوام العشرة الماضية سوى أن تلعب دور نجم». وتألم كوكتو بشدة من هذا التجريح ونسبه إلى جفاف ينابيع الخلق في جينيه وغيرته من أن يرى الآخرين ينتجون. ولكن جينيه على أية حال شعر بالندم على ما أبداه من قسوة نحو صاحب الفضل الأول عليه فسطر إليه كتاباً رقيقاً مؤكداً له أنه يحمل له الود على الدوام.

وفي عام ١٩٥٠ دخل جيينه المستشفى للعلاج من حصوة من المرارة وعاش في بؤس لمدة ستة أعوام. وفي عام ١٩٥٤ اعترف بأن فكرة الإنتحار ألحت عليه وهو يناهز الأربعين من عمره. ولا غرو فقد جفت طاقته الإبداعية التي كان يستمدها من حياة التشرد والشذوذ والسجون. ولكن واصل حياته غير المستقرة وظل مستمسكاً بحياة السفر والتجوال الدائم والمبيت في فنادق الدرجة الثالثة حاملاً كل متاعه معه في حقيبة سفر تحتوي على كل ممتلكاته. وزاد الطين بلة أنه بدد كل دخله على عشاقه فكاد أن يصبح صفر اليدين. وكان يحمل نقوده معه في روحاته وغدواته فيتعرض للسطو والسرقة أحياناً دون أن يدعوه هذا إلى الضجر أو الشكوى. وساعد على ذلك بطبيعة الحال أن طلباته في الحياة كانت محدودة للغاية فهو يعيش عيشة الفقر كالنساك والزاهدين.

عشيق ايطالي:

وفي ١٩٥٣ كتب مؤلفنا خطاباً مفتوحاً إلى ديكيمو. وديكيمو هذا آخر عشاقه وهو شاب إيطالي مخنث مليح الوجه في العشرين من عمره التقى به مؤلفنا في أبريل ١٩٥٢. ورغم أن مؤلفنا أحب هذا الشاب أكثر من أي شاب آخر فإن الشاب لم يعبأ بمشاعره وشهرته. يقول باباتاكيس إن جينيه حاول الإنتحار بسبب فشله في حب هذا الفتى. وقد وصف العشيق القديم جافا العاشق الجديد ديكيمو بأنه مزدوج في ممارساته الجنسية ويتمتع بالأناقة والذكاء والطمع. وبلغ استياء جينيه من هذا العاشق الجديد حداً جعله يستبعد إسمه من قائمة عشاقه التي تضم ديكارنين ولوسيان وجافا وعبد الله. ويضيف جافا أن جينيه الذي كان سلبياً فيما مضى في ممارسة الجنس الشاذ بدأ يلعب دوراً إيجابياً مع ديكيمو المخنث. وتؤكد جين زوجة لوسيان أن

جينيه فقد الرغبة في الحياة بسبب صدود ديكيمو عنه لدرجة أنه كان يتناول جرعة كبيرة من المنومات لعلها تريحه من عذابه.

وشعر جينيه بالزهو بسبب جمال ديكيمو وذكر أن إمارات الإعجاب لاحت على وجه سارتر عندما قابل ديكيمو في روما لأول مرة. غير أن هذا لم يمنع سارتر من الهجوم على ديكيمو فيما بعد. وعبثاً حاول مؤلفنا إقناع ديكيمو بأن يترك روما ويشد معه الرحال إلى باريس. ومن الجائز أن ديكيمو ذكر مؤلفنا بصدر شبابه حين كان نزيلاً في إصلاحية الأحداث في ميتراي: ومن الخطل أن نظن أن جينيه حاول الإنتحار مرة واحدة فقط فقد حاول الإنتحار عدة مرات. وليس أدل على إذلال ديكيمو له من أنه خرج مع مؤلفنا بالسيارة فإذ به ينزل جيينه منها في منتصف الطريق حتى يمارس اللواط مع رجل لديه المال أكثر مما لدى جينيه.

والجدير بالذكر أن تطوراً جوهرياً طرأ على موقف جينيه من اللواط الذي كان يمجده ويعلي من شأنه ويتحدى قيم المجتمع الفرنسي بالتباهي بممارسته. فنحن نراه في فترة اكتئابه ينظر إلى اللواط على أنه لعنة. فضلاً عن أنه نسب نضوب موهبته الخلاّقة إلى عقم الممارسات الجنسية الشاذة. يقول مؤلفنا في هذا الشأن: «فيما يتعلق بالممارسات السلبية للواط فإني لا أعرف عنها أي شيء بالمرة. وماذا يعرف الناس عنها؟ هل يعرفون لماذا يقع اختيار رجل على مثل هذا الوضع في ممارسة الحب؟ إن هذه الممارسة السلبية للواط فرضت علي مثلما فرض على لون عيني... وحتى في طفولتي كنت أدرك انجذابي نحو الصبية الآخرين. إنني لم أنجذب مطلقاً نحو النساء. فقط بعد أن أصبحت على وعي بهذا الميل (قررت) أن أختار اللواط بحرية بمفهوم سارتر لكلمة الإختيار».

وفي الفترة بين نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات من القرن العشرين قام جينيه بترجمة قصائد لواطية لكاتب أغريقي من القرن الثامن الميلادي يدعى سترانو. ولأنه كان لا يعرف الإغريقية فقد اعتمد في صياغتها على ترجمة حرفية لها. ومما يذكر أن مؤلفنا كان من أشد المعجبين بالرسام ميكلانجو بسبب ما عرف عنه من ممارسة اللواط.

ويعبر جينيه في كتاب «شذرات» الذي لم يكمله عن إحساسه بالإحباط والمرارة بسبب ممارسته اللواط فقد أصبح اللواط عنده جحيماً لا يطاق فهو لا ينتهي بعزلة اللواطي عن بقية البشر فحسب بل عن رفاقه من أهل لوط أنفسهم. يقول مؤلفنا في هذا الكتاب: «إن الحكم الصادر ضد اللصوص والقتلة خاضع للنقض ولكن ليس هناك نقض أو إبرام في الحكم على إنسان باللواط». ويتضمن هذا الكتاب تعبيراً عن حسده من لوسيان عشيقه الأسبق لأنه أصبح أباً لثلاثة أولاد. قد لاحظت ليلى برنجشايم التي ترجع معرفتها به إلى الثلاثينات. هذا فعندما

قابلته عام ١٩٥١ وجدته يحدثها بفخر شديد أن لوسيان أصبح أباً لثلاثة أطفال. ولا شك أن هذا زاده إحساساً بالمرارة وبعقم حياته التي زحفت برودة الموت إليها.

إن سارتر بكل تأكيد لم يكن من شواذ الجنس. ولكن ظاهرة الشذوذ الجنسي أثارت فضوله وحب استطلاعه. قد تأثر سارتر بشخصية جينيه في رسم صورة محارب ألماني في عصر النهضة يسمى جورز في تلك المسرحية التي ألفها بعنوان «الشيطان والسيد الطيب». يقول سارتر على لسان جورز: «إنني طيلة حياتي أتكون من شخصين.. إنني أتكون من شخصين لا يتواءم الواحد منهما مع الآخر. وكل من هذين الشخصين ينكمش في رعب من الشخص الآخر.. نحن منبوذون. فلتنبذ العالم الذي نبذك. ولتلتفت إلى الشر حتى يشعر قلبك بالراحة.» ثم يسأل جورز: « ألا ترى أن الشر هو السبب الذي أعيش من أجله.» إن حياة جينيه حتى عام ١٩٤٧ كانت تمور بالنشاط الأدبي والإبداع الفني ولكنه في الفترة من ١٩٤٧ حتى ١٩٥٥ عانى الأمرين من الوحدة رغم اجتماعه بكوكتو وسارتر وغيرهما من الفنانين والأدباء ورغم أن عاشقيه لوسيان وجافا كانا يلازمانه. فعاشقاه يعجزان عن فهم ما يكتب كما أنه ضاق ذرعاً بالحياة البورجوزاية التي يحياها زملاؤه من أهل الفن والأدب.

وفي الفترة التي توقف فيها جينيه عن الخلق والإبداع من عام ١٩٤٩ حتى ١٩٥٤ ازداد إسمه في الذيوع والإنتشار. وفي نحو عام ١٩٥٣ اجتاز تجربة مهمة وصفها عام ١٩٦٧ في مقاله الذي كتبه عن الرسام رامبرانت. فبينما هو جالس في ديوان أحد القطارات تفرس في وجه الرجل الجالس قبالته. فهبطت عليه فكرة ملحة قد تبدو عادية ولكنه اعتبرها نوعاً من نفاذ البصيرة والإلهام. وهو أن كل انسان يساوي كل انسان آخر، كما هبطت عليه في الوقت نفسه سحابة من الحزن لم تفارقه. لم يكن في وجه الرجل الجالس أمامه أي شيء جذاب فهو قبيح المنظر ويفتقر إلى الرشاقة وذو شارب قذر. وفجأة شعر مؤلفنا بنظراته تتعثر على وجه المسافر الآخر كما أنه شعر بنفسه تطير من جسده إلى الشخص الآخر وأن الشخص الآخر يفعل الشيء نفسه. ويبدو أن جينيه شعر بأنه على أعتاب مرحلة جديدة في حياته فقد كان كاتب رواية قبل ذلك ثم أصبح كاتب مسرح فيما بعد. وقبل ذلك كان شديد العياقة في ملبسه ثم أصبح غير مبال بمنظره. وفي الماضي كابد لوعة الحب الفاشل مع ديكيمو ولكنه الآن يرتشف من رحيق الحب السعيد مع لاعب السيرك العربي عبد الله الذي يسير على السلك المشدود. والأهم من هذا كله أنه نبذ الكتابة عن نفسه ليصبح لسان حال المحرومين والمظلومين في هذا العالم.

القريحة تعود إليه:

على أية حال عاد جينيه إلى الخلق الأدبي في عام ١٩٥٤ بعد انصرام مرحلة كتابة الرواية (١٩٤٢ ـ ١٩٤٨) ففي عام ١٩٥٥ عادت إليه طاقاته الإبداعية واستمرت معه حتى عام ١٩٥٧. وفي هذه الفترة كتب ثلاث مسرحيات كاملة فضلاً عن أنه سطر أفضل مقالين له وهما «مرسم ألبرتو جيالوميتي» و«اللاعب على السلك العالي». ويلاحظ أنه لم يجر على رواياته أية تعديلات تذكر في حين ظل ينقح مسرحياته دون كلال أو ملل. كان جينيه لصيقاً بالرسام جيالوميتي يتسامران معاً لساعات متصلة في المقاهي ويزجيان وقت فراغهما بطريقة غريبة. فرغم أن نوازع جياكوميتي الجنسية مالت به إلى جنس النساء فقد كان يتسلى مع جينيه بالتحديق في المارة. مشيراً لصديقه إلى الرجل الذي يرى أنه يناسب ميوله الجنسية الشاذة. والغريب في الأمر أن جياكوميتي نجح في معظم الأحيان في اكتشاف الرجل الذي ينجذب إليه صديقه. وفي الفترة من ١٩٥٤ حتى ١٩٥٧ قام جياكوميتي برسم أربعة صور وثلاث لوحات زيتية لجينيه. وأهم هذه البورتريهات بورتريه لجينيه أكمله بعد ما يزيد على أربعين جلسة استغرقت أكثر من أربعين يوماً.

والجدير بالذكر أن المقال الذي سطره مؤلفنا عن الرسام جيوكوميتي تقع في ثلاثين صفحة ويقول عنها بيكاسو إنها أروع ما قرأه من مقالات عن فن الرسم. ويرجع الفضل إلى جيوكوميتي في أنه تعلم منه احترام الإنسان العادي البسيط الأمر الذي ساعده على تحويل تجاربه الخاصة في الجنس الشاذ إلى تجربة عامة يحس فيها بألم المطحونين من البشر في كل مكان وتحويل غضبه على بلاده التي أذلته وأذاقته مرارة الفقر والإستكانة والشجن إلى عطف على المظلومين في الأرض. ويتجلى لنا هذا التحول في مسرحياته حيث يسخر من الرجل الأبيض ويتهكم عليه ويصوره على نحو كاريكاتوري مضحك في حين أنه يعلي من شأن الخدم والسود والعرب والمتمردين بوجه عام.

ورغم تأثره الواضح بالمثال والرسام جياكوميتي وإعجابه به فإن ذلك لم يمنعه من سرقته. فقد كلفت وزارة الخزانة هذا المثال بصنع ميدالية تصور الرسام ماتيس الطاعن في السن. وبالفعل قام جياكوميتي برسم نحو عشرين لوحة لماتيس احتفظ بها في مرسمه. وإذا بإحدى أفضل هذه اللوحات تختفي من المرسم. وجن جنون جياكوميتي وسأل صديقه الكاتب الأمريكي جيمس لورد إذا كان قد أخذ اللوحة فنفى الرجل هذا نفياً قاطعاً. وبالنظر إلى أنه لم يعط مفتاح المرسم لغير إثنين هما جيمس لورد وجينيه فإن التهمة كانت محصورة فيهما. واقترح جيمس لورد على جياكوميتي أن يسأل جيينه عن الصورة المفقودة فلم يطاوعه قلبه أن يفعل ذلك نظراً لسجل

جينيه الحافل كلص. وبعد وفاة جياكوميتي عام ١٩٦٦ ظهرت الصورة المختفية معروضة للبيع فاشتراها أحد أبناء ماتيس. وذات يوم قال جيمس لورد في معرض حديثه إلى جينيه إن صورة ماتيس المفقودة عادت إلى الظهور فرد عليه جينيه قائلاً: «نعم. لقد تعجب سارتر كيف تمكنت من إخراجها من مرسم جياكوميتي». وعندما لمح له جيمس لورد أن جياكوميتي كان مقتنعاً أن التهمة محصورة فيه وفي جينيه صاح هذا الأخير قائلاً: «إذن فلا بد أن تكون أنت الذي فعلت هذا!».

وفي ٨ يوليه/تموز ١٩٥٤ عاد جينيه كعهده دائماً إلى انتهاك القانون الفرنسي فقد اتهمته إحدى المحاكم في باريس بتأليف كتابين في الأدب المكشوف عام ١٩٤٨ وهما قصيدته «السفينة» وروايته «الشجار». ويبدو أن الرسوم التوضيحية البذيئة التي احتواها الكتابان أساءت إلى مشاهر هيئة المحكمة أكثر من عباراتهما. فحكمت عليه بالسجن لمدة ثمانية شهور مع وقف التنفيذ وبغرامة مائة ألف فرنك أغلب الظن أنه لم يدفعها. ويرى بعض المراقبين أن الحكم كان أقسى مما ينبغي بسبب صراحته في مناهضة الأستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا نحو عام ١٩٥٥. الأمر الذي يدل على جنوحه إلى اليسار وتعاطفه معه. وفي ١٦ مايو من هذا العام نفسه (١٩٥٥) اتفق جينيه مع عدد من كبار الأدباء والفنانين والمثقفين الفرنسيين أمثال ماجريت دورا وجياكوميتي وسارتر على توقيع بيان يشجب الإستعمار الفرنسي في كل من الجزائر والمغرب. وانضم إلى الموقعين على هذا البيان فرانسوا مورياك وفرانسوا ساجان. ولهذا بادرت الصحافة الإستعمارية بالهجوم على جينيه وتجريحه من الناحية الشخصية بوصفه من أهل لوط. فتألم مؤلفنا الأمر الذي جعله بعد مرور سنوات قلائل يمتنع عن التوقيع على بيان آخر يدين استمرار السياسة الإستعمارية في الجزائر. وتسبب لواطه الفاضح ـ على عكس لواط كوكتو المستتر ـ في المزيد من الإحراج له. فعندما اختير كوكتو عضواً في الأكاديمية الفرنسية في أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٥ طلب منه المسؤولون فيها أن يغفل الإشارة في خطاب تعيينه إلى جيينه. ورغم ذلك فعندما قامت محطة الإذاعة الفرنسية بتسجيل هذا الخطاب لم يطاوعه قلبه أن يتجاهل إسم جينيه فأشار إليه على نحو عاطفي مؤثر. وعندما أقيمت حفلة تكريم بمناسبة تعيين كوكتو في المجمع قام الحاضرون بتقديم جينيه إلى ملكة بلجيكا باعتباره واحداً من فحول الشعراء الأمر الذي أثار حنق الناقد الأمريكي أدموند ويلسون الذي علق على هذا قائلاً إنه دليل على «عفن أوروبا».

عشيق جديد ومسرحيات جديدة ضد الاستعمار والتفرقة العنصرية:

في عامي ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ ارتبط مؤلفنا بعلاقة لواطية بشاب يدعى بيير جولي الذي أهداه

فيما بعد النسخة الأولى من مسرحيته «الشرفة». كان بيير جولي شاباً في منتهى الوسامة في العشرين من عمره طويل القامة أزرق العينين ذا رأس جميل أقرب ما يكون في انتظام ملامحه إلى تماثيل الإغريق فضلاً عن اتساق جسده وروعته. غير أن هذا العاشق سرعان ما مل العلاقة التي تربطه بجينيه فابتعد عنه من أجل عاشق آخر أصغر منه سناً وأوفر مالاً معبراً عن برمه باحتياجات جينيه الجنسية. والغريب أنه عندما سافر جينيه إلى السويد أقيمت له حفلة كبيرة دعي إلى حضورها نفر كبير من شواذ الجنس فادعى مؤلفنا ضيقه من هذا الوضع الفاضح بقوله: «إنهم جميعاً من شواذ الجنس فقط فهل يمكن تخيّل هذا؟» وتسبب استغراقه في الجنس الفاضح من ناحية وتحريضه المغلف على الثورة في وجه الإستعمار من ناحية أخرى في تأخر عرض مسرحيته «الشرفة» حتى عام ١٩٦٠. ولكن لندن عرضتها في أبريل/نيسان ١٩٥٧ على خشبة مسرح يعرف بمسرح الفنون الذي لم يكن خاضعاً لسلطة الرقيب ولنفس اللوائح والقوانين التي تخضع لها المسارح البريطانية بوجه عام. ورغم هذا فقد أصر المسئول الأول على ضرورة حذف إحدى عشرة إشارة إلى المسيح ومريم العذراء والحبل من الروح القدس والقديسة تيريزا كما أنه أصر على استبعاد مشهد يمثل عملية الإخصاء. وعندما حضر جينيه بروفات مسرحية «الشرفة» بصحبة مترجمها إلى الإنجليزية برنارد فريتشمان بدأ ينتقد طريقة إخراجها بصوت مرتفع ويعترض على حذف بعض أجزائها. وطلب تأجيل عرض المسرحية لمدة عشرة أيام حتى يتسنى له إجراء بعض التغييرات فيها. وفي اليوم التالي لهذه الحادثة حاول جينيه دخول المسرح لحضور البروفات فمنعه رجال الأمن من الدخول. والذي يدل على غرابة مؤلفنا أنه فقد اهتمامه وتحمسه لمسرحية «الشرفة» فيما بعد قائلاً إنها لم تعد تروق له. كما أن سارتر كتب مقالاً عبّر فيه عن مقته لها. وعلى أية حال عندما جاء ديجول إلى الحكم عام ١٩٥٨ وعين الروائي الكبير أندريه مالرو وزيراً للثقافة كان أول شيء فعله الوزير أن أمر بعرض هذه المسرحية.

ورغم ما تضمنته مسرحياته من إشارات وإيماءات سياسية فإن جينيه لم ير أعماله المسرحية في إطار سياسي على الإطلاق. فهو يقول في هذا الصدد: «إذا كانت مسرحيات تمد يد العون إلى الزنوج فليس هذا شأني. وأظن أنها لا تقدم مثل هذا العون على أية حال. وفي اعتقادي أن العمل والكفاح المباشر ضد الإستعمار يقدم للزنوج مساعدة تفوق بكثير تلك التي يقدمها المسرح إليهم. وفيما بعد قال جينيه شيئاً مماثلاً عندما قال إنه يرى أن الأعمال الفنية تهذب رؤيتنا للعالم ولكنها لا تغيره مثلما تغيره الثورات السياسية والإجتماعية. بالعكس فقد ذهب إلى أن جو الحرية السياسية العام قمين بأن يطلق الطاقات الخلاّقة من عقالها ويحيي القدرة على التجديد في مجال الفنون. ورغم إنكاره لوجود أية أبعاد سياسية في مسرحياته فلا مناص من

الإعتراف بأن فرنسا في فترة تأليفه لمسرحياته كانت تمور بأجواء سياسية عاصفة ومضطربة. فقد استعرت الحرب الجزائرية في الفترة بين عامي ١٩٥٤ و١٩٦٢. ففي عام ١٩٥٤ اضطرت فرنسا إلى الإعتراف باستقلال كل من فيتنام الشمالية والجنوبية. فضلاً عن أن جمال عبد الناصر ألهب الشعور القومي لدى الشعوب العربية في تلك الفترة. ولا ننسى أن القوات السوفيتية اجتاحت المجر عام ١٩٥٦ بعد اشتعال نيران الثورة فيها ضد الإتحاد السوفيتي. وبسبب هذا الجو المضطرب الذي ساد العالم كله آنذاك انجذب مؤلفنا بكليته إلى السياسة الدولية والمحلية وأخذ يطالع بفهم عن المظالم السياسية والإجتماعية ويعبر عن فرحته بسقوط الأنظمة الإستعمارية. ولهذا تغيرت نظرته إلى الأدب وبدأ يرى أنه يلعب دوراً حيوياً في معركة التحرر الإنساني. والجدير بالذكر أن بعض النقاد اعتبروه من كتاب مسرح العبث الذي اقترن بصامويل بيكيت ويونسكو وأداموف. ومن الواضح أن عداوته للرجل الأبيض كانت مروعة ومخيفة لدرجة أن بعض الممثلين البيض الذين اشتركوا في مسرحية «السود» اقشعرت من فرطها أبدانهم. وعلى سبيل المثال امتنع واحد منهم عن أداء دور ابن مومس بيضاء لأنه جاء على لسانها قولها: «إن أمي تبرزتني وهي واقفة». ولكن الممثلين البيض استطاعوا في نهاية الأمر التغلب على شعورهم بالضيق وقدموا مع زملائهم من الممثلين السود عرضاً متكاملاً استقبله الجمهور في كل مرة بحماس بالغ. وفي تلك الآونة كانت المستعمرات الأفريقية التابعة للدول الأوروبية في سبيلها إلى التحرر الأمر الذي أثلج صدور الممثلين السود والبيض معاً فلم يألوا جهداً في التدريبات الشاقة دون مقابل. إن مسرحية «السود» أحرزت نجاحاً منقطع النظير فهي قد حصلت على جائزة النقد الكبرى عام ١٩٥٩ كما أنها عرضت بصورة متصلة في ١٦٩ حفلة. وبلغ التحمس بمؤلفنا للزنوج مبلغاً جعله يقول إنه يمكن لأي ممثل أسود أن يمثلها دون حاجة إلى استئذانه أو أخذ رأيه. ويؤكد مؤلفنا أنه يعترض على أن يضطلع الرجل الأبيض بتمثيل دور الرجل الأسود في مسرحيته «السود» مثلما حدث في كل بولندا وهولندا.

وبعد تقديمها على خشبة المسرح في باريس أعيد تمثيلها في لندن. ويبدو أن النقاد الأنجليز وجدوا عسراً فأخافهم معظم ما يقوله الممثلون السود الناطقون باللغة الإنجليزية لأن هؤلاء الممثلين جاءوا من ليبيريا ونيجيريا والإنديز الغربية. وقدمت مسرحية «السود» في ٤ مايو ١٩٦١ في مدينة نيويورك بأمريكا فكان نجاحها ساحقاً لدرجة أنها ظلت تقدم على خشبة المسرح هناك لمدة أربعة أعوام متتالية. وكان معظم الحاضرين لحفلاتها من السود. وعبّر الروائي الزنجي الأمريكي جيمس بولدوين عن افتتانه بمسرحية «السود» الأمر الذي أدى إلى شجار مع زميله الروائي الأمريكي نورمان ميلر الذي اتهم جيمس بالدعوة إلى التفرقة العنصرية بسبب ما تقطره المسرحية من كراهية مشبوبة للرجل الأبيض. ومما يدل على موقف جينيه المناهض للرجل

الأبيض أنه صور في مسرحيته إخصاء عدد كبير من البيض مسمياً إياهم «الزنوج البيض». ومما ساعد على حسن استقبال مسرحية «السود» في أمريكا أن أمريكا في الستينات كانت تتجه إلى إلغاء الفوارق بين البيض والسود في المدارس ووسائل النقل العامة والمطاعم الخ. فلا غرو إذا رأينا الزنوج الأمريكان يقبلون على مشاهدة المسرحية ويتهللون معبرين عن غضبهم على الرجل الأبيض واحتقارهم له ورغبتهم في الإنتقام والتشفى منه، الأمر الذي أفزع الممثلين البيض المشاركين في تقديم المسرحية. وحتى تدرك مقدار نجاح هذه المسرحية في أمريكا يكفي أن نذكر أنها مثلت في ١٤٠٨ عرض مسرحي في الفترة بين ٤ مايو/أيار ١٩٦١ وسبتمبر ١٩٦٤. وقد تسببت هذه المسرحية في اندلاع أعمال الشغب والسلب والنهب في لوس أنجلوس بأمريكا عام ١٩٦٥ على يد الزنوج الأمريكان الساخطين على التفرقة العنصرية المتفشية في الولايات المتحدة.

عبدالله الجزائري:

وفي أواخر عام ١٩٥٥ وبعد الإنتهاء من تأليف مسرحية «السود» قابل جينيه عشيقه الجزائري عبد الله بنتاجا الذي قال عنه مؤلفنا وعن عشيقه الآخر جين ديكارنين إنهما يمثلان الحب الحقيقي في حياته. كان جينيه في السادسة والأربعين من عمره عندما التقى لأول مرة بعبد الله لاعب السيرك البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً والمنحدر من أب جزائري وأم ألمانية أصيبت بالشلل فلم يبخل جينيه في الإنفاق عليها. ويبدو أن عبد الله كان يتعاطى المخدرات منذ حداثته مع صديقه وزميله في السيرك أحمد. وفي نهاية عام ١٩٥٦ أعاد جينيه بيع قصة فيلمه «أحلام محرمة» حتى يتمكن من الإنفاق على دروس عبد الله وتدريباته على المشي على سلك عال بدلاً من الألعاب البهلوانية التي كان يقوم بها على الأرض. ولشد ما كانت لعبة المشي على السلك تروق لمؤلفنا بسبب ما تنطوي عليه من أخطار جسام. وفي مقاله «اللاعب على السلك العالي» يتحدث جيينه عن الوحدة والعزلة الأخلاقية والخطر الدائم الذي يعيش فيه هذا اللاعب.

وهناك كثير من الشواهد الدالة على أن شخصية سعيد المحورية في مسرحية «السواتر» التي بدأها عام ١٩٥٦ مستمدة من شخصية عبد الله. وحرّض جينيه عشيقه الجزائري على الهرب من الخدمة العسكرية حتى لا يشترك مع الجنود الفرنسيين في سفك دماء بني جلدته من الجزائريين. الأمر الذي اضطرهما إلى مغادرة الأراضي الفرنسية. وأخذ الإثنان بعد عام ١٩٥٧ يجوبان الأقطار بلا انقطاع فطافا في ألمانيا والنمسا وبلجيكا وهولندا واليونان التي جذبته إليها بسبب جوها الدافىء سعياً وراء الشفاء من مرض الروماتيزم الذي ألم به. والجدير بالذكر أن كثيرين من المثقفين الفرنسيين شجبوا سياسة بلادهم الإستعمارية في الجزائر وحرضوا بني

جلدتهم على عدم الإشتراك في الحرب الفرنسية ضد الجزائر. وفي ربيع عام ١٩٥٧ اشترى جينيه شقة في باريس بالقرب من محطة السكة الحديد في مونبارناس. ويجدر بالذكر أن عبد الله بعد هروبه من الجيش الفرنسي قام بإخفاء ملابسه العسكرية في بدروم هذه الشقة. غير أن مؤلفنا سرعان ما كره هذه الشقة فقام ببيعها. وفي عام ١٩٦٠ تعرضت هذه الشقة لمداهمة البوليس لها في الفجر بحثاً عن أشخاص سبق الزج بهم حديثاً في السجن فأنكر مالكا الشقة الجديدة معرفتهما بجينيه وبأصدقائه تحاشياً للوقوع في أية مشاكل. وكان أخشى ما يخشيانه أن يعثر البوليس على الملابس العسكرية التي تركها عبد الله في البدروم. ولكن البوليس لم يهتد إليها. وفي عام ١٩٥٧ سافر جينيه وعبد الله إلى فيينا بحثاً عن مدرب يعلم عبد الله المشي على السلك العالي ولكنهما لم يجدا فيها أي مدرب مناسب فاضطرا إلى السفر إلى كوبنهاجن. والغريب أن تحمس جينيه لتدريب عشيقه على المشي على السلك كان كبيراً للغاية. وكان جينيه يتشدد مع عشيقه حتى يلتزم بمواعيد التدريبات فضلاً عن أنه كان يناقش تفاصيلها مع المدربين. وفي مارس ١٩٥٨ سافر جينيه مع عبد الله إلى جزيرة رودس ثم رحلا عنها ليتوجها مرة أخرى إلى أثينا ثم فيينا ثم برلين ليعودا إلى كوبنهاجن. وفي هامبورغ بألمانيا أثناء وجود عبد الله في كوبنهاجن أعاد مؤلفنا كتابة مسرحية «السواتر» بغية الحصول على أكبر قدر من المال لدفع نفقات تدريب عبد الله وشراء ما يلزمه من تجهيزات وملابس خاصة بالسيرك.

وفي تلك الفترة من حياته أدمن جينيه تعاطي أنواع المخدرات المختلفة وخاصة لأنه كان يعاني الأرق، فهو يعمل طيلة الليل ولا يستطيع النوم إلا في الفجر من طريق تناول المخدرات. والغريب أن إدمانه المخدرات لم يؤثر على بنيته القوية. وفي ربيع ١٩٥٩ سقط عبد الله من فوق السلك العالي فأصيب في ركبته وأراد جينيه أن يحصل على المال اللازم لعلاج عبد الله فباع حقوقه في الطبعة الإنجليزية من «سيدة الزهور» مقابل مبلغ زهيد لا يتجاوز خمسمائة جنيه استرليني دفعها له الناشر البريطاني أنتوني بوند. وتحسنت أحوال عبد الله بعد أن أجريت له عملية في ركبته. وفي شهر أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٥٩ اصطحب جينيه عشيقه الجزائري إلى أمستردام. وهناك تعاقدت فرقة إيطالية مع عبد الله كي يؤدي بعض عروضه في الكويت حيث تعرض لحادثة خطيرة فقد سقط على الأرض أثناء شقلبته في الهواء. ولا شك أن دفء بلاد اليونان جذبه إليها أكثر مما جذبه أي بلد أوروبي آخر. وليس أدل على رغبته في قطع صلاته تماماً بفرنسا من بعده الدائم عنها من ناحية ومن أن أحداث مسرحياته تقع في بلاد غريبة من ناحية أخرى. فمسرحية «السرفة» تقع أحداثها في أسبانيا ومسرحية السود في أفريقيا و«السواتر» في الجزائر. وفي بلاد اليونان تعرف جينيه بشرطي لواطي شاب ودعا جينيه هذا الشاب إلى ممارسة اللواط معه فقبل. وبعد الإنتهاء من المعاشرة ـ وهو لا يزال عارياً ـ قدم جيينه حفنة من المال

للشرطي الذي كان قد فرغ من ارتداء ملابسه وهو يقول له: «أنت حامي حمى القانون وتأخذ راتباً للمحافظة على النظام العام. وها أنت تقبل أن تأخذ النقود من لواطي عريان.» فهز الشرطي الشاب منكبيه وابتسم وأخذ النقود دون أن تبدو عليه على الإطلاق أية علامة على الإحساس بالندم. وبينما كان عبد الله في الكويت يؤدي عرضه الخاص بالمشي على السلك إذ به يسقط على الأرض أثناء تشقلبه في الهواء. وبات من الواضح أن إصابته هذه المرة كانت بالغة وأنها سوف تعوقه في المستقبل عن العمل في السيرك، الأمر الذي اعتبره جينيه نكبة كبيرة. ولا غرو فقد اعتبر أن عبد الله هو إنجازه العظيم وتحفته الرائعة.

ويبدو أن جينيه بطبيعته كان عاجزاً عن الإحتفاظ بأية صداقات بصفة مستديمة. ورغم أن اهتمامه بدأ يتجه شطر شاب آخر يدعى جاكي ماجليا فإنه لم يخطر بباله قط أن يتخلى عن عبد الله وعائلته إلى الحد الذي جعله يكلف محامياً كي يدافع عن والدة عبد الله التي كانت مهددة بالطرد من مسكنها. تعرف جينيه على جاكي عندما كان جاكي صبياً في نحو التاسعة من عمره. اقتدى جاكي بجينيه وحذا حذوه في كل شيء فهو يقلد خطه ويتبنى ثوريته السياسية ويحتضن نفس حبه لمواجهة الموت. وعندما شب جاكي عن الطوق احترف سرقة السيارات. فصمم مؤلفنا على تحويله من سارق سيارات إلى قائد لإحدى سيارات السباق. ولهذا اقترض مبلغاً كبيراً من المال من الناشر جاليمار كي يشتري لعشيقه الجديد سيارة من طراز اللوتس، وبدأ جينيه يوجه كل طاقته إلى تدريب معشوقه الجديد على قيادة السيارات بعد أن كان يوجهها من أجل تدريب عبد الله على المشي على السلك العالي واستخدم نفوذه لإلحاق جاكي بنادٍ إيطالي لسباق السيارات. وإذا كان جينيه رأى أن ألعاب السيرك العالي تنطوي على خطر الموت فإنه رأى الشيء نفسه في سباق السيارات. ولم يبخل جينيه على جاكي بشيء فقد اصطحبه إلى لندن خصيصاً لشراء سيارة السباق لوتس. وفعل جينيه نفس ما فعله مع عبد الله فقد حرّض جاكي على الهروب من الخدمة العسكرية في نهاية ديسمبر/كانون الأول ١٩٦١ الأمر الذي اضطر هذا الشاب إلى العيش خارج فرنسا حتى لايقع تحت طائلة القوانين الفرنسية. وفي ٢ يونيه/حزيران عام ١٩٦٣ فاز جاكي في إحدى مسابقات السيارات التي نظمت في بلجيكا. ويصف أحد معارف جينيه موقف هذا الأديب من جاكي فيقول إنه لاحظ أنه كان يعامله معاملة الوالد لولده المقبل على الإمتحانات، فهو يوفر له كل أسباب الراحة وينظم له مواعيد أكله وراحته ويزجي إليه النصح. وكان قبل بدء السباق يقف بجواره ويشجعه. وعندما فاز جاكي في السباق تهلل وجهه بالبشر والفرح واحتفل بهذه المناسبة. غير أن جاكي آثر قضاء سنة في الخدمة العسكرية حتى يصبح من حقه العودة إلى فرنسا بلاده في أي وقت. وكان جاكي شأن معظم عشاق جينيه يعيش حياة جنسية مزدوجة. فقد وقع أثناء إقامته بإنجلترا في

غرام امرأة إنجليزية تدعى جاكلين شاركته الإهتمام بالسيارات. ويبدو أن جيينه كعادته هو الذي شجع جاكي على الزواج منها. وكان والدها وهو رجل شرطة شاهداً على زواج ابنته. وكان جينيه الشاهد الآخر عليه، فوقع في سجل الكنيسة وكتب أمام مهنته أنه «حرامي». فكانت مفارقة أن يكتب هذا بجوار توقيع رجل الشرطة. والجدير بالذكر أن الحياة الإنجليزية لم ترق في عينه فقد أعلن أنه يحب في الإنجليز أنهم كذابون للغاية وأنهم تفوقوا عليه في كل مرة حاول فيها أن يغشهم. فهم كذبة ولصوص ولئام لا يعلى عليهم رغم أنهم يثيرون المتعة والإحترام.

وعندما أصدرت إحدى دور النشر الألمانية عام ١٩٥٠ كتاب «كيريل» قام البوليس بالإستيلاء على جميع النسخ. وفي يوليو ١٩٦٢ أفرجت محكمة هامبورغ عن بيع رواية «سيدة الزهور» التي تم نشرها وأوقف توزيعها بسبب إتهام المسئول عن تحريرها بالإساءة إلى الأخلاق العامة. غير أن الإدعاء سرعان ما تراجع عن هذا الحظر واصفاً مؤلفها بأنه خلاّق مبدع. وأن مؤلفاته تبدو منحلة فقط من منظور الأخلاق البورجوازية ولكنها لا تبدو كذلك في عين القارىء الفاهم والواعي. وقد أسهم قرار الإدعاء هذا في توسيع رقعة التحرير والليبرالية وتخفيف قيود الرقابة في ألمانيا الأمر الذي شجع دار النشر الألمانية ميرلين على نشر «معجزة الوردة». وقال القاضي الذي رفع الحظر عن الكتاب إنه لن يذيع بين الناس بسبب صعوبة قراءته من ألفه إلى يائه.

وفي أحد الخطابات التي بعث بها إلى عشيقه السابق أشار جينيه إلى نزعته إلى التشرد المتأصل في نفسه وإلى ميله إلى الترحال الدائم والمبيت في محطات السكة الحديدية لا يحمل معه سوى حقيبة سفره وملابسه الداخلية وأربع صور لعشاقه المفضلين لوسيان وجين ديكارنين وعبد الله وجافا الذي طلب منه إرسال السلام إلى إبنته وتقبيلها نيابة عنه. وبعد أن حل المعشوق الجديد جاكي محل عبد الله كلف جينيه عبد الله بالقيام على خدمة جاكي فتألم من ذلك وتأفف. وتاقت نفس عبد الله إلى الحصول على جواز سفر سليم يمكنه من السفر إلى حيث يشاء، فلجأ إلى محام يدعى جاك فيرج الذي اضطر إلى السفر إلى المغرب والعيش فيها بعض الوقت بسبب توقيعه على البيان الذي يشجب الحرب الفرنسية ضد الجزائر. واستطاع هذا الرجل أن يساعد عبد الله لدى السلطات المغربية للحصول على جواز سفر مغربي فسافر عبد الله إلى الدار البيضاء حيث حاول الإنتحار. وباع جينيه البورتريه الذي رسمه الفنان جياكوميتي له وأعطى عائده إلى عبد الله كي يسافر في رحلة يجوب فيها أرجاء العالم. وبعد عودة عبد الله من الصين إلى أوروبا أراد استرجاع جواز سفره الفرنسي المصادر. وطلب جينيه من صديق مشترك ترتيب عشاء مع جورج بومبيدو والتوسط لدى المسئولين في وزارة الداخلية الفرنسية لاسترجاع جواز سفر عبد الله. ورغم المساعدات المالية الكبيرة التي قدمها جينيه لعبد

الله فإنه بات من الواضح أن عبد الله لم يعد حلم حياته كما كان في الماضي.

وطرأ على جينيه في تلك الفترة شيء من التغيير فبعد أن كان يتشكك فيما مضى في قيمة إنتاجه الأدبي أصبح واثقاً وثوقاً غير عادي من نفسه ومن قيمة ما يسطره يراعه. حتى كراهيته المشبوبة لفرنسا بدأت تضعف. وأصبح عشيقه الجديد جاكي قرة عينه يصحبه في غدواته وروحاته وفي مبارياته لسباق السيارات في أنجلترا وإيطاليا وبلجيكا وألمانيا. والذي راق له أن جاكي في كل مرة يدخل فيها سباقاً وضع حياته على كفيه. ورغم أن عبد الله أدرك أنه لم يعد شخصاً مرغوباً فيه فقد ظل تابعاً لجينيه كالكلب الأمين. وتدهورت علاقة عبد الله مع عشيقته إريكا فاختفت من حياته. واستأجر جينيه لعبد الله حجرة في بيت راقصة إسمها ناتالي فيلبارت ولكن من النادر أن زاره جيينه فيها. فضلاً عن أنه كان في أغلب الأحيان ينسى دفع إيجارها. ولولا كرم صاحبة الغرفة وأريحيتها لما وجد عبد الله مكاناً يأوي إليه ويهجع فيه.

وفجأة فقد عبد الله رغبته في الحياة وفكر أن يضع حداً لها من طريق مخدر النمبوثال الذي أدمن جينيه تعاطيه. ولأن هذا المخدر كان محظوراً بيعه دون روشتة طبيب، قرر عبد الله السفر إلى إسبانيا حيث كان بيع هذا المخدر مباحاً بغية شراء كمية تكفي لقتله. غير أن كمساري القطار نسي أن يخرم تذكرة الأياب فاعتبر هذا فالاً حسناً وتخلى موقتاً عن فكرة الانتحار وعاد إلى باريس. وفي فرنسا ألم به مرض إلى حد جعله يهدد بقتل نفسه إذا لم يشف من مرضه. وفي ٢٧ فبراير ١٩٦٤ توجه عبد الله إلى الناشر جاليمار وأدعى أن جينيه أرسله لإحضار كمية من مخدر النمبوثال لإستخدامه الشخصي. كان عبد الله في حالة من البؤس يرثى لها فدخل حجرته وتناول المخدر ومزق شرايين معصميه فانهمرت الدماء وسالت على الأرض ولطخت كتب جينيه الملقاة عليها. ولم تكتشف جثته إلا يوم ١٢ مارس/آذار ١٩٦٤ بسبب تصاعد الروائح النتنة منها.

كانت فجيعة جينيه في موت عبد الله مروعة فبدا على وجهه الإمتقاع كما بدا أكبر من سنه بعشرة أعوام على الأقل. ذهب إلى المشرحة ليلقي نظرة وداع على عشيقه القديم فهاله السواد الذي اكتسى به جلد عبد الله نتيجة المخدر. وفي ٢٠ مارس/آذار ١٩٦٤ دفن هذا الشاب في جبانة المسلمين خارج باريس التي لم يطق جينيه البقاء فيها. فسافر في ٩ أبريل/نيسان ١٩٦٤ إلى ميلانو حيث تحدث بالتليفون من هناك إلى بعض أصدقائه في باريس ليخبرهم أنه أقسم ألا يعود إلى الكتابة بعد اليوم وأنه قام بتمزيق كل ما لديه من مخطوطات وقذف بها في دورة المياه. وحضر الجنازة لاعب السيرك أحمد الحسين ولكنه فعل ذلك سراً ووقف بعيداً عن جمهور المشيعين. وفي ٢٤ أغسطس/آب من العام نفسه كتب جينيه فأوصى

إلى أحمد الحسين صديق عبد الله الحميم بكل حقوقه الأدبية والسينمائية والمسرحية. وخشي أصدقاء جينيه أن يقوم بقتل نفسه. غير أن سارتر قال في هذا الصدد إن جينيه لم يشعر بالندم بسبب ما كابده من حزن ولكن بسبب عجزه عن الشعور بالحزن لوفاة عبد الله. وأيضاً تشاجر جينيه مع عشيقه الجديد جاكي وحدثت قطيعة بينهما لفترة من الزمن كما أنه أنحى بالملامة على جافا لأنه قصّر في خدمة عبد الله وتوفير أسباب الراحة له. وظل جينيه يدفع إيجار قبر عبد الله لمدة إثنتين وعشرين سنة. ولكنه كعادته نسي أن يستمر في الدفع فقام المسئولون عن الجبانة بجمع عظامه ودفنها في مقبرة الفقراء.

الملحد يصلي:

عندما أقلع جينيه عن الكتابة بعد وفاة عبد الله عام ١٩٦٤ حاول واحد من أصدقائه أن يعيد إليه الإهتمام بالكتابة فوضع القلم في يده لعله يتشجع فيبدأ في الكتابة فإذا بمؤلفنا يقذف القلم إلى الجانب الآخر من الحجرة وغضب من صديقه لدرجة أنه امتنع عن تبادل الحديث معه لمدة عامين كاملين. تعرف جينيه على سيدة شديدة الإعجاب به إسمها بول توفينين من طريق مارك باربزات فسهرت على راحته ولم تتوان في خدمته فكان يستدعيها في الأوقات غير المناسبة مثل الفجر ومنتصف الليل كلما شعر بالتعب. وفي تلك الفترة لم يسمح مؤلفنا لأي أحد من أصحابه ومعارفه من تدنيس قداسة عبد الله بذكر إسمه على لسانه. وفي فترة السبعينات راجت كتاباته في الولايات المتحدة فاشترى بعض الناشرين الأمريكان حق نشر كل رواية من رواياته بخمسين ألف دولار فضلاً عن أن مؤلفاته ذاعت بين الإنجليز. إما مسرحياته فقد جعلت منه نجماً دولياً في فترة السبعينات على قدم المساواة مع يونسكو وجين أنوي وصاموئيل بيكيت وهارولد بنتر. وفي أوائل الستينات اعترض كثير من الفرنسيين على تقديم مسرحية «السواتر» على خشبة المسرح بسبب موضوعها الشائك الذي يتناول استقلال الجزائر عن فرنسا. ولكن هذا لم يمنع من تمثيلها في الخارج في كل من برلين عام ١٩٦١ وفيينا عام ١٩٦٣ ولندن وستوكهولم ١٩٦٤. وبات من الواضح أن تمثيلها في باريس أصبح وشيكاً.

وفي ١٨ يوليه/تموز ١٩٦٥ اشترك العشيق الجديد جاكي في مسابقة للسيارات بالقرب من شتوتجارت بألمانيا فأصيب إصابة بالغة. وهرع جينيه إلى موقع الحادث. ونقل المصاب إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية والغريب أن الأطباء سمحوا لجينيه أن يدخل حجرة العمليات لابساً قناعاً أبيض. والأغرب من هذا أنه شوهد على غير عادته وهو يبتهل إلى الله كي ينقذ حياة عشيقه من الموت. ورغم نجاح العملية الجراحية فإنها أسفرت عن إصابة ذراع جاكي الأيمن بالشلل، الأمر الذي اضطره إلى التخلي عن الإشتراك في أي سباق للسيارات. ولكن هذا لم

يمنعه من السفر من فرنسا إلى آسيا في سيارة سبورت. وغمر جينيه إحساس بالقتامة وبأنه شؤم على أصحابه فقد مات عبد الله في مارس/آذار ١٩٦٤ ثم أصيب جاكي إصابة بالغة في يوليو ١٩٦٥. ولهذا حاول جينيه أن يضع حداً لحياته في مايو/أيار ١٩٦٧. وفي عام ١٩٦٥ تقدم مؤلفنا بطلب تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن القنصلية الأمريكية في فرنسا اعترضت على إعطائه التأشيرة بسبب سجله اللواطي الشائن وانتشار إشاعة عن عضويته بالحزب الشيوعي. واحتار جينيه في أمر أمريكا التي رفضت دخوله إلى أراضيها في حين أنها تحمست لتمثيل مسرحياته ونشر كتبه. وفي تلك الفترة أيضاً تدهورت علاقته بفريتشمان مترجمه الأمريكي. فبات يرميه بعدم الأمانة في تعاملاته المالية بوصفه وكيلاً عن أعماله في البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية. وحدثت القطيعة بين الرجلين في خريف عام ١٩٦٥.

نجاح مسرحية «السواتر» يثير الشغب:

وبمجيء ربيع ١٩٦٦ قدمت مسرحية «السواتر» على خشبة المسرح في باريس فكانت سبباً في إثارة ملاحاة عنيفة وجدال شديد. فالمسرحية لا تخفي كراهيتها المشبوبة لفرنسا. ويجدر بالذكر قبل أن نعرض للمشاكل التي خلقتها هذه المسرحية أن نشير إلى إفراط جينيه في تناول المخدرات. ففي إحدى زياراته المتكررة لإنجلترا أثناء وجوده بالفندق أكثر من تناول مخدر النموتال فاستغرق في سبات أشبه ما يكون بالموت فلم يحس بلسعة المكيف الحارقة وهي تحرق جزءاً من قدمه وتترك فجوة فيها. فلما استيقظ من نومه تعذر عليه المشي الأمر الذي جعله يحجل في مشيته وهو يستند إلى عصا.

أثارت مسرحية «السواتر» سخط اليمين الفرنسي. وبالذات أثار مشهد في المسرحية اشمئزاز كثير من الفرنسيين وجرح كبرياءهم وعزتهم القومية فقد صوّر المؤلف ضابطاً فرنسياً ميتاً تحييه ضرطات جنوده في حين أظهر عطفاً واضحاً على الثوار العرب. ولهذا اندلعت في مسرح الأوديون أحداث العنف والشغب التي تفجرت في ٣٠ أبريل/نيسان و١ مايو/أيار ١٩٦٦. فقد هجم جمع من الغاضبين على الممثلين وألقوا بالزجاجات والقنابل الحارقة على كراسي المسرح وشرفاته. وحدث هرج ومرج. بل إن بعض طلبة الكلية العسكرية الفرنسية قاموا بالإستيلاء على خشبة المسرح أثناء منظر الضراط وتعاركوا مع الممثلين وتشابكوا بالأيادي معهم. الأمر الذي أدى إلى إلقاء القبض على ما لا يقل عن ستة عشر شخصاً. وقد استمرت أحداث الشغب في الإندلاع في كل ليلة من ليالي العرض. واضطر المخرج في كثير من الأحيان إلى مناشدة الثائرين بإسم الحرية أن يخلدوا إلى الهدوء والتزام السكينة ومغادرة المسرح إذا كان العرض لا يروق لهم. باختصار تحولت العروض المسرحية إلى مظاهرات سياسية بين مؤيد لإستقلال الجزائر

ومعارض لهذا الإستقلال. وتجمع حشد من الشبان المعارضين للمسرحية ليهتفوا بسقوط اللواطي جان جينيه. وفي المقابل اجتمع المتظاهرون اليساريون ليهتفوا بسقوط الفاشية منادين بأن أيامها ولت وانقضت، وأرادت إدارة المسرح تهدئة ثائرة المعترضين فمثلت مشهد الضراط بعيداً عن النظارة. وفي مجلس النواب اعترض النائب المحافظ كريستيان بونيه الذي أصبح فيما بعد وزيراً للداخلية في وزارة جيسكار ديستان على الدعم الذي تقدمه الدولة لهذا المسرح الهازىء بالكرامة الفرنسية. وتولى مجلس النواب مناقشة هذا الموضوع في ٢٦ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٦ وطالب كريستيان بونيه بإلغاء الدعم فتصدى له أندريه ماليرو رغم أن المسرحية لم تكن تروق له. وذلك لأنه كان يعارض كل أشكال القمع. وأمام هذا الإحتجاج العنيف على مسرحية «السواتر» رأى جينيه أن الحكمة تقتضي منه منع إعادة تمثيلها حتى عام ١٩٨٣ علماً بأنه أجل نشرها حتى عام ١٩٧٥.

لم يبال جينيه بكل ما حققته مسرحياته من نجاح باهر. ولم يستطع نجاحه في مسرحية «السواتر» أن يبدد الإكتئاب الذي أصابه بسبب انتحار عبد الله. وفي ربيع ١٩٦٧ أمضى وقتاً طويلاً في سويسرا التي رأى أن الحياة فيها تغري المرء بالإنتحار. وهناك كتب في ١٧ أبريل/نيسان ١٩٦٧ وصية جديدة أوصى فيها بعدم إعادة تقديم مسرحياته على خشبة المسرح قبل عام ١٩٩٧. فضلاً عن عدم نشرها في المستقبل القريب. وأيضاً أوصى بأن تؤول ثروته إلى جاكي ماجليا. وكان جاكي قد طلق زوجته الأولى جاكلين وتزوج بإمرأة يابانية ونزح ليعيش معها في اليابان. وفجأة اختفى جينيه من الفندق الذي ينزل فيه في سويسرا دون أن يدفع نفقاته. ودام اختفاؤه لمدة ثلاثة أسابيع دون أن يعرف أحد أين ذهب حتى اكتشف الملحق الثقافي الفرنسي أنه يرقد فاقد الوعي في إحدى المستشفيات بسبب تناوله كميات كبيرة من أقراص النوم المخدرة في محاولة من جانبه لوضع حد لحياته. ولما نما هذا الخبر إلى مسمع جاكي ماجليا وبول نيفينين هرعا إليه ليقفا بجانبه في محنته.

وبعد أن استعاد جينيه وعيه وتحسنت صحته قفل جاكي راجعاً إلى اليابان ولكن ما لبث أن عاد إلى فرنسا لرعاية صحة جينيه. فقد أذاعت وسائل الاعلام العالمية أن أديبنا سقط فريسة المهدئات والخمور. وتؤكد بول ثيفينين أن محاولة الإنتحار في إيطاليا سبقتها محاولة أخرى مماثلة في بلجيكا لا يعرف العالم عنها شيئاً لأن أخبارها ظلت في طي الكتمان. وعند تقديم مسرحية «السواتر» في مدينة إسن بألمانيا حدث هرج ومرج بين الجمهور بسبب كثرة المناظر المثيرة للإشمئزاز فيها. ففي يوم الإفتتاح قبل النظارة على مضض منظر الضابط الفرنسي الذي يشيعه جنوده بالضراط. ولكنهم لم يقبلوا منظر الضابط وهو يتبرز أثناء احتضاره. ولهذا خرج

معظم الجمهور معبراً عن احتجاجه على هذه البذاءات، الأمر الذي اضطر مدير المسرح إلى حذف الفقرات المثيرة للإشمئزاز من المسرحية.

رغم أن جينيه لم يسعى إلى اكتساب صداقة ذلك الصنف من الرجال الذي يرتدي ثياب النساء ويتزين بزينتهن فإنه أظهر إعجاباً به. ففي اليونان تعرف على رجل من هذا الصنف يدعى بيتي. فلما ألقى البوليس اليوناني القبض على هذا المخنث في أثينا بادر جينيه إلى شن حملة في باريس مطالباً بالإفراج عنه. كان من عادته أن يتنقل في أسفاره حاملاً معه المبالغ الطائلة التي حصل عليها من تمثيل مسرحياته. وكان من عادته أن يحشو بها جيوب بنطلونه. وحدث في هامبورغ بألمانيا أنه تعرض لهجوم بعض اللصوص عليه فجردوه من ماله. ولم يتضايق مؤلفنا من وقوع هذا الحادث له فقد كان فيما مضى يفعل الشيء نفسه-مع ضحاياه. ورغم أن جينيه توقف عن كتابة أي شيء ذي بال في الفترة من ١٩٦١ حتى ١٩٨٤ وأن دخله أخذ يقل بشكل واضح فإن دار النشر جاليمار لم تمتنع أبداً عن إمداده بالمال كلما طلب منها جينيه ذلك. وكعادته أسرف مؤلفنا في إنفاق مالديه من مال فكان يقدم المساعدات لعدد من الأسر التي كونها فضلاً عن مساعداته المنظمة إلى أحمد صديق عبد الله وزميله في السيرك. وظل وفياً لجاكي الذي انخرط مع زوجته في السياسة الراديكالية في اليابان لدرجة أنهما عاشا سوياً على نفقته.

وفي ٢٢ ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٦٧ سافر جينيه في رحلة طويلة إلى كل من الهند واليابان. وكانت هذه الزيارة ـ كما يقول في كتابه «سجن الحب» سبباً في نبذه الكامل للأخلاق القائمة على الدينين اليهودي والمسيحي. وفي رحلة العودة إلى أوروبا عام ١٩٦٨ توقف في الهند وباكستان وتايلاند ومصر. كما أنه مكث في طنجة بالمغرب خلال فصل الربيع. وازدهرت هذه المدينة ازدهاراً اقتصادياً فائقاً بسبب تقاطر الأوروبيين عليها كي يفعلوا ما يحلو لهم وما تهفو إليه نفوسهم من عربدة واستغراق في الشذوذ والمخدرات. فضلاً عن أن دفأها أغرى الكثيرين من الكتاب الأمريكان بزيارتها مثل تنيسى وليامز وترومان كابوت وجور فيدال فضلاً عن كتاب البيتس الأمريكان أمثال جاك كرواك وألن جنسبرج. غير أن جينيه بصفة عامة تحاشى صحبة الأوروبيين مفضلاً عليها صحبة المغاربة. ورغم ملبسه الزري الشبيه بملبس الشحاذين فإنه لم يبخل بماله على المعوزين والمحتاجين المراكشيين. وكان يتصرف بطريقة غريبة في الفندق الذي نزل فيه فهو يداعب الخدم باللغة العربية ولا يجد غضاضة في أن يخرج من حجرته خالعاً حذاءه ولابساً شراباً ليطلب منهم إمداده بالسجائر أو بقربة ماء ساخن في حين أنه كان في استطاعته استدعاء الخدم لخدمته. وبطبيعة الحال لم تخل حياته في المغرب من ممارساته اللواطية الشاذة أو بالإستمتاع بمنظر بعض الشبان المغاربة وهم يمارسون اللواط. ثم سافر

جينيه إلى تونس فلم ترق له. والجدير بالذكر أن عاملاً في الفندق التونسي أطلعه على ترجمة عربية لبعض من باكورة قصائده المهداة إلى فتح (منظمة التحرير الفلسطينية) المنشورة والمتداولة سراً. ولم يخف عليه كثرة المتطوعين في صفوف المقاومة الفلسطينية من شمال أفريقيا.

اهتمامه بالسياسة ودفاعه عن السود:

وفي مايو/أيار ١٩٦٨ اندلعت في العاصمة الفرنسية مظاهرات الطلبة المعروفة ونادت بالإطاحة بالنظام القائم. وعاد جينيه إلى باريس في هذه اللحظة الحرجة من تاريخ فرنسا. وفي ١٣ مايو/أيار من هذا العام زحف على باريس أكثر من مليون طالب وعامل جاءوا لإظهار التضامن مع الطلبة المتظاهرين. واجتاح الطلبة جامعة السوربون العريقة وأعلنوا أنها أصبحت الآن «جامعة حرة» يرتادها الطلبة وغير الطلبة على حد سواء. واشتط بعض المتظاهرين فنادوا بحرية ممارسة اللواط. ودعا الطلبة أديبنا لتأييد الطلبة في ثورتهم. وفي فناء الجامعة وقعت أنظاره على كشك يديره الفلسطينيون للدعاية عن القضية الفلسطينية. وتجمع نحو أربعة آلاف طالب في مظاهرة اجتاحت مسرح الأوديون واستولت عليه. فقام جينيه بزيارة هذا المسرح مرتين. وتمثل مظاهرات الطلبة في باريس عام ١٩٦٨ نقطة تحول في حياته فمنذ ذلك الوقت وهو يولي النشاط السياسي جل اهتمامه بعد أن كان لا يحفل به كثيراً أثناء الحرب العالمية الثانية. وبلغ حياده السياسي السابق درجة جعلته يتخذ جندياً من جنود الإحتلال النازي لفرنسا عاشقاً له تماماً كما اتخذ أحد أعضاء المقاومة الفرنسية ضد هذا الإحتلال عاشقاً له.

ولكن مظاهرات الطلبة في فرنسا فشلت في زحزحة حكومة ديجول. وفي عام ١٩٦٨ نفسه اندلعت مظاهرات طلابية مماثلة في أمريكا الشمالية فحظيت باهتمامه البالغ ورأى فيها تجديداً لحياته. ففي فترة انعقاد مؤتمر الحزب الديموقراطي في شيكاغو من ٢٤ إلى ٢٨ أغسطس/آب نشبت حركة طلابية تعارض تدخل أمريكا العسكري خارج حدودها فلم يتردد جينيه في مؤازرتها. ولبى على الفور دعوة مجلة سكواير له لحضور المؤتمر الديموقراطي المنعقد عام ١٩٦٨ والإسهام بمقال في هذه المجلة يندد بالتدخل الأمريكي في فيتنام. وبالنظر إلى أن السلطات الأمريكية سبق لها أن رفضت إعطاءه تأشيرة دخول لأمريكا فلم يكن هناك مفر من تسلله إلى أمريكا عبر كندا. وراقت له هذه المغامرة. وقبلت مجلة سكواير وإحدى دور النشر الأميركية أن يتحملا نفقات هذه الرحلة. وبالفعل سافر جينيه إلى مونتريال في كندا ليقله شاب في سيارته داخل الحدود الأمريكية. وعندما وصل مؤلفنا إلى مكتب مجلة سكواير طلب جينيه مبلغاً إضافياً من الأتعاب غير المتفق عليها مما أثار غضب رئيس التحرير الذي انفجر في وجهه قائلاً: «ولكنك لص» فأجاب جينيه: «ليست هناك ثمة غرابة في هذا». فاضطر الرجل إلى

الرضوخ إليه. وفي أمريكا تولى مرافقته في تجواله مثقف يدعى ريتشارد سيتر وجد فيه جينيه جاذبية جنسية. غير أن هذا الشاب كان طبيعياً وسوياً في ممارساته الجنسية. فضلاً عن أنه كان متزوجاً من سيدة ذات ثقافة فرنسية تدعى جانيت قامت بالترجمة الإنجليزية لخطبه وأقواله. وبلغت جسارة جينيه حداً جعله يقول لهذه السيدة عن زوجها: «كنت أتمنى لو أنه لم يكن طبيعياً في علاقته الجنسية ولو أنك لم تكوني زوجته».

وأعجب جان جينيه على وجه الخصوص بشاعر البيتس اللواطي ألن جنسبرج. وفي إحدى الليالي دعا هذا الشاعر جينيه إلى غرفته حيث جمعهما فراش واحد وكادا أن يمارسا اللواط سوياً لولا أن انتصاب جنسبرج لم يكن كاملاً. لقد وجد جيل البيتس الأمريكي في مؤلفنا أديباً عظيماً وشاعراً فحلاً. وراق لهم تناوله للإغتراب والجريمة والسجن. واعترف أحدهم وهو كيرواك أنه تأثر في كتاباته بأسلوب فريتشمان في ترجمة أعمال جينيه. ومن ناحيته تأثر جينيه في قصائده بشعر كيرواك وخاصة قصيدته «الرجل المحكوم عليه بالإعدام». وشارك جينيه احتقار جيل البيتس للمال وزرايتهم به لدرجة القيام بحرقه. ولم يبخل مؤلفنا بنفح بعضهم مبالغ من المال يقيمون به الحفلات ويفرجون به عما بأنفسهم. وكثيراً ما كان جينيه يشترك في المظاهرات الطلابية دون الكشف عن هويته. وعندما اكتشفوا هويته استغربوا وجوده بينهم وفي مظاهرة اشترك فيها جينيه شن البوليس هجوماً على المتظاهرين بالهراوات والعصي والغاز المسيل للدموع. وأمام هذا الهجوم الشرس شعر برندت مرافق جينيه بالخوف فهدأ جينيه من روعه. واضطر مؤلفنا إلى الإختباء في أحد المباني ولكن رجل البوليس لحق به ورفع عصاه الغليظة ليهوي بها على رأسه. حينئذٍ تدخل زميله برندت وصاح في رجل الشرطة ألا يضرب رجلاً متقدماً في السن. ولا غرو فقد غدا أديبنا شيخاً أصلع الرأس في أواخر العقد الخامس من عمره. ومن المصادفات الغريبة أن يطرق جينيه باب شقة ليحتمي فيها فيتضح له أن صاحبها طالب علم يجري بحثاً في أدبه.

ثم تكررت القصة نفسها في اليوم التالي. ففي إحدى المظاهرات قرأ جينيه على المتظاهرين احتجاجه المكتوب الذي وصف فيه البوليس الأمريكي بالكلاب المسعورة التي تهاجم دعاة السلام من البيض بالضراوة نفسها التي تهاجم بها السود. ومرة أخرى داهمت الشرطة الجمع الذي تراجع وتقهقر واضطر جينيه إلى الإحتماء بالغرفة التي استأجرها جنسبرج في فندق يقع على الجانب الآخر من الشارع. غير أن جينيه أسخط عليه اليسار الأمريكي عندما نشر مقاله عن مظاهرات شيكاغو بعنوان «أعضاء الجمعية» فبدلاً من أن يندد بوحشية البوليس عبر عن إعجابه بأفخاذهم. ولهذا خاب أمل المعجبين به من الأمريكان وشكوا في أنه يميل إلى الفاشية.

وغادر جينيه شيكاغو ليسافر إلى طنجة في بلاد المغرب حيث ارتاع عارفوه من كمية الحبوب المخدرة التي يبتلعها واعتقدوا أنه هالك لا محالة إذا لم يدخل إحدى المصحات للعلاج. ويلاحظ أن علاقته بالفلسطينيين والكتاب العرب كانت طيبة وودية للغاية. ففي ١٨ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٨ تعرف على الكاتب العربي محمد شكري فارتاح إليه وأهداه نسخة من مسرحية «الشرفة» باللغتين الفرنسية والعربية التي ألم بشيء منها. وكثيراً ما تجاذب الإثنان أطراف الحديث. وعندما عبر محمد شكري في حضرته عن اعجابه بألبرت كامو وكتابه «الطاعون» لم يخف جينيه امتعاضه وقال قادحاً في كامو أنه لا يحب كتاباته أو شخصيته وأنه عاجز عن التعامل معه. وعاب عليه أن شعوره يطغى على تفكيره.

وأظهر جينيه تعاطفاً متزايداً مع المهاجرين إلى فرنسا من الجزائر والمغرب وسائر الدول الفقيرة. واشترك في عدة مظاهرات للدفاع عن حقوق هؤلاء المظاليم. وأيضاً انبرى جينيه للدفاع عن جماعة من الطلبة المغاربة الذين ألقت السلطات المغربية القبض عليهم بسبب آرائهم الثورية. وفي نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٦٩ طار مؤلفنا مرة أخرى إلى اليابان لينخرط في خضم السياسة الراديكالية هناك ويحتج على الإستعمار الأميركي لأوكيناوة التي أعادها نيكسون عام ١٩٧٢ إلى السيادة اليابانية. وأبدى مؤلفنا شديد إعجابه بالثقافة اليابانية التي تختلف تماماً عن الحضارتين اليهودية والمسيحية. ولكن يمكن القول إن عطفه تركز على من لا مأوى لهم وعلى رأسهم الفلسطينيون. وفي ١٠ يناير/كانون الثاني ١٩٧٠ اشترك مع مع الكاتبة مرجريت دورا في مظاهرة احتجاج عنيفة بسبب مصرع أربعة مهاجرين أفارقة ومهاجر موريتاني. وبلغ البؤس بهؤلاء المهاجرين أنهم شعروا بلسعة البرد القارص فأوقدوا في غرفتهم البائسة ناراً في صندوق قمامة يحتمون بها من غائلة الموت. فإذ بهم يموتون مختنقين بالدخان. وهزت هذه الحادثة ضمير المثقفين الفرنسيين فذهب سارتر إلى المشرحة وألقى كلمة أدان فيها الظلم الفادح الواقع على المهاجرين البؤساء في فرنسا. ومن ناحيته قام جيينه ومرجريت دورا مع نحو ثلثمائة متظاهر بالإستيلاء على مكاتب المسئولين عن الإسكان. فهرع البوليس الفرنسي إليهم وضربوا جينيه بهراوة أسقطته من فوق الدرج. وادعى البوليس أنه وقع من تلقاء نفسه لأنه لم يرَ الدرج أسفل قدميه. وألقي القبض على أكثر من مائة متظاهر. وقد بلغ استغلال أصحاب البوت للمهاجرين الغلابة حداً جعلهم يؤجرون الحجرات الضيقة بأبهظ الأسعار لينام ستة عشر شخصاً في كل منها. وفي ٢٣ فبراير/شباط ١٩٧٠ ألقى جينيه خطاباً بهذه المناسبة جاء فيه أن أصحاب المساكن الفرنسيين لايعبأون بموت الأفارقة لأنهم في نظرهم عبيد إستجلبوا للعمل في المناجم والمصانع وإنتاج السيارات السيتروين والسيمكا.

وفي ٢٥ فبراير/شباط ١٩٧٠ جاء لمقابلته إثنان من ممثلي الحركة السوداء المعروفة بحركة

الفهود (البانثار) وهي حركة زنجية تحتج بعنف على المعاملة السيئة التي يلقاها الزنوج على أيدي الأمريكان البيض. وفي ٢ أبريل/نيسان ١٩٦٩ ألقى البوليس القبض على واحد وعشرين فهداً في مدينة نيويورك وبدأت محاكمتهم في فبراير/شباط ١٩٧٠ بتهمة التآمر لنسف المتاجر والمباني العامة. علماً بأن البيض قتلوا ثمانية وعشرين فهداً في العامين السابقين. وطلب ممثلا الفهود من جينيه تأييد حركتهم ضد طغيان الرجل الأبيض فاقترح الذهاب بنفسه إلى موقع الأحداث في أمريكا. واندهش الفهود لهذا العرض فقد كان أقصى ما يتوقعون منه تأييده لهم وهو في باريس. وسألوه عن الوقت الذي يناسبه للسفر إلى أمريكا فأدهشهم أكثر وأكثر عندما حدده بقوله «غداً». فوعدوه بالمرور عليه في اليوم التالي لاصطحابه إلى أمريكا. وتتبعت أجهزة المخابرات الأمريكية لقاء جينيه مع الفهود وعزمه على السفر إلى أمريكا للدفاع عن بوبي سيل زعيم حركة الفهود المسجون. ونما إلى علم مكتب التحقيقات الفيدرالي أنه يزمع دخول أمريكا من طريق كندا. واتهمه التقرير المرفوع إلى هذا المكتب بأنه شيوعي تروتسكي وهي تهمة عارية عن الصحة. والذي لا شك فيه أن الذي أثار عطفه الشديد على حركة الفهود أنه تمثل اضطهاد المجتمع الفرنسي له في اضطهاد المجتمع الأمريكي لهؤلاء الزنوج.

كان جينيه يعاني الإكتئاب النفسي عندما عبّر عن تعاطفه مع المقاومة الفلسطينية وحركة الفهود الأمريكية. وجاء هذا في المرحلة التي توقف فيها عن التأليف والكتابة. يقول جينيه في هذا الشأن إن الناس يخطئون حين يعتقدون أنه ساعد الفلسطينيين فهم الذين ساعدوه على الخروج من اكتئابه. وراق له في حركة الفهود أنها لم تكن حركة بورجوازية بل كانت من أرباب السوابق الذين علموا أنفسهم بأنفسهم مثلما فعل هو في بداية حياته.

ومرة ثانية واجه جينيه مشكلة دخول الأراضي الأمريكية. فالسلطات الأمريكية لا تزال ترفض إعطاءه تأشيرة دخول بسبب سمعته اللواطية والإجرامية والإشتباه في كونه شيوعياً. ولهذا سافر مع جاكي ماجليا وإثنين من الفهود إلى مونتريال بكندا في ١ مارس/آذار ١٩٧٠ حيث قدم طلباً جديداً للحصول على تأشيرة دخول لأمريكا. غير أن السلطات الأمريكية رفضت طلبه حتى كندا نفسها رفضت في بادىء الأمر أن تعطيه تأشيرة دخول إليها لولا أنه أكد لها أنه مجرد مسافر ترانزيت في طريقه إلى الولايات المتحدة الأمريكية. واستقل جينيه وجاكي سيارة أوصلتهما إلى الحدود الأمريكية. هناك لعبا لعبة على الحرس على هذه الحدود. فقد ظلا يهزران معه ويغيظانه لعدم إلمامه باللغة الفرنسية. وانصرف انتباه الحارس إلى الدفاع عن نفسه والرد على هزرهما فقام بختم جواز سفر جاكي. وأعطى جاكي جواز سفره خلسة إلى جينيه فقدمه على أنه جوازه. وانطلت هذه الحيلة على الحارس فقام بختم جواز السفر للمرة الثانية دون أن يدرك ما وقع فيه من خطأ.

وعندما قابل فهود أمريكا أحبهم لأنهم تعساء ومظاليم كما أنهم أحبوه لشدة تواضعه وبساطته وأمانته. وتمكن من البقاء في أمريكا عام ١٩٧٠ لمدة شهرين ألقى في خلالهما محاضرات في نحو خمس عشرة جامعة. وأطلق جينيه مناشدات للمسئولين لإطلاق سراح زعيم الفهود بوبي سيل الذي قبضت السلطات عليه في أغسطس/آب ١٩٦٩ ومعه سبعة من الفهود البارزين بتهمة إثارة الشغب في شيكاغو. وفي أثناء محاكمته تجرأ بوبي سيل على القاضي يوليوس هوفمان فوصفه بأنه «خنزير فاشستي» لا يملك الكفاءة المطلوبة للنظر في قضيته. فأمر القاضي بتكبيله وتكميم فمه طوال فترة مثوله أمام المحكمة الأمر الذي زاد من غضب جماعة الفهود وأتباعهم. وحكم عليه القاضي بأربع سنوات سجن بسبب إتيانه بستة عشر فعلاً تنطوي على احتقار المحكمة. وإمعاناً في التنغيص عليه تقرر إعادة تقديمه إلى المحاكمة في ٢٣ أبريل/نيسان بتهمة اختطاف وقتل بعض العناصر السوداء التي يشتبه في تعاونها مع مكتب التحقيقات الفيدرالي. وهي تهمة أثبت التحقيق في ٢٥ مايو/أيار ١٩٧١ براءته منها.

وفي خلال الأيام الخمسة التي أمضاها جينيه مع جماعة النمور ألقى فيهم ثلاثة خطب إثنتان في بيل والثالثة في كامبردج في ولاية ماساشوتس. ولاحظ جينيه أن الحاضرين جاءوا من أجل شهرته كأديب في جميع أرجاء المعمورة. وذكر لهم أنه لم يأت للحديث عن أدبه. ثم إن العالم من حوله تغير. ففرنسا التي كان يحمل لها شديد المقت لم تعد دولة الماضي القميء.

وفي ١٣ مارس/آذار ١٩٧٠ اشترك مؤلفنا في تجمع تولت تنظيمه المنظمات السوداء العنيفة في مدينة نيويورك. وفي يوم ١٨ مارس/آذار ألقى محاضرة في جامعة كونيكتيكوت قال فيها إنه من الغرابة بمكان أن يشجب الأحرار من الأمريكان البيض الإستيطان الإستعماري في جميع أنحاء العالم دون أن يتنبهوا إلى أن الأمريكي الأبيض يقيم مستعمرة من الزنوج في بلاده. وقد بدأ خطابه غريباً على أسماع الزنوج فهو لا يتحدث عن حركة السود الثورية ولكنه يتحدث عن رؤياهم الشعرية وأنهم يستمدون ثورتهم على الصعيد السياسي من هذه الرؤية الشعرية. وفي الأمسية التي نظمتها جامعة كونيكتيكوت قابل جينيه البالغ من العمر تسعة وستين عاماً شاباً من الفهود يدعى دافيد هيليارد فوقع في غرامه وأصبح من أقرب أصدقائه. وأراد جينيه أن يلوط به فرفض هيليارد بقوة وحزم وأفهمه بلطف أنه ليس من هذا الصنف من الرجال. وقبيل مغادرته الولايات المتحدة بكى جينيه لإعراض هيليارد وصدوده عنه. وذات ليلة ابتلع مؤلفنا كمية كبيرة من الأقراص المخدرة ولبس رداء نسائيا وأخذ يرقص لهيليارد وبعض زملائه من الفهود. وأثار هذا المنظر تقزز وغثيان المترجم الفرنسي الموجود هناك. وأغلب الظن أنها المرة الأولى التي تصرف فيها جينيه على هذا النحو. غير أنه لم يخف قط إعجابه بالرجال المخنثين الذين يرتدون ملابس النساء. تقول هيلين سيكوس المدافعة عن حقوق المرأة في هذا الشأن إن

جينيه الوحيد بين الكتاب والكاتبات المحدثين الذي يتسم بوعي نسائي حقيقي. ويقول جينيه إن الفهود السود سرعان ما اكتشفوا أنه لواطي ورغم ذلك فإنهم لم يتفوهوا أمامه بلفظ يجرح مشاعره بل إنهم عاملوه بمنتهى الرقة.

يذهب جينيه إلى أن هناك نوعين من شواذ الجنس: نوع يصرح بشذوذه بسبب رغبته في تحدي النظام العام والإصطدام به. غير أن النظام العام يلح في إستيعابه وتحويله إلى فرجة أو عجبة. ونوع آخر يمارس الشذوذ الجنسي دون أن يلفت إليه النظر ومن ثم يصبح جزء من النظام القائم وعاملاً على دعمه. ويعترف مؤلفنا أنه لم يسخّر أدبه قط للدفاع عن شواذ الجنس أو عن حقهم في حرية ممارسة الشذوذ كما أنه لم يسخّر كتاباته للدفاع عن أية قضية سياسية. فالذي حفزه إلى الكتابة في المقام الأول والأخير تذوقه للألفاظ ووضع النقط والفواصل بين الكلمات بل أيضاً تذوقه للعبارات. والرأي عنده أن الذي دافع عن الشذوذ الجنسي حقاً هو عالم النفس المعروف سجموند فرويد الذي نادى بإزدواجية الجنس عند الأولاد والبنات الصغار على حد سواء. ويبدو أن إفراطه في تناول المخدرات جعله لا يميز رأسه من رجليه. فقد استيقظ ذات مرة في الصباح الباكر ليجد نفسه في بيت من بيوت هوليود. فأراد الخروج واتصل تليفونياً بالممثلة جين فوندا وطلب منها الحضور حتى تخرجه من ذلك المكان فسألته عن عنوانه فأسقط في يده لأنه لم يدر عن مكان وجوده شيئاً. فقالت له جين فوندا ببساطة «أخرج إلى حمام السباحة لتصفه لي» فلما وصفه لها عرفت مكانه وذهبت إليه.

وفي أوكلاند بكاليفورنيا التي شاهدت مولد حركة الفهود السود قرر أصدقاء جينيه من أتباع هذه الحركة أن الملابس التي يرتديها جينيه مهلهلة ومزرية وغير لائقة فتطوع بائع ملابس أسود بإهدائه بنطلون جديد وجاكيت جلد، الأمر الذي أثلج صدر مؤلفنا. وفي ٢٧ أبريل/ نيسان ١٩٧٠ ألقى جينيه خطاباً في طلبة جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس إتهم فيه البوليس الأمريكي بالتفرقة العنصرية وكراهية السود. وتوج جينيه زيارته لأمريكا في جامعة ييل حيث ألقى خطاباً في أول مايو ١٩٧٠ في حشد بلغ تعداده ٢٥ ألف شخص دافع فيه عن زعيم الفهود بوبي سسيل. ونشر خطابه في كتيب صغير بعنوان «خطاب يوم مايو» بيع بدولار واحد لصالح حركة الفهود وقدم له الشاعر ألن جنسبرج. وعندما وصل جينيه إلى نيوهافن ليلقي فيها خطاباً وجد منظراً يشيب له شعر الرأس فقد اصطف البوليس المدجج بالسلاح في طوابير طويلة تأهباً للهجوم. وآثر السود المنظمون لهذا الإجتماع ألا يكشفوا عن إسم جينيه كمتحدث علماً منهم بأن دخوله إلى الأراضي الأمريكية كان بطريقة غير مشروعة.

وفي خطابه الذي ألقاه وهو محاط بالجنود المدججين بالسلاح قال جينيه إن محنة بوبي سسيل زعيم الفهود تشبه محنة اليهودي ألفريد درايفوس في فرنسا الذي اتهم ظلماً وعدواناً

بأنه جاسوس فتصدى الكاتب الكبير اميل زولا للدفاع عنه حتى استطاع في نهاية الأمر تبرئته من تهمته. وأضاف جينيه أن الفرق في الحالتين أن درايفوس وجد في البيض من يدافع عنه في حين أن بوبي سسيل لم يجد فيهم من يذود عنه. وأيضاً هاجم جينيه التدخل الأمريكي الإستعماري في كوريا وفيتنام ولاوس وكامبوديا.

ولم يمض يوم واحد على إلقائه محاضرة أول مايو/أيار حتى قامت إدارة الجوازات والهجرة الأمريكية باستدعائه. وكان قد حجز تذكرة لمغادرة أمريكا على خطوط الطيران البلجيكية سابينا فنصحه المقربون إليه أن يستقل الطائرة في آخر لحظة قبل إقلاعها حتى لا يدقق معه أحد. وبالفعل نجحت الخطة وإذ بمضيف بلجيكي يستحثه على الإسراع للحاق بالطائرة فلما دخل هذا المضيف الطائرة ارتاع عندما وجد جينيه جالساً في مقعده وصرخ قائلاً: «إنه جان جينيه». وعندما عاد جينيه إلى فرنسا نظم حملة دعائية لتنبيه الفرنسيين والعالم كله إلى محنة السود في أمريكا. وكرر إعجابه بحركة الفهود لأنها لا تعادي الأميركي الأبيض من الناحية العنصرية بل من منظور الفكر اليساري المتحرر. وعندما أجرت النوفيل أوبزرفاتور حديثاً صحفياً معه أنكر أنه «ثوري» وفضل أن يصنف نفسه بالمتشرد.

ثم سافر إلى البرازيل حيث كتب في ريو دي جنيرو مقدمة للرسائل التي كتبها جورج جاكسون في السجن وفيها دافع عن قضية شاب أسود في الثامنة عشر من عمره حكمت عليه المحاكم البرازيلية بعقوبة سجن في منتهى القسوة لأنه ساعد صديقاً لصاً على الهرب. وأيضاً تصدى جينيه للدفاع عن امرأة سوداء تدعى أنجيلا دافيز ألقى البوليس لأمريكي القبض عليها في مدينة نيويورك في ١٣ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٠.

ولم يكتف بالدفاع عنها بنفسه بل طلب من سارتر أن يدافع عنها أمام كاميرات التلفيزيون الفرنسي. وأيضاً ناشد جينيه الأديب الأمريكي الأسود جيمس بولدوين للدفاع عن جاكسون والمطالبة بالإفراج عنه. وحدث لقاء بين هذين الأديبين في المركز الأمريكي في باريس حيث قاما بالدفاع عن جورج جاكسون وحركة الفهود السود. ولكن تحمس جينيه لحركة الفهود السود فتر بعد أن تحولت هذه الحركة إلى عملية تبادل قتل. فالسود يقتلون البوليس الأبيض والبوليس الأبيض يرد عليهم بالمثل. وهكذا فقدت الحركة طابعها الثوري. فضلاً عن أن حركة الفهود دأبت على جمع المال من أنصارها من الأغنياء البيض والسود على حد سواء، وإنفاق هذا المال فيما لا طائل منه على أفعال مسرحية فارغة وعلى المحامين ورفع القضايا.

القضية الفلسطينية:

والآن ننتقل إلى مناقشة موضوع يهم القارىء العربي وهو موقف جينيه المتعاطف مع القضية

الفلسطينية. ولكن قبل معالجة هذا الأمر يجدر بنا الإشارة إلى أنه في أواخر عام ١٩٦٨ قابل جينيه في باريس أستاذاً للرياضيات والفيزياء من أصل يوناني إسمه بول روسو بولس فراق له تبادل الآراء معه بشأن موضوع شغل باله لدرجة أنه أفرد له آخر مؤلفاته. هذا الموضوع كان السبب المباشر في عدم إيمان جينيه بوجود الله وهو الدور الذي تلعبه الصدفة في الكون وإمكانية التوفيق بين وجود الصدفة ووجود الله.

ونحو عام ١٩٦٩ تعرف مؤلفنا على محمود الهمشري ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في باريس. وتوثقت عرى الصداقة بينهما فكان جينيه يزور الهمشري في بيته دون سابق ميعاد. تقول زوجة الهمشري - وهي امرأة فرنسية - إنه كان يحلو لجينيه مناقشة الأمور السياسية باستفاضة مع زوجها والتعبير عن استيائه مما آلت إليه حركة الفهود من تناحر واقتتال ومن الفساد الذي دب في هذه الحركة بسبب كثرة ما جمعته من المتبرعين من مال. كما ساءه سعي زعمائها إلى النجومية. وأحس لأول مرة بياسر عرفات ومنظمة الفتح أثناء وجوده في تونس عام ١٩٦٨ حيث وقعت أنظاره على قصائد مكتوبة بلغة عربية مزركشة ومهداة إلى الثورة الفلسطينية. وفي مايو ١٩٦٨ شاهد مؤلفنا الكشك الذي اقامته منظمة التحرير الفلسطينية في جامعة السوربون لتوزيع المنشورات. وشد انتباهه إلى القضية الفلسطينية أكثر وأكثر قيام الجبهة الشعبية (التي تمثل الجناح الماركسي في حركة المقاومة الفلسطينية) باختطاف الطائرات. وعند تقابل الهمشري مع جينيه تطلع الهمشري إلى تنبيه الرأي العام العالمي إلى محنة اللاجئين الفلسطينيين الذين ذكروا مؤلفنا بأيام التشرد. وهي محنة ازدادت تفاقماً بهزيمة العرب في يونيه/ حزيران ١٩٦٧، الأمر الذي اضطر كثيرين من الفلسطينيين إلى الإحتماء بمعسكرات اللاجئين. وزاد الطينة بلة ذلك الصدام الدامي الذي نشب بين عاهل الأردن الملك حسين وبين ياسر عرفات والفلسطينيين وهو صراع أدى إلى مقتل ما لا يقل عن ثلاثة آلاف فلسطيني وجرح خمسة عشر ألفاً من الفلسطينيين في عمان والزرقة وحدهما فيما يعرف بأحداث أيلول أو سبتمبر الأسود. وهي أحداث تابعها جينيه باهتمام بالغ من باريس وناقشها مع الهمشري. وأراد جينيه الإنضمام إلى المقاومة الفلسطينية على الفور. غير أنه أرجأ سفره إلى فلسطين ريثما ينتهي من الدفاع عن أنجيلا دافيز التي سبق الإشارة إليها. وأخيراً شد رحاله إلى الأرض الفلسطينية المحتلة بصحبة الهمشري حيث تم تهريبهما من طريق بيروت داخل الأردن. وهذه أول صلة يقيمها مؤلفنا مع المقاومة الفلسطينية. وهي صلة تناولها في كتابه «سجين الحب» فيما بعد. وفي بيروت أفرط في تناول الأقراص المخدرة بمجرد أن وطأت قدماه أرضها، ورغم أن المقربين نصحوه بالإحتفاظ بيقظته وتنبهه لأن الفلسطينيين قد يقومون بتهريبه إلى الأردن في سيارة إسعاف في أية لحظة. وغاب تحت تأثير المخدر عن وعيه فقام أستاذ الرياضيات والفيزياء بول روسو بولوس بإسناده تحت إبطه حتى وصل به إلى مكان سيارة الإسعاف التي أقلته إلى دمشق

ثم اتجهت به نحو الجنوب شطر الأردن. ولم يسترد وعيه إلا عند وصوله إلى مدينة عمان. والتحق جينيه بالخدمة في فرع للهلال الأحمر كان الفلسطينيون قد أقاموه حديثاً. وأسندت إليه مهمة فرز الأدوية المكتوب عليها باللغة الفرنسية التي تطوع بها المتعاطفون مع منظمة التحرير الفلسطينية. وكشاهد عيان لمحنة الفلسطينيين كتب جينيه إلى صديق له يقول إن الدمار الذي رآه بعين رأسه في عمان يفوق كل تصوراته. وأعد جينيه قائمة بالأدوية الناقصة التي يحتاج إليها الفلسطينيون المرضى والجرحى. وفي معسكرات اللاجئين تعرف على طبيب أسباني قرأ له يدعى ألفريدو ماجار. ورغم أن هذا الطبيب كان ينام في خيمة واحدة مع جينيه فإنه كان يجهل تماماً أنه من أهل لوط. وفي الفترة بين ١٩٧٠ و١٩٧٢ ارتبط جينيه بعلاقات شخصية ودية وحميمة لا دخل للشذوذ الجنسي فيها جعلته يقول إن تلك الفترة واحدة من أسعد أيام حياته.

وفي أثناء وجوده في عمان قابل مؤلفنا السيدة نبيلة النشاشيبي في حديقة منزل والدتها وهي من أسرة فلسطينية عريقة. وتولت نبيلة التي كانت تتحدث الفرنسية والإنجليزية بطلاقة مهمة مرافقة جينيه في الفترة الأولى من إقامته في معسكرات اللاجئين. وفيما بعد أصبحت السيدة ليلى شاهد التي تربطها صلة قرابة بياسر عرفات هذه المهمة أثناء زيارة جينيه الثانية إلى بيروت عام ١٩٨٢. ورغم كراهية مؤلفنا للعائلات الفلسطينية العريقة مثل عائلتي نبيلة وليلى فإنه كان يكن عميق المودة والإحترام لهاتين السيدتين. كانت نبيلة طبيبة تعيش مع زوجها الكيميائي الأمريكي في باريس ثم انتقلت معه إلى أكسفورد بإنجلترا قبل هجرتهما في الستينات إلى أمريكا. وما إن شاهدت على شاشات التلفيزيون الأمريكي الأهوال التي لحقت ببني جلدتها من الفلسطينيين في أيلول الأسود عام ١٩٧٠ حتى قررت على الفور أنه ينبغي عليها أن تقف بجانب أهلها الفلسطينيين في محنتهم. فشدت على الفور الرحال إلى عمان دون أدنى تردد وأثلج صدرها ما لمسته من تغير في نفوس الفلسطينيين الذين تعلموا الصمود من القهر والعذاب وأن يكونوا أبطالاً صناديد لا يخشون الردى. وكان هذا نفس انطباع جينيه عن الفلسطينيين الأمر الذي جعلهما يتفقان في الرأي حول هذه المسألة. ولا غرو فقد كان الفلسطينيون على أعتاب ثورة عارمة وانتفاضة مدوية. كان جينيه يعتزم البقاء مع الفلسطينيين لمدة ثمانية أو عشرة أيام وإذ به يستمر في البقاء معهم لمدة ستة شهور فقد راقت له الحياة في معسكرات اللاجئين. غير أن الفلسطينيين اعترتهم الدهشة لعبارات المديح التي كالها لنبيلة النشاشيبي فقد كان لايكف عن التغني بجمالها واصفاً إياها بأنها أجمل سيدة في كل أرجاء المملكة الأردنية. وذهب مؤلفنا إلى أن حركة المقاومة الفلسطينية سوف تتمخض في النهاية عن حركة نسائية قوية. وكان شاهده على ذلك انخراط كثير من الفتيات الفلسطينيات في العمل الفدائي الموجه ضد الجنود الإسرائيليين.

وفي نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٧٠ قابل جينيه الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات الذي استقبله بالود والترحاب. ودار الحديث بينهما من طريق عضو في منظمة التحرير الفلسطينية يدعى أبا عمر كان فيما مضى أستاذا في دور العلم الأمريكية وتلميذاً لهنري كسنجر. ودام الإجتماع بين عرفات وجينيه أقل من نصف ساعة وطلب عرفات منه تأليف كتاب عن الثورة الفلسطينية وأعطاه تصريحاً بزيارة أي مكان يخضع لسيطرة منظمة التحرير الفلسطينية. وبعد عودته إلى باريس أظهر مؤلفنا التصريح الذي أعطاه له ياسر عرفات للمحيطين به معبراً عن غبطته واعتزازه وفخره الشديد به. وفيما بعد سأله أحد الفلسطينيين عما تم في أمر هذا الكتاب فأجابه بأنه سوف ينتهي من تأليف الكتاب عندما ينتهي الفلسطينيون من إضرام ثورتهم. والذي أعجبه في الثورة الفلسطينية هم الفدائيون البسطاء وليس المنظرين والمفكرين فيها ممن يستخدمون شعارات ماركسية براقة. وأعجبه في هؤلاء البسطاء أنهم يخفون خوفهم من الأخطار تحت غطاء من المرح والاحساس بالزمالة الأمر الذي ذكره بالجو السائد في مظاهرات الطلبة في باريس عام ١٩٦٨. وقد أحب جينيه الثورة الفلسطينية لدرجة أنه سماها «ثورتي».

والتاريخ لايسجل لنا رأي الفلسطينيين في جينيه ولكننا نعرف رأيه فيهم. فعندما صرح أمام الفدائيين أنه لواطي وملحد انفجروا من الضحك دون أن يؤثر هذا في علاقتهم به وفي يسره في التعامل معهم. وليس أدل على شعبية جينيه بين الفدائيين من الحادثة التالية: في عام ١٩٧٣ زارت زوجة محمود الهمشري موقعاً عسكرياً من مواقعهم وتحدثت إلى فدائي فلسطيني لم يقابل جينيه في حياته ولم يقرأ له. فسألته هذه السيدة عن هدف الثورة الفلسطينية أجاب بقوله: «كي نخلق إنساناً جديداً» فسألته: «مثل من؟» فأجاب: «مثل جان جينيه». وقد رد جينيه هذه التحية بمثلها عندما كتب في عام ١٩٧١ يقول: «إن إنساناً جديداً سوف يولد في الشرق الأوسط. وفي رأيي أن الفدائي من نواح معينة سوف يمهد الطريق لظهور هذا الإنسان.» ومما يذكر في هذا الشأن أن جينيه تعرف بفدائي فلسطيني يدعى حمزة ووالدته أم حسن لفترة تقل عن أربعة وعشرين ساعة. وكان اللقاء في رمضان عام ١٩٧٠ في بيت أم حسن وهي امرأة فدائية أيضاً. فقال لها جينيه إنه غير مسلم وملحد لا يؤمن بوجود الله فنظرت إليه المرأة دون أن تبدو عليها الدهشة أو الإستغراب أو الإحتقار وقالت له ببساطة خلبت فؤاده وجعلته يحس مقدار ما أصابته المرأة الفلسطينية من تحضر: إنها سوف تعد له الطعام طالما أنه لا يؤمن بالله. وبالفعل أعدت له الطعام دون أن تتناول منه شيئاً حتى حانت ساعة الإفطار. ويضيف لنا جينيه كيف اشترك جميع أفراد هذه العائلة في الإعداد لبعض العمليات الفدائية ضد اليهود وكيف أن الأم كانت تقدم إليه الشاي والصينية في يدها والمدفع الرشاش على كتفها. هذه التصرفات أذهلت جينيه واعتبرها إيذاناً بالمرأة الفلسطينية الجديدة.

وكتب جينيه أول مقال عن الفلسطينيين في مايو/أيار ١٩٧١ بعد شهر واحد من عودته إلى باريس. ويحتوي هذا المقال على كثير من الموضوعات التي تناولها فيما بعد في كتابه «سجن الحب». وكما أسلفنا راقت له الحياة في معسكرات اللاجئين الفلسطينيين التي يصفها على النحو التالي: «بمجرد عبور نقاط التفتيش الأردنية عند المخرج الشمالي من عمان يدرك المرء أنه في طريقه إلى دخول أرض الصداقة». وهو يمتدح اللاجئين لفهمهم التعقيدات السياسية لمستواهم المتقدم في الإلمام بالقراءة والكتابة، كما أنه يثني على المرأة الفلسطينية البسيطة التي علمتها المحن كيف تطبخ وتحيك الملابس وتطلق الرصاص وتقرأ كتابات ماوتسى تونج. ولكنه في الوقت نفسه يعبر عن أزوراره عن الفلسطينيات اللائي ينتمين إلى الطبقة البورجوازية ويرميهن بالإدعاء والجبن والإستعلاء. وأيضاً نشر جينيه مقالاً آخر في مجلة فلسطين ناقش فيه مشكلة الإحتلال الإسرائيلي. يقول في هذا الشأن إن اليهود تعرضوا للشتات عبر ألفي سنة والذلّ المروع والإبادة على أيدي النازيين. ومن ثم أخذوا عن جلاديهم وحشيتهم عينها ساموا الفلسطينيين بها مر العذاب. وأضاف أن إسرائيل أصبحت معقل الإستعمار الغربي بوجه عام والإستعمار الأمريكي بوجه خاص. كما وصف الأمريكان بالعدو الأول والإسرائيليين بالعدو الثاني. ولكنه غير من هذا الترتيب في وقت لاحق فاعتبر النظم العربية الرجعية على قمة السوء تليها أمريكا ثم إسرائيل. وامتدح جينيه الهوية الفلسطينية التي اضطرتها ظروف الإحتلال الإسرائيلي إلى الإستقلال عن الهوية العربية. فالفلسطينيون أصبح لهم بسبب الإحتلال الإسرائيلي هوية ذات معالم وقسمات بارزة ومتميزة عن بقية الأمم العربية. وأشار مؤلفنا إلى الفلسطينيين كقوة ثورية في منطقة الشرق الأوسط تختلف عن رجعية دولة إسرائيل. فإسرائيل تتلقى الأموال الأمريكية والأوروبية من أجل خلق مجتمع بورجوازي. في حين أن الفلسطينيين تلقوا أموال العرب لتدعيم الفكر الثوري. ورغم تعاطفه مع اليهود كأفراد فإنه حمل شديد المقت لهم كدولة الأمر الذي دعا البعض إلى اتهامه بمعاداة السامية في حين يرى البعض أنه يعادي الصهيونية، بدليل أن كتاباته تخلو تماماً من أي لفظ ينم عن معاداة السامية. وكان موقفه المتعاطف مع الفلسطينيين ضد الإسرائيليين سبباً في وجود جفاء موقت بينه وبين الفيلسوف جان بول سارتر. ولعل بشاعة المذابح التي اقترفها الإسرائيليون ضد الفلسطينيين عام ١٩٨٢ هي التي حفزت مؤلفنا إلى كتابة بعض الفقرات المعادية للصهيونية. وأصابت الدهشة بعض الناس عندما سطر جينيه خطاباً يدافع عن المحامي جاك فيرج الذي دافع بدوره عن كلوس باري القائد النازي في مدينة ليون أثناء الحرب العالمية الثانية الذي أمعن في التنكيل باليهود.

وفي نهاية شهر سبتمبر ١٩٧١ زار جينيه الشرق الأوسط لمدة شهر ونصف. وعند عودته إلى بلاده عمت باريس موجة من الكراهية العنصرية تعادي العرب المهاجرين فيها. ويرجع

السبب في هذا إلى أن فرنسياً قتل في ٢٧ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧١ صبياً جزائرياً في السادسة عشر من عمره يدعى بن علي لأن هذا الصبي أراد اغتصاب زوجته. وأصدر القضاء الفرنسي حكماً مخففاً على الفرنسي القاتل لا تزيد مدته على سبعة شهور سجن. وكان هذا الحكم المخفف دليلاً دامغا على مقدار كراهية الفرنسيين للمهاجرين العرب، الأمر الذي أدى إلى اندلاع المظاهرات المعادية للتفرقة العنصرية. وطالب اليساريون من أتباع ماوتسي تونج بتكوين لجنة للدفاع عن بن علي وسعوا إلى تشكيل جبهة لمحاربة التفرقة العنصرية يتحالف فيها المهاجرون العرب في فرنسا مع العمال الفرنسيين ضد الرأسمالية. غير أن الحركة الفلسطينية أرادت استغلال أزمة بن علي لصالحها لتأييد المقاومة الفلسطينية في جميع أرجاء العالم كما أرادت من لجنة الدفاع عن بن علي إدانة إسرائيل. ولكن جان بول سارتر الذي انضم إلى جينيه للدفاع عن بن علي عبر عن مناصرته لإسرائيل في حين عبر جينيه عن تأييده للفلسطينيين. ولم يكن هدف جينيه من الإنضمام إلى لجنة بن علي الدفاع عن هذا الصبي العربي بقدر ما كان هدفه كسب *التأييد للقضية الفلسطينية*. فلا غرو إذ رأينا المهاجرين العرب في فرنسا يقفون بجانبه. والجدير بالذكر أن جينيه قال لأدوارد سعيد في وصف صديقه سارتر: «إنه جبان بعض الشيء يخاف أن يتهمه أصدقاؤه في باريس بمعاداة السامية إن هو قال أي شيء من شأنه الدفاع عن حقوق الفلسطينيين.» ولم يخف جينيه تأييده للسياسة السوفيتية في أوائل السبعينات لا لشيء إلا لأنها وقفت بجانب الفلسطينيين ضد كل من أمريكا وإسرائيل.

وفي ربيع عام ١٩٧٢ ذهب جينيه إلى روما حيث التقى بالكاتب الإيطالي المعروف ألبرتو مورافيا كما قابل وائل زعتر ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في روما. وفي مايو/أيار من هذا العام عاد جينيه للعيش في معسكرات الفلسطينيين حيث مكث حتى نهاية شهر أغسطس/آب. وفي تلك الزيارة تجددت علاقته بواحد من أعضاء المقاومة الفلسطينية ينحدر من عائلة فلسطينية مسيحية إسمه أبو عمر كان قد قابله في باريس عام ١٩٧٠. وقد أصبح هذا الرجل شخصية محورية تناولها مؤلفنا في «سجن الحب». مات أبو عمر في ظروف غامضة وهو المقابل لشخصية نبيلة النشاشيبي بسبب التشابه الكبير في حياتهما. فقد تعلم أبو عمر في أمريكا في الخمسينات وتزوج من أمريكية غير أنه ضحى بزوجته الأمريكية وبوظيفة مرموقة في الجامعات الأمريكية كي ينضم عام ١٩٦٩ في صفوف الثورة الفلسطينية. انتقد هذا الفدائي المخلص أسلوب الفدائيين في الدعاية عن أنفسهم وكثرة ظهورهم أمام كاميرات التصوير وهو رأي شبيه برأي جينيه نفسه الذي رأى في هذا الإستسلام للدعاية خطراً على ثورية كل من الفلسطينيين والفهود السود. وفي عام١٩٧٢ كان مؤلفنا يتوق إلى الذهاب مرة أخرى إلى إربد لمقابلة حمزة

ووالدته، ولكن البعض نصحوه بالإبتعاد عن هذه العائلة لأن السلطات الأردنية تراقبها وبالفعل ألقت هذه السلطات القبض على حمزة وقامت بتعذيبه.

وفي طريق عودته من فلسطين توقف جينيه في روما حيث قابل وائل زعتر ممثل منظمة تحرير الفلسطينية هناك. أحب جينيه في زعتر ثقافته العميقة وإنسانيته الغامرة. وفي أثناء احتفالات الألعاب الأولمبية في ميونيخ بألمانيا استطاع الفدائيون الفلسطينيون اختطاف تسعة من الإسرائيليين المشتركين في هذه الألعاب وأخذهم كرهائن للضغط على إسرائيل كي تفرج عن ٢٣٤ سجيناً سياسياً فلسطينياً. ولكن البوليس الألماني داهم الفلسطينيين وأطلق الرصاص فمات أحد عشر إسرائيلياً وخمسة فلسطينيين وواحد من رجال البوليس الألماني. وأرادت إسرائيل الإنتقام فأغارت طائراتها على معسكرات اللاجئين في كل من سوريا ولبنان وقتلت أكثر من مائتي شخص معظمهم من المدنيين، ثم شنت إسرائيل غارة أخرى على معسكر للاجئين في لبنان فقتلت أكثر من مائة فلسطيني ولبناني. ولم يمض على الحادثة شهر حتى كان وائل قد قتل أثناء عودته إلى شقته في روما. وفي ٨ ديسمبر ١٩٧٢ أصيب محمود الهمشري الذي دعا جينيه لأول مرة لزيارة لبنان عندما انفجرت عبوة ناسفة وضعت داخل جهاز تليفونه. ولما سمع بوفاة صديقه الهمشري عبر موجات الأثير هرع إلى شقة هذا الصديق حيث ظل منتظراً لمدة ساعتين عودة زوجة القتيل من الخارج فيقدم لها واجب العزاء. وبعد شهر واحد من إصابته مات الهمشري متأثراً بجراحه.

وفي ٣٠ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٢ اشترك جينيه في مظاهرة احتجاج في باريس ضد مقتل جزائري شاب يدعى محمد ضياف. وقام سارتر بتنظيم هذه المظاهرة، غير أنه لم يتمكن من الإشتراك فيها بسبب مرضه. وفي نوفمبر/تشرين الثاني من العام نفسه طار جينيه إلى الشرق الأوسط وطلب الحصول على تأشيرة دخول إلى الأردن. ورغم أن السلطات الأردنية أعطته هذه التأشيرة فإنها كانت تتشكك فيه وتضعه تحت المراقبة. وفي الأردن التقى مؤلفنا بأحد أصدقائه من الفلسطينيين. ولكن السلطات الأردنية التي كانت تراقبه ألقت القبض عليه فور افتراقه عن جينيه. وأحس أصدقاء جينيه من الفلسطينيين أن الخطر بات يتهدد مؤلفنا نفسه فقاموا بتهريبه خارج الأردن في سيارة أجرة. وقال له سائق هذه السيارة منذراً: «المسألة انتهت بالنسبة لك» قالها بلغة إنجليزية تشوبها الأخطاء. وقد كان. فقد شاءت الظروف ألا يعود مؤلفنا إلى الشرق الأوسط إلا بعد مرور عشر سنوات.

جينيه يمدح طاهر بن جلون:

في عام ١٩٧٣ التزم جينيه الصمت فامتنع عن الكتابة والإنخراط في السياسة، غير أنه خرج عن صمته في ربيع عام ١٩٧٤ فبدأ يكيل الثناء لعدد من الكتاب العرب ممن يكتبون

باللغة الفرنسية. وعلى رأسهم الكاتب المغربي طاهر بن جلون. وفي تلك الفترة دعا مؤلفنا إلى انتخاب فرانسوا ميتراند وهاجم جسكار ديستان وامتدح الإتحاد السوفيتي بسبب تأييده لياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية. وكره ديستان بسبب موقفه المؤيد لليهود والمناهض للفلسطينيين. فضلاً عن أنه أشيع عن ديستان مناصرته للعناصر اليمينية المتطرفة في الجيش الفرنسي المناوئة للجزائريين. وحين نجح ديستان في الإنتخابات شن عليه مؤلفنا هجوماً لاذعاً بمساعدة معاونته التي تحمل له أشد الإعجاب بول نيفين. والجدير بالذكر أن جينيه استفاد من زواجها من طبيب وفر له حاجته كمدمن على الأقراص المخدرة. فضلاً عن أنه كان يسرق روشتات هذا الطبيب وينتحل توقيعه لكتابة روشتات بأسماء جاكي ماجليا وغيره من الأصدقاء. وعندما قام جينيه بكتابة مقال في مايو/أيار ١٩٧٤ يمتدح فيه طاهر بن جلون أرسل بن جلون الذي فازت روايته «الليلة المقدسة» بجائزة الجونكور عام ١٩٨٧ خطاب شكر إلى مؤلفنا فرفع جينيه سماعة التليفون ليقول له إنه قرأ له ويسعده الإلتقاء به. وتوثقت العلاقة بينهما فكان من عادتهما أن يلتقيا كل يوم تقريباً ليدور الحديث بينهما حول السياسة. وبعد مرور خمسة أعوام على صداقتهما فاجأ جينيه المؤلف المغربي وسأله بطريقته المعتادة إذا كان قد شعر في أي وقت من الأوقات بانجذابه نحو الجنس الخشن فرد عليه طاهر بن جلون أن هذا لم يحدث مطلقاً.

وأجرى طاهر بن جلون مع جينيه مجموعة من اللقاءات المطولة مع جينيه بهدف نشر حديث مطول لمؤلفنا يتضمن رأيه في الفلسطينيين. وبعد تنقيح هذا الحديث قام عز الدين قالق ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في باريس بقراءته كما تمت ترجمته إلى العربية حتى يفهمه بعض المسئولين الآخرين في هذه المنظمة. والجدير بالذكر أنه تم اغتيال عز الدين في مكتبه يوم ٣ أغسطس/آب ١٩٧٨. قال جينيه في حديثه المنشور بعنوان «جان جينيه بين الفلسطينيين» إنه من الطبيعي للغاية أن يشعر بالعطف نحو أتعس الناس الذين يحملون أقصى درجة من المقت والكراهية للغرب. وهاجم موقف سارتر المؤيد لإسرائيل وموقف سيمون دي بوفوار لقولها إن المرأة في إسرائيل أفضل من المرأة العربية. ويتهم جينيه الغرب بسوء القصد والنية في تشويه صورة الفلسطينيين ويؤكد أن تحيزات الغرب ضد العرب ليست سوى صورة جديدة من عداء أوروبا ضد السامية. فبعد أن كان الأوروبيون يتوارثون العداء لليهود أصبح العربي في نظرهم اليهودي الجديد.

وفي صيف ١٩٧٤ تعرف جينيه على آخر لوطي مهم في حياته - وهو شاب مغربي من طنجة يدعى محمد القطراني - وذلك أثناء سيره في شوارعها. فقد وجد مؤلفنا هذا الشاب نائماً على الرصيف فأيقظه. وسأله الشاب إذا كان فرنسياً فأجاب بأنه واحد من الفدائيين

(الفلسطينيين). وسرعان ما توثقت عرى الألفة بينهما واستقلا معاً القطار إلى الرباط. ووعده جينيه أن يدعوه للسفر إلى هولندا. وطلب مؤلفنا من الكاتب المغربي طاهر بن جلون أن يساعد محمد القطراني في الحصول على جواز سفر مراكشي. ولكن هذا لم يكن بالأمر السهل. غير أن القطراني تمكن على نحو ما من الخروج من المغرب ودخول باريس. وهناك التقى جينيه بعاشقه الجديد. وسعى مؤلفنا لدى أحد مديري المسارح الباريسية أن يتوسط لدى السلطات الفرنسية المحلية لإستخراج جواز سفر للقطراني. وتمكن هذا الرجل من طريق التحايل والتدليس أن يفعل هذا. فإدعى أن القطراني طالب يدرس الفنون المسرحية في باريس وأسندت إليه الفرقة أحد الأدوار لسبك هذا الإدعاء. ولد محمد القطراني في فاس عام ١٩٤٨ من أسرة شديدة الفاقة لا تجد ما تقتات به. وفي ٦ يونيه/حزيران ١٩٦٥ التحق بخدمة البحرية الملكية المغربية لمدة خمس سنوات. واستغنت البحرية عن خدماته وهو في الثانية والعشرين ليجد نفسه شريداً بلا مأوى أو مأكل أو ملبس فأعطاه شرطي من أقربائه بنطلوناً وقميصاً يستر بهما بدنه. وتوجه الشاب إلى بيت أبيه فأساء استقباله وقام بطرده لأنه لم يكن يريد أن يتحمل أية أعباء معيشة إضافية. فاضطر القطراني إلى النوم على أرصفة الشوارع والتحاف السماء فضلاً عن أنه أدمن المكيفات. وكان القطراني في السادسة والعشرين من عمره وجينيه في الثالثة والستين عندما التقيا.

وفي ديسمبر/كانون الأول ١٩٧٥ أجرى الكاتب الألماني هيوبرت فخت ـ وهو أشهر لواطي أفرزته ألمانيا ـ بعض الأحاديث الناجحة للغاية والشديدة التنوع مع مؤلفنا الذي استفاض في شرح آرائه في حركة الفهود السود والمقاومة الفلسطينية والعمارة البرازيلية وإميل زولا وهوميروس وسترنبرج وبريخت وديستوفسكي والماركيز دي ساد وهتلر وفكتور هيجو وسارتر ومالارميه وبلاد اليابان وكوبا والإتحاد السوفيتي الخ...واعترف جينيه لأول مرة في حياته أنه كان يشعر برغبة في القتل ولكنه استطاع أن يذيب هذا النازع الفتاك في بوتقة الخلق والإبداع. واعترف بإمتنانه للعلاقات اللواطية مع الشبان العرب الذين أدخلوا على نفسه الرضا والسعادة. وامتدح اللواطيين العرب لأنهم لا يخجلون من ممارسة اللواط مع كبار السن أمثاله.

وفي تلك الفترة من حياته فكر جينيه في إنتاج فيلم بعنوان «زرقة العين» يتضمن إشارات إلى عشيقه الجديد محمد القطراني والظروف التي جاء فيها إلى باريس. وطلب جيينه من بن جلون أن يشترك معه في وضع حوار للفيلم ولكن بن جلون رفض بسبب جهله بالكتابة السينمائية. وفي أحد الأيام توجه بن جلون كعادته إلى الفندق الذي يقيم فيه جينيه. واتصل تليفونياً بحجرته من مكتب الإستقبال. فلم يرد جينيه على التليفون فشعر بالقلق عليه. ولهذا فتح باب الحجرة بالمفتاح الإحتياطي ليجد مؤلفنا ملقى على الأرض وفاقد الوعي تماماً. فحمله ونقله إلى

السرير وسمع جينيه يتمتم بصوت خفيض طالباً بعض القهوة فأسرع بن جلون بإحضارها إليه فدبت فيه الحيوية ولم تمض نصف ساعة حتى عاد إليه نشاطه واستعد لمواصلة الكتابة. ولكن جينيه اعترف بعد مضي عام واحد (في ١٩٧٦) أنه انتهى ككاتب ولم يعد لديه ما يقول. وإنها لمفارقة أن تختار موسوعة لاروس هذا التوقيت بالذات لإدراج إسمه فيها كواحد من أدباء فرنسا العظام.

كان جينيه في اسطنبول عندما استبدت به رغبة شديدة في امتلاك بيت يمكنه الإستقرار فيه إذ يبدو أنه تعب من التجوال الذي لا يهدأ في مشارق الأرض ومغاربها. ولكن اشتياقه كان أعظم لرؤية عشيقه القديم جاكي الذي تزوج من إيزاكو اليابانية. فاشترى لهما بيتاً جميلاً يطل على جبال ألبيرنيز. ولكن هذا البيت لم يرق لهما فقاما ببيعه بالخسارة في عام ١٩٧٨.

وفي السبعينات كتب جينيه مقالاً أقام الدنيا ولم يقعدها بعنوان «العنف والوحشية» كان السبب في أزورار الجميع عنه وسخطهم عليه. فلا غرو فهو لم يكتف بامتداح حركة بادر ـ ماينهوف الإرهابية الألمانية التي أخذت عن الأرهابي كارلوس أسلوبه في سفك دماء الأفراد بل امتدح أيضاً الإتحاد السوفياتي. أعجب جينيه بحركة بادر ـ ماينهوف الإرهابية بسبب تضامنها مع الشعب الفلسطيني ضد الإستعمار الأمريكي. والجدير بالذكر إن مؤلفنا تعرف على هذه الحركة من طريق شخصين هما بول روسو بولوس وكارول. وطلب أنصار هذه الحركة الفوضوية إلى جينيه أن يكتب مقدمة للكتابات التي سطرها أعضاؤها لتظهر في بعض المجلات. فقبل لأنه ببساطة اعتبر أن كل صديق للثورة الفلسطينية صديق له وكل عدو لها عدو له. ويفرق مؤلفنا في مقاله تفرقة تعسفية بين العنف الذي تمارسه حركة بادر ـ ماينهوف الأرهابية والذي يعتبره شيئاً طيباً ومستحباً والوحشية القمئية التي تمارسها الولايات المتحدة الأمريكية. ومما زاد الطينة بلة أنه تصادف وقوع بعض الممارسات الإرهابية البشعة في ألمانيا في نفس وقت نشر مقال «العنف والوحشية» في المجلات الألمانية. وهكذا وجد جينيه نفسه في عزلة رهيبة وكاملة عن العالم الخارجي تحيط به العداوة من كل جانب. يقول طاهر بن جلون في هذا الشأن إنه رأى جينيه لأول مرة يهتز من أعماقه بسبب عزلته. وأراد بن جلون أن يرفع من روحه المعنوية الهابطة فكتب مقالاً يدافع فيه عنه ويصفه بأنه نصير الفقراء والمطحونين والمظاليم في العالم الثالث. فشعر جينيه نحوه بشيء من الإمتنان لوقوفه بجانبه في محنته. ولكن هذا لم يقه من طوفان النقد الجارح الذي انهال عليه في سبتمبر/أيلول ١٩٧٧ ليس في الصحافة الغربية والفرنسية فحسب بل في الصحافة الأمريكية أيضاً. وعبر البعض عن إشمئزازهم من تغاضيه عن جرائم ستالين وهلاك ملايين الروس واليهود على يديه والقول بأن الفظاعات مجرد قصص وحكايات.

وفي ديسمبر/كانون الأول ١٩٧٦ تعرف جينيه إلى مغربي آخر يعمل لاعب سيرك يدعى إسكندر بوجوليون بعد أن شاهده يؤدي أحد ألعابه الماهرة والخطرة. وكم كان مؤلفنا يود أن يلوط بإسكندر غير أن إسكندر رفض هذا بشكل قاطع. وكعادته مع من يحب اشترى جينيه له سيارة مستعملة وقيثارة غالية الثمن بل إنه فكر في شراء منزل له ولكن هذا المشروع لم يتحقق. كان إسكندر متزوجاً من إمرأة تهوى قرض الشعر إسمها ليديا داتاس التي كثيراً ما تناقش معها جينيه في أمور الشعر والشعراء. وفي مايو ١٩٧٩ أبلغه الطبيب أنه مصاب بسرطان الحلق فاغتم غماً شديداً وامتنع عن الإلتقاء بالناس ورفض العلاج في بادىء الأمر. غير أنه ما لبث أن اقتنع بضرورة خضوعه لعلاج الكوبالت لوقف انتشار الأورام السرطانية. ورغم خطورة التدخين عليه فقد كان يدخل المستشفى للعلاج وفي فمه سيجارة مشتعلة. وفي أغسطس/ آب ١٩٨٠ أجريت له عملية لإستئصال حصوة في الحالب وورم حميد في البروستاتا. فضلاً عن أن أسنانه إزدادت تآكلاً عن ذي قبل. وفي تلك الفترة أمضى وقتاً أطول في بلاد المغرب حيث بنى بيتاً في مدينة لاراش المراكشية الواقعة على شاطىء البحر المتوسط بين طنجة والدار البيضاء من أجل عشيقه محمد القطراني. وتدهورت أحوال كل من جينيه والقطراني بسبب شدة إدمانهما للمخدرات. وكان أصحاب جينيه ومعارفه من المغاربة يلحون عليه في طلب النقود فلم يبخل بها عليهم كلما انتعشت أحواله الإقتصادية. ورغم ضخامة دخله فإن إسرافه غير المسئول أدى باستمرار إلى نضوب موارده. وزاد من مشاكل محمد القطراني أن زوجته أمينة لم تكن راضية عن شذوذه الجنسي ولا عن حياة المخدرات والسكر والخمول. ولهذا كثيراً ما ذهبت غاضبة إلى بيت أهلها. وذات يوم دب شجار عنيف بين جينيه والقطراني بسبب غيرة مؤلفنا واعتقاده أن القطراني قد اتخذ عشيقاً آخر له. وفي ربيع ١٩٧٩ أنجب القطراني من أمينة ولداً طلب منه جينيه أن يسميه عز الدين تخليداً لذكرى الفلسطيني الشهيد عز الدين قالاق ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في باريس الذي اغتيل في ٣ أغسطس/ آب ١٩٧٨. وزعم جينيه أن الوليد فلسطيني بسبب تحمسه للفلسطينيين.

كان القطراني يعتبر جينيه والده. وكان أخشى ما يخشاه أن يهجره. ورغم أن جينيه في أواخر أيامه كان بالفعل مقلاً في الذهاب إليه ويزوره على مضض فإنه ظل وفياً له من الناحية المالية حتى النهاية. وفي عام ١٩٨٠ أكمل مؤلفنا بناء المنزل في مدينة لاراش بالمغرب الذي عاش فيه القطراني وزوجته التي ـ كما أسلفنا ـ كثيراً ما هجرت بيت الزوجية ولجأت إلى عائلتها المقيمة بإحدى القرى القريبة من فاس. ونحو عام ١٩٨٢ ضاق القطراني ذرعاً بهجران زوجته له فقرر رفع قضية ضدها كي يتمكن من رؤية إبنه. وحتى يساعده جينيه في رفع هذه القضية اضطر إلى الإقتراض الشديد من ناشره جاليمار. وزاد من وضعه المالي تعقيداً أنه قرر

بسبب تدهور صحته أن يمتنع عن دفع الضرائب المفروضة عليه. وكادت مصلحة الضرائب أن تحول بينه وبين حصوله على حقوق التأليف والنشر لولا أن الناشر جاليمار استطاع الوصول إلى اتفاق مع مصلحة الضرائب يمكنها من الحصول على مستحقاتها دون علم جينيه.

وتدهورت أحواله المالية أكثر فأكثر عندما قام بإعطاء مبالغ نقدية ضخمة إلى كل من جاكي والقطراني وأحمد صديق عبد الله وزميله في السيرك. ولما مات جينيه كانت الضرائب قد تراكمت عليه لدرجة أن الورثة لم يتمكنوا من دفعها إلا في خلال ثلاثة أعوام. والغريب أن صداقة جينيه الحميمة مع الناشر جاليمار لم تمنعه حتى في أواخر أيامه من النصب والإحتيال عليه. فعلى سبيل المثال تقاضى جينيه مقدماً عن تأليف كتاب عن موزارت كان يعرف أنه لن يقوم بتأليفه مطلقاً.

جينيه يموت وحيداً:

كان جينيه يتوقع الموت في أية لحظة فوافق على تصويره في بعض الأفلام التي يكتب سيناريوهاتها التي تلقي الضوء على حياته وأدبه. وفي تلك الفترة من حياته عبر عن إلحاده بقوله إنه يختلف عن الله في عدم إيمانه بوجود القوانين والقواعد سلفاً. يقول جينيه في هذا الصدد: «يجب في كل مرة اختراع القواعد. وهي قواعد جمالية أكثر منها أخلاقية. المرء يقوم باكتشافها أو اختراعها عندما لا تكون هذه القواعد مؤكدة. والقواعد التي ترشدني وأقوم باختراعها هي انتفاء للقواعد وأعني بذلك أنها منافية للقانون». فضلاً عن أنه كتب في موضع آخر: «لقد ذكرت منذ يومين أن الله ليس له مكان في حياتي. وربما تكون الحقيقة مختلفة. فرغم عدم إيماني بالله فإن ردود فعلي طوال الوقت كما لو كنت لعبة في يد الله وكما لو كان الله يركز بصره علي طيلة الوقت ليلاً ونهاراً.» وفي عام ١٩٨١ إنشغل بإعداد بعض السيناريوهات عن نفسه لم تنل من نفسه الرضا والقبول فأعرض عنها. ثم وقع في العام نفسه عقداً بكتابة سيناريو فيلم بعنوان «لغة الحائط» تتبع فيه تاريخ إصلاحية ميتراي منذ إنشائها عام ١٨٤٠ حتى زج به فيها في يفاعته. والأخطر من كل هذا أنه ربط بين هذه الإصلاحية ونشأة المستعمرات الفرنسية في الجزائر. فهذه الإصلاحية لم توفر الجنود لجيش الإحتلال الفرنسي فحسب بل قامت بتكوين المستعمرات في الأرض الجزائرية وطرد السكان البدو منها فلم يجدوا غير فلسطين ينزحون إليها ويلوذون بها.

وفي عام ١٩٨٢ تعرف مؤلفنا وهو في الواحد وسبعين من عمره بغلام في السادسة عشر والنصف. وكانا يتناولان الطعام معاً بانتظام ظهر كل يوم جمعة في مطعم اللورين. وبدا فارق السن بينهما أمراً غريباً. حتى غرفته في الفندق الذي يقيم فيه بدت غريبة فقد عاشت فيها

الفوضى والقذارة. فكثيراً ما كان جينيه ينام وهو يمسك في يده بسيجارة مشتعلة ما أدى إلى احتراق مرتبة السرير كما أنه اعتاد إطفاء أعقاب السجائر على سجاد الغرفة أو المكتب أو السرير أو حتى جهاز التليفون. ودب المرض في أوصاله فجعله يعاني من آلام مبرحة في كعب الرجل مما جعله يمشي بصعوبة. أما صوته فقد أصبح مبحوحاً بسبب إصابة حلقه بالسرطان. وكان يتصرف على نحو منستفز وغير مسئول. فأثناء ركوبه الموتو سيكل الذي يقوده صديقه كاد الغلام أن يصدم امرأة في الطريق فهمس فيه جينيه قائلاً: «كان ينبغي عليك أن تفعلها». وعلى نقيض هذا الإستهتار كان مؤلفنا يتصرف مع الغلام بطريقة مسئولة فهو أشد ما يكون حرصاً على صحته ينصحه بعدم الإفراط في الشراب والتدخين. غير أن حادثة وقعت جعلت جينيه يقطع صلته به. فقد أعطاه مؤلفنا مبلغاً من المال يسافر به إلى اليونان للفرجة على آثارها ومواقعها التاريخية. وإذا بالغلام يأخذ المال من جينيه لينفقه على حبيبته التي اصطحبها معه في رحلته إلى اليونان. ولعل الذي أغاظه في هذا الأمر أنه اكتشف أن الغلام ليس لواطياً بل طبيعي في علاقته بالجنس الآخر.

أيام جينيه الأخيرة ورغبته الشديدة في الموت:

وأمضى جينيه جانباً كبيراً من عام ١٩٨٢ في بلاد المغرب. ولكنه قرر في سبتمبر/أيلول من هذا العام أن يسافر إلى الشرق الأوسط بمرافقة صديقته الفلسطينية ليلى شهيد التي اعتادت أن تسمعه في الآونة الأخيرة يقول: «ليس لدي الجديد كي أقوله». تقول ليلى شهيد إنها قررت السفر من باريس إلى بيروت عندما نما إلى علمها أن الإسرائيليين على وشك دخول هذه المدينة. وفجأة أخبرها جينيه برغبته في السفر معها. وحاولت إثناءه عن السفر لاعتقادها أنه لن يتحمل مشاق الرحلة. غير أنها اضطرت إلى الإستجابة إليه أمام إصراره. وطلب منها أن تذهب معه إلى السفارة السورية في باريس للحصول على تأشيرة دخول إلى سوريا، فبادرت السفارة بالإستجابة إلى طلبه. ورافقته ليلى شهيد إلى شقة والدتها المطلة على البحر والقريبة من القنصلية الفرنسية في بيروت وأعطته الغرفة الخاصة بأمها. وقام الإثنان بزيارة معسكرات اللاجئين الفلسطينيين. ورغم أن تناوله المنتظم للأقراص المخدرة كان يجعله أقرب إلى الموت منه إلى الحياة فإنه كان على غير عادته يقظاً متنبهاً مضطرباً عندما دخل عليها في حجرتها أشعث الشعر خلف رأسه الصلعاء ماشياً دون حذاء وزرائر بنطلونه نصف مفتوحة وقد ظهرت ملابسه الداخلية ذات اللون الأحمر ثم جلس على الكرسي ذي المساند ليقول لها: «إنني أحبهم» فسألته عمن يتحدث فأجاب: «الفلسطينيون» عندئذٍ لمعت عيناه بالسعادة وبدأت الحيوية تدب في جسده الخدر.

وعندما وصل جينيه هذه المرة إلى بيروت في ١٢ سبتمبر/ أيلول ١٩٨٢ بعد غيبة عشرة أيام عنها كان الجيش الإسرائيلي يحاصرها الأمر الذي اضطر الفدائيين الفلسطينيين إلى الخروج من لبنان والرحيل إلى تونس والجزائر واليمن. وكان بشير الجميل قد اختير رئيساً للجمهورية اللبنانية فوعد بتوفير الحماية للمدنيين الفلسطينيين الباقين في بيروت. ولكن جميع البوادر أنذرت بالخطر الداهم والشر المستطير. ففي ١٣ سبتمبر/ أيلول من ذلك العام رحلت القوة الإيطالية ـ الفرنسية ـ الأمريكية التي أسندت إليها مهمة حفظ الأمن والمحافظة على أرواح المدنيين الفلسطينيين. وفي اليوم التالي الموافق ١٤ سبتمبر/ أيلول أغتيل بشير الجميل الأمر الذي أدى إلى دخول الجيش الإسرائيلي بيروت يوم ١٥ سبتمبر/ أيلول منتهكاً بذلك كل المواثيق والإتفاقات ومطارداً فلول الجنود الفلسطينيين. وفي الليلة نفسها حاصر الإسرائيليون معسكرات صبرا وشاتيلا في ضواحي بيروت. وجاء رسول إلى بيت ليلى شهيد لتنبيهها إلى أن الإسرائيليين على الأبواب. وطلبت ليلى من جينيه أن يلتزم مخبأه أثناء سقوط القنابل الإسرائيلية على بيروت. ولكنه أصر على الخروج. فلما أفهمته أنه يعرض بذلك نفسه للخطر الشديد قال لها: «أريد أن أموت فقد ضقت ذرعاً بالحياة». فخرجت معه ليتجولا في الشوارع التي احتلتها الدبابات الإسرائيلية. وانتهزت إسرائيل مقتل بشير الجميل ورغبة أنصاره من الكتائب المسيحية في الثأر من الفلسطينيين المتهمين باغتياله. فأطلق الجيش الإسرائيلي في سماء بيروت قنابل مضيئة ساطعة حولت الليل إلى نهار كي تعطي للجيش اللبناني والكتائب فرصة لذبح الفلسطينيين الموجودين في معسكرات صبرا وشاتيلا. ويقدر الصليب الأحمر عدد القتلى من الفلسطينيين في هذه المذابح الوحشية بنحو ألف قتيل، الأمر الذي دفع ممرضة نرويجية إلى التوجه إلى بيت ليلى شهيد لتخبرها بحقيقة ما حدث . وطلبت هذه الممرضة من ليلى أن تنبه العالم الخارجي إلى فظاعة هذه المجازر. فطلبت ليلى بدورها من جينيه تبليغ القنصلية الفرنسية فرفض جينيه الذهاب إلى القنصلية قائلاً: «ليست وظيفتي أن أذهب إلى القنصلية الفرنسية». غير أنه وافق أن يصطحبها إليها.

وفي العاشرة من صباح يوم ١٩ سبتمبر/ أيلول استطاع جينيه بمرافقة ليلى وإثنين من المصورين الأمريكان دخول معسكر شاتيلا بزعم أنه صحفي. فكان بذلك أول أوروبي فتح أبصاره على بشاعة هذه المجزرة التي هزت وجدانه من الأعماق لدرجة أنه دخل غرفته حيث بقي فيها يومين لا يبارحها. ثم أعلن رغبته في مغادرة بيروت. وعبثاً حاولت ليلى أن تثنيه عن عزمه فاستسلمت لرغبته وساعدته على الخروج من لبنان من طريق سوريا. ونصحته بالإمتناع عن التهكم على الجنود الإسرائيليين أو الإحتفاظ بأية أوراق من شأنها تنكيل الإسرائيليين به، فرد عليها بقوله إنه قام بالفعل بتمزيق كل أوراقها وإلقائها في دروة المياه. فظهر عليها اليأس

والقنوط فقال لها باحتقار جلي: «إذا كانت المعلومات التي تحتويها هذه الأوراق لا تنطبع في ذاكرتي فإنها لا تستحق مني التدوين». وفي ٢٢ سبتمبر/ أيلول طار من دمشق إلى باريس حيث أمضى شهر أكتوبر/ تشرين الأول بأكمله في كتابة مقاله «أربع ساعات في شاتيلا». وترجع روعة هذا المقال المؤثر إلى تعبيره الشاعري عن إحساسه بالفجيعة وبهول المذابح. وأثبت هذا المقال أن ينابيع الخلق والإبداع فيه لم تجف كما كان يظن. فقد استطاعت مجازر صبرا وشاتيلا أن تجددها، الأمر الذي حداه إلى الأمل في معالجة القضية الفلسطينية في كتاب مستقل.

وفي تلك الفترة من حياته أقبل المنتجون والمخرجون على تحويل كثير من رواياته ومسرحياته إلى أفلام. وفي صيف ١٩٨٣ كان مؤلفنا في المغرب عندما بدأ في كتابة رائعته الروائية «سجن الحب». وفي لاراش بالمغرب أظهر وداً ومحبة عظيمة للطفل عز الدين إبن عشيقه محمد القطراني، فألحقه بأفضل المدارس المغربية. والجدير بالذكر أن جيران محمد القطراني من المغاربة تعمدوا مضايقته وإيذاءه بسبب خموله وإدمانه للمخدرات واستقبال جينيه في بيته لفترات طويلة. ولهذا كانوا يتعمدون إلقاء القمامة والقاذورات من نوافذ منازلهم على منور بيت القطراني ولم يعرف كيف يسلك جينيه أمام هذا النوع الذي لم يألفه من التصرفات العدوانية. فطلب من صديقه الكاتب المغربي طاهر بن جلّون أن يدعو أحد رجالات الدولة المغربية البارزين لزيارة القطراني في منزله حتى يرى الجيران الرجل المهم نازلاً من سيارته الليموزين الفاخرة ليدخل البيت. غير أن بن جلّون رفض الإستجابة إلى هذا الطلب. وعندما بلغ عز الدين الخامسة ألحقه جينيه بمدرسة رفيعة المستوى تعلم اللاتينية والإغريقية والبيانو بالإضافة إلى المواد الدراسية المعتادة، فضلاً عن العربية والفرنسية. ولهذا كان من السهل على جينيه أن يتفاهم مع الطفل ويداعبه ويلعب معه لدرجة أن ذراع جينيه أصيب بجرح نتيجة اللعب معه. ويذكر القطراني أن جينيه بدا سعيداً بمقاله عن شاتيلا وفخوراً بإنجازه فقد استطاع من طريقه أن يروي للعالم كله أحزان الشعب الفلسطيني الكسير. وعندما سأله سائل عن سر جمال هذا المقال المؤثر والبليغ أجاب بأن سر جماله يكمن في صدقه.

وفي ٦ ديسمبر/كانون الأول ١٩٨٣ سافر جينيه إلى فيينا ليفتتح هناك معرضاً للصور التي التقطت لمجازر صبرا وشاتيلا. ورافقته ليلى شهيد إلى فيينا حيث التف حوله الصحفيون وأمطروه بالأسئلة فاشترط عليهم أن تدور كل أسئلتهم حول المشكلة الفلسطينية. غير أنهم أخلوا بهذا الشرط. كانت تلك الفترة من أحرج الفترات في تاريخ المقاومة الفلسطينية، فقد وجد ياسر عرفات نفسه محاصراً في طرابلس بلبنان يطوقه الجيش السوري من جانب

ويحاصره من جانب آخر الأسطول الإسرائيلي لمنعه من الهرب من طرابلس. وفي فيينا نزل جينيه ومرافقته ليلى في فندق بالاس وكان قد إستُقْبِلَ في المطار في الجناح المخصص لكبار الزوار. فضحك جينيه من تقلبات الزمان وتذكر أول مرة جاء فيها إلى فيينا شريداً جائعاً فتطلع إلى فندق بالاس الفخم وأقسم فيما بينه وبين نفسه أن ينزل فيه في أحد الأيام. وعندما سأله الصحفيون عما يعنيه بجمال الفلسطينيين أجابهم بقوله: «هذا الجمال يكمن في حقيقة مفادها أن العبيد السابقين قد تحرروا من عبوديتهم وذلهم من أجل الحصول على الحرية. إن السود تحرروا من عبوديتهم لفرنسا وأمريكا كما أن الفلسطينيين يتحررون من النير الذي يرزح تحته العالم العربي كله». والأكثر من هذا أن جينيه صرح بأنه يعتبر الفلسطينيين أول شعب «عصري» في العالم العربي. وهذا قول غير واضح ولعل قائله تذكر المرأة الفلسطينية التي قدمت إليه كوب الشاي في يد وهي تحمل السلاح في اليد الأخرى. وعندما وجه إليه أحد الصحفيين سؤالاً عما إذا كان نادماً على ماضيه وعلى ما أنتج من أعمال أدبية أجاب بالنفي وأكد أنه لولا التجارب التي وضع نفسه فيها والتي وضعته الحياة فيها لما تمكن من كتابة مقاله عن صبرا وشاتيلا. وفي ديسمبر/ كانون الأول ١٩٨٣ قامت حكومة فرنسا الإشتراكية بمنحه جائزة الفنون والآداب الكبرى فقبلها لأنها جاءت من حكومة إشتراكية ولكنه لم يذهب بنفسه لتسلمها بل أناب عنه شاباً مليحاً من السود في الخامسة عشرة من عمره.

وفي أخريات أيامه انقطعت صلته بمعظم معارفه والقائمين على خدمته ورعايته باستثناء زوجة عشيقه السابق اسكندر بوجليون المنفذ لوصيته. ولكن شجاراً حاداً وقع بينه وبين جينيه فقام اسكندر بضربه وطرده من منزله شر طردة. وخرج مؤلفنا من بيت عشيقه السابق بعد أن ترك وراءه حقيبة ملابس مليئة بالأوراق والمخطوطات وعندما حاول إسكندر رد هذه الأوراق إليه من طريق ناشره جاليمار رفض قائلاً: «ما سرق قد سرق».

وفي ربيع ١٩٨٤ سافر جينيه إلى الشرق الأوسط باحثاً عن الفدائي الفلسطيني حمزة وأمه اللذين لم تدم معرفته بهما أكثر من يوم واحد وتركا في نفسه أعمق الأثر. ثم زار معسكر اللاجئين في إربد وعرف أن حمزة تزوج ويعيش الآن كعامل مهاجر في ألمانيا في حين ظلت أمه تعيش في إربد. وفي بادىء الأمر بدا كما لو كانت والدة حمزة قد نسيته تماماً. ولكنها بالتدرج تذكرت أن رجلاً فرنسياً جاء إلى بيتها منذ أربعة عشر عاماً وأنها قدمت إليه في رمضان طعاماً مكوناً من سردينتين وإثنتين من الطماطم وقليلاً من البيض العجة. وذكر جينيه هذه بالمرأة بالمخبأ الذي كان يتعين عليها وعلى ابنها وضيفها الفرنسي الإختباء فيه في حالة قدوم البدو من أعوان الملك حسين. وفي سبتمبر/ أيلول ١٩٨٤ عاد مؤلفنا إلى معسكر شاتيلا ليرى ما آل إليه بعد مرور الشهور. وتوقف في ألمانيا في طريق عودته إلى أوروبا ليلتقي بحمزة

ويستعيد معه الأيام الخوالي. وأصبح من الواضح أن مؤلفنا يولي النساء الآن بالغ اهتمامه ليس بوصفهن نساء بل بوصفهن أمهات. ولا غرو فقد حرمته الأيام من نعمة الأمومة.

كان جينيه يفكر في أن يجعل الفدائي حمزة الشخصية المحورية في كتابه عن الفلسطينيين. ورغم أن ياسر عرفات كلفه بتأليف هذا الكتاب فإنه لم يلتزم بالخط السياسي الذي أراده عرفات. فهو فوضوي في المقام الأول والأخير. ومن الواضح أنه كان يعطف على الفلسطينيين طالما أنهم مسحوقون ومطحونون وضائعون. وليس أدل على ذلك من قوله في أحد الأحاديث الصحفية: «حين يأتي اليوم الذي يتحول فيه الفلسطينيون إلى مؤسسة فلن أكون في صفهم. ولن أكون هناك يوم أن يتحول الفلسطينيون إلى أمة كغيرها من الأمم». ومعنى هذا أن عطفه على الفلسطينيين لم يكن سياسياً بقدر ما كان فوضوياً. والشيء نفسه ينطبق على عطفه على المشردين والمجرمين والمنبوذين كما ينطبق على مقته الشديد لبلده فرنسا. ومن هذا المنظور الفوضوي اعتبر أن الشر كل الشر يتمثل في إسرائيل والولايات المتحدة وفرنسا والبلاد العربية المحافظة، في حين رأى أن الخير كل الخير يتمثل في الفلسطينيين وحركة الفهود السود.

إن أدب جان جينيه يفيض بالمتناقضات: بالعهر والقداسة وبالدنس والنقاء، فلا غرو إذا قال بعض النقاد عن روايته «سجين الحب» إنها بيان ديني من تأليف ملحد وإنجيل من صنع الشيطان. وليس أدل على زهد مؤلفنا في الحياة من أن غاية مطلبه منها بنطلون وقميص وحذاء. ولم يغير من موقفه الزاهد المبالغ الطائلة التي جناها من كتاباته والتي لم يحتفظ منها لنفسه بشيء بل وزعها ذات اليمين وذات اليسار على أصدقائه وأحبائه. والفلسطينيون في نظره وليس اليهود هم شعب الله المختار. وحتى ندرك الأموال الطائلة التي تدفقت عليه نذكر على سبيل المثال أن محطة الإذاعة البريطانية أجرت حديثاً معه في صيف ١٩٨٥ فاشترط عليها أن تدفع له عشرة آلاف جنيه استرليني نقداً وعداً قبل بدء التسجيل. واعترف جينيه بأنه كان يسرق لأنه جائع. ولكن هذا لا يمنع من أن السرقة في حد ذاتها كانت تمتعه.

ظلت ليلى شهيد تلازمه حتى أيامه الأخيرة فكانت تجلس لساعات طوال بجواره لا تبدي حراكاً وهو يقرأ عليها ما كتب. ولم تكف عن إسداء الخدمات إليه لآخر لحظة. غير أن حادثاً سيئاً وقع لليلى لبّد علاقتهما بالغيوم. فقد كانت ليلى حبلى ومن سوء حظها أنها أجهضت قبل ولادة طفلها المنتظر. وأحزنها أن جينيه لم يشعر بأي اهتمام بالنكبة التي حلت بها مما أغضبها عليه. ورغم ذلك فقد استمرت ساهرة على خدمته. ففي ربيع ١٩٨٦ أخذته ليلى إلى الطبيب للكشف عليه فنصحه الطبيب بضرورة علاج أورامه السرطانية من طريق الكيماويات. غير أن هذا النوع من العلاج لم يسبب له آلاماً مبرحة فحسب بل نال من صفائه الذهني الذي كان

في أمس الحاجة إليه للإنتهاء من تصحيح كتابه «سجين الحب». ولهذا آثر العلاج بأشعة إكس. وأحس أن أيامه في الحياة أصبحت معدودة فسأل الطبيب كم من الوقت تبقى له في هذه الحياة. ولكنه ضاق ذرعاً حتى بالعلاج من طريق أشعة إكس. وفاض به الكيل فلم يعد يتحمل هذا النوع المخفف من العلاج. وتفرغ تفرغاً كاملاً لتصحيح «سجين الحب» بقدر ما سمحت له صحته. وبقي جاكي ماجليا وليلى يلازمانه حتى النهاية. وفي إحدى الليالي سقط من فوق السرير ليس بسبب إفراطه في تناول الحبوب المخدرة بل بسبب شعوره الحاد بالإختناق نتيجة كثرة الإفرازات المخاطية التي وقفت في حلقه والناجمة عن العلاج بأشعة إكس. وبتوقفه عن العلاج بأشعة إكس تدهورت صحته تدهوراً شديداً وشعرت ليلى أن الموت يدنو منه. فطبعت قبلة حانية على جبينه ففعل ما لم يفعله من قبل مع أي إنسان فقد أخذ كلتا يديها وقبلهما. وفي اليوم التالي اكتشفت ليلى أن جينيه قد هرب مع جاكي إلى أسبانيا حيث التقيا بأحمد صديق عبد الله وزميله في السيرك. وسافر الثلاثة إلى أحد الموانىء بجنوب أسبانيا لركوب الباخرة المتجهة إلى طنجة في بلاد المغرب. ومن الواضح أن شبح الموت كان يرفرف على جينيه، فقد سأل أحد معارفه المسلمين إذا كان من الممكن دفنه في مدافن المسلمين.

وبعد مضي ثلاثة أيام فقط على زيارته للمغرب استقل الطائرة من الرباط ليعودِ بها إلى باريس حيث نسيت ليلى وسط همومها وانشغالها عليه أن تحجز له حجرة في فندق روبنز. ولم تكن من عادته على أي حال أن يحجز في أي من الفنادق التي ينزل فيها. وكان موظف الإستقبال في فندق روبنز جافاً وقاسياً معه فرفض نزوله هناك لعدم وجود حجز بإسمه دون أن يرحم سوء حالته الصحية. واضطر جاكي أن يؤجر له غرفة في فندق شديد التواضع (نجمة واحدة فقط). واصطحبه جاكي إلى هذا الفندق وهو في حالة إعياء شديد اضطره إلى الجلوس على المقاعد الموجودة في الشارع. واستطاع جينيه بشق الأنفس أن يقوم بتصحيح المجلد الثاني من روايته «سجين الحب» وهو طريح الفراش. وسهر عشيقه السابق جاكي وزوجته اليابانية إيزاكو وليلى على خدمته. ولم تتحمل إيزاكو اشتراكها في السهر عليه فقد سبق علاجها من بعض الأورام السرطانية. ولكن منظر جينيه المريض بالسرطان أعاد إلى ذاكرتها مرض السرطان الذي شفيت منه وتصورت أن المرض قد عاد إليها. الأمر الذي جعل مؤلفنا يحس بالذنب ويعتبر نفسه مسئولاً عن تعبها. وغمره الإحساس بالذنب فتذكر انتحار حبيبه عبد الله الذي لم تبارح صورته مخيلته قط.

وفي حديثه إلى محطة الإذاعة البريطانية كرر جينيه ما سبق للقديس أوغسطين قوله: «إنني في إنتظار الموت». وفي عام ١٩٨٢ قال أيضاً في حديث آخر إن الإنسان يقيم الدنيا ويقعدها

على الموت في حين ينبغي علينا قبول الموت على علاته دون أن نأبه به كثيراً. وأضاف جينيه أنه يوافق على وصف مالارميه للموت بأنه «هذا الجدول الضحل».

وفي ليلة ١٤ ـ ١٥ أبريل/نيسان ١٩٨٦ رحل جينيه عن الدنيا. وحين وافته المنية كان في تنقله الدائم يعيش في حجرة لم يألفها وجديدة عليه بها درج يصل بين حجرة النوم والحمام. وفي اليوم التالي لوفاته اكتشف جاكي الجثة ووجود رضوض كبيرة في مؤخرة الرأس مما يدل على ارتطامها بجسم صلب. وأغلب الظن أنه استيقظ في نحو الثالثة صباحاً ليتوجه إلى دورة مياه شديدة الضيق ملحقة بحجرة النوم بهدف التبول. ومن المحتمل أن دواراً أصابه بسبب إفراطه في إدمان المخدرات. ففقد توازنه وارتطم. يقول جاكي في هذا الصدد إنه توجه إلى حجرة جينيه لتناول الإفطار معه كعادته كل صباح ودخل على الأرض ليجده مسجى عليها وهو عريان. وخشي جاكي أن يتولى المحقق تشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة وأراد دفنها في لاراش بالمغرب كما أوصى بذلك جينيه. وطلب جاكي من بعض أصحاب النفوذ التدخل وبالفعل تم حفظ جثته لعدة أيام في ثلاجة المعهد الطبي ـ القانوني في باريس. وفي البداية أراد أصدقاؤه أن يدفنوه بجوار حبيب عمره عبد الله ولكن ذلك تعذر لأن عبد الله كان مدفوناً في مدافن المسلمين وأصر محمد القطراني أن يأخذ جثة عشيقه السابق إلى لاراش حسب وصيته. واختار البقعة التي كان يلعب فيها جينيه مع إبنه عز الدين لتكون مثواه الأخير. وهي بقعة قريبة من المنزل الذي اشتراه له مؤلفنا في لاراش. وعبثاً حاولت ليلى شهيد أن تثنيه عن دفن الجثة بالقرب من منزله حتى تعفيه من وجع القلب ومن الحزن الدائم. بكى القطراني على جينيه مر البكاء. وفي يأسه استقل السيارة التي كان جينيه قد اشتراها له متوجهاً إلى الرباط ليرتطم في الطريق بشجرة الأمر الذي أدى إلى وفاته. وهي حادثة أقرب إلى الإنتحار منها إلى الوفاة.

وشعر المغاربة بالفخر لأن هذا الكاتب العظيم دفن في ثراهم. وعرضت الحكومة المغربية إيفاد فرقة موسيقية عسكرية لاستقبال الجثمان عند هبوط الطائرة. ولكن أصدقاء جينيه رفضوا هذا الجو الرسمي في تشييع الفقيد الذي آثر البساطة ونبذ الغنى وكره بلده فرنسا حتى الموت. قام محمد القطراني وجاكي ماجليا وليلى شهيد بمرافقة التابوت على متن الطائرة المسافرة من باريس إلى الرباط. وعند إنزال الجثمان من الطائرة تبين أنه تم شحنه باعتباره جثة «عامل مهاجر».

وفي وصيته طلب الأديب الراحل من جاكي أن يتولى تقسيم أمواله بالتساوي على نفسه وعلى أحمد صديق عبد الله ومحمد القطراني إذا كان حياً أو إبنه عز الدين إذا كان ميتاً. وترك جينيه أيضاً تعليمات مماثلة إلى مديرة أعماله الإنجليزية جوانا مارستون كي تقسم أمواله المستحقة

في انجلترا على هذا النحو نفسه. ونظراً لأن جاكي كان الوحيد الذي يحمل الجنسية الفرنسية فقد عهدت إليه السلطات بتنفيذ الوصية. ولكن الورثة الثلاثة لم يستلموا مستحقاتهم من التركة إلا بعد استيفاء مصلحة الضرائب للضرائب المتأخرة عليه والتي امتنع عن دفعها في أخريات حياته. وشكل دفن جينيه مشكلة لحفاري قبره الذي كان في جبانة إسبانية مسيحية في لاراش. فهم مسلمون لم يسبق لهم دفن المسيحيين. فلا غرو إذا رأيناهم يتجهون بالجثة إلى القبلة الإسلامية.



ـ ٢ ـ

أندريه جيد
(١٨٦٩ ـ ١٩٥١)



الفصل الثاني

ولد الروائي والمسرحي أندريه جيد (الذي كان صديقاً لطه حسين) يوم ٢٢ نوفمبر/تشرين الثاني ١٨٦٩ من أبوين بروتستانتيين في فرنسا الكاثوليكية. وكان أندريه يمرح في حدائق اللوكسمبورغ القريبة للغاية من بيته. وكان يتخنث أحياناً لابساً تنورة أمه. وينحدر والده من عائلة بروتستانتية في أودنيس وهي مدينة صغيرة بجنوب فرنسا كانت معقلاً لطائفة البروتستانت منذ عصر الإصلاح الديني. واعتاد والده أن يأخذه للفسحة والفرجة في شوارع باريس وأن يقرأ عليه حكايات «ألف ليلة وليلة» و«الأوديسا» ومسرحيات موليير. كان جيد منذ نعومة أظفاره كارهاً لسيطرة أمه عليه مما جعله يشق عصا الطاعة عليها ويفضل أباه عليها. وعندما بلغ أندريه الخامسة من عمره التحق بمدرسة خاصة تجمع بين الأطفال الذكور الصغار والبنات الكبار اللاتي نظر صغيرنا إليهن بعيون حاسدة وهن يلبسن اللحى المزيفة أثناء التدريب على تمثيل مسرحية راسين «المدافعون». وتلقى الطفل دروساً في العزف على البيانو. وفي الثامنة من عمره التحق بمدرسة قريبة من حدائق اللوكسمبرج أظهر فيها تخلفاً دراسياً معيباً وواضحاً. وقد ضبطته المدرّسة في وضع جنسي مشين وهو يقبع تحت المائدة مع إبن الخادمة. وقامت المدرسة بطرده لمدة فصل دراسي واحد بسبب بعض عاداته الجنسية المعيبة الذي لم يجشم نفسه عناء إخفائها. فضلاً عن أنه أصيب بمرض الحصبة الذي أقعده في البيت لمدة فصل دراسي آخر. ورغم ثراء الأم فقد أرادت ألا يشعر إبنها بالإستعلاء الطبقي والإجتماعي فألبسته الملابس الخشنة نفسها التي يرتديها أقرانه الفقراء.

وكان من عادة أسرته قضاء إجازة العام الجديد في روان حيث استهوته دراسة الحشرات

والبحث عن الخنافس وحيث عاشت آنا شاكلتون التي كانت في الماضي مربية والدته ثم أصبحت فيما بعد صديقتها. وقد عشقت هذه المرأة الأدب الألماني وكان يحلو لها أن تقرأ على مسامع الصبي بعضاً من ترجماتها لأعمال جوته. وفي تلك الفترة تأصل فيه حب التاريخ الطبيعي وهو حب باكر ظهر عليه ولاحظته أمه وهو لم يتعدّ الرابعة من عمره. فقد كتبت أمه إلى زوجها تقول: «أندريه لطيف لولا ولعه المجنون بالوقوف دون أدنى حراك أسفل شجرة ليراقب حركة القواقع الحلزونية».

وفي عام ١٨٨٠ توفي والد أندريه نتيجة إصابة أحشائه بالسل. وبوفاة الأب تركز حب الأم على إبنها فطوقته بحبها الجانح إلى السيطرة. وتسببت وفاة والده في انقطاعه عن المدرسة وفي العيش مع أبناء عمومته ليتلقى العلم على يدي مدرسهم الخاص. وفي تلك الفترة قام أندريه بإعداد مجلة عائلية تعتبر أولى خطواته في عالم الكتابة. والغريب أن أندريه ـ وهو الكاتب الخلاّق فيما بعد ـ أسهم في هذه المجلة بمجرد مقتطفات من الكاتبين الفرنسيين المعروفين بوفون وبوايو، في حين أسهم أبناء عمومته ببعض الكتابات النثرية والشعرية الخلاقة. وبعد ذلك انتقلت أمه لتعيش في مونبليه حيث إلتحق أندريه بإحدى مدارسها ولقي فيها اضطهاداً بسبب ملته البروتستانتية التي بدت لأقرانه الكاثوليك ضرباً من الشذوذ والهرطقة. ففي يوم من الأيام تكالب عليه أقرانه في المدرسة وظلوا يطاردونه حتى عقر داره الذي دلف إليه مذعوراً مرتجفاً وأنفه تنزف دماً والطين يغطي ملابسه. وكان زميله جوبيز يتفنن في تعذيبه فيمسك بقطة ميتة ويدعكها في وجهه، غير أن إصابته بالجدري ألزمته البيت فأنقذته من كل هذا العذاب. ورغم مبالغته في التظاهر بمرضه ساعدته هذه النوبات المفتعلة على التخفيف من انزعاجه بسبب سوء معاملة أقرانه له. وفي عذابه صرخ ذات مرة أمام أمه قائلاً: «لست كبقية الناس. لست كبقية الناس». وانزعجت أمه لحاله فاستدعت ثلاثة أطباء لأخذ رأيهم فأجمعوا أن مرضه صحيح وليس مجرد إدعاء. وصحبته أمه إلى منتجع قريب للإستشفاء في خلال فصل الصيف والخريف حيث عولج بالإستحمام بحامض الكربون. ثم عاد الطفل إلى المدرسة الألزاسية ليعاني مرة أخرى من أعراض جديدة للصداع والإنهاك الذهني والأرق. وكان من سوء حظه أن طبيباً غبياً عالجه باستخدام البروميد والكلور الأمر الذي أثر بالسلب على قدراته الذهنية. وقد لازمه الصداع حتى سن العشرين ثم زامله ليعود إليه عام ١٩١٦.

وقد تركت الفضيحة التالية في نفس الصبي أعمق الأثر، الأمر الذي جعلها نقطة تحول في حياته. كان أندريه آنذاك في روان في زيارة لبنات عمه إميل وهن مادلين وجين وفالانتين ثم انصرف ليعود إلى البيت الذي يعيش فيه مع أمه. ولكنه لم يجد أمه في البيت فقرر العودة إلى بنات عمه ليفاجئهن بظهوره. فلفت نظره خلو بيت عمه من أهله فتسلل إلى غرفة مادلين بنت

عمه الأثيرة إلى قلبه. وهناك رأى أندريه منظراً مروعاً زلزل كيانه. رأى فتاته راكعة تصلي بجوار فراشها وهي تبكي بحرقة والألم يعتصرها. وفهم من صلاتها أنها اكتشفت أن أمها زانية وتخدع أباها. ولم يكن هذا السر خافياً على سكان روان الذين كانوا طيلة الوقت على علم بخيانتها في حين كان زوجها آخر من يعلم. وانتهت هذه الفضيحة فيما بعد بطلاق إميل لزوجته التي تزوجت من عشيقها. هذه هي الحادثة التي تركت أثراً مروعاً في طفولة أديبنا.

غرست أم أندريه فيه حب الموسيقى والمسرح فقد اصطحبته عام ١٨٨٣ لحضور الحفلات الأوركسترالية والإستماع إلى عزف روبنشتين على البيانو. وفي العام التالي (١٨٨٤) رافقته إلى المسرح. وفي عام ١٨٨٥ بلغ السادسة عشرة فسمحت له والدته باستخدام مكتبة والده المتوفى. وفي تلك الفترة من حياته ملكت مادلين جميع حواسه فباتت تطل عليه من كل صفحة يقرأها. تمثلت له صورتها وهي تبكي وتنتحب. وزاد منظرها من ولهه بها لدرجة جعلته يكتب الحروف الأولى من إسمها في كل صفحة يطالعها. وبدأ أندريه ومادلين في تبادل الرسائل يجمعهما حبهما المشترك لأدب هوميروس واسكيلوس. وكان في تلك الفترة من حياته يدوام على قراءة الكتاب المقدس لإجتياز منهج الدين الذي استغرقت دراسته عامين كاملين. واستهوته قراءة العهد الجديد فانكب على مطالعته في المدرسة حتى أثناء فسحة الصباح القصيرة دون أن يأبه باستهزاء أقرانه به. وبلغ تشدده مع نفسه في دراسة الكتاب المقدس أنه كان يصحو في الفجر وينام على عوارض خشبية ويستيقظ في منتصف الليالي كي يركع ويصلي، وهو يجد في ذلك متعة لا تعدلها متعة.

وفي أكتوبر ١٨٩٧ أظهر أندريه في المدرسة الألزاسية تفوقاً على زميله بيير لويز في درس الإنشاء بعد أن كان للويز قصب السبق. الأمر الذي أدهش جميع التلاميذ الذين اعتادوا تفوق لويز عليه. ولم يغفر له بيير لويز هذا التفوق. غير أن المياه بين الزميلين المتنافسين سرعان ما عادت إلى مجاريها عندما اكتشف بيير لويز أن منافسه يهتم بمطالعة الشعر. فقوى حب الشعر أواصر الصداقة بينهما. وفي تلك الفترة توفر أندريه جيد على تأليف عمل نثري هو روايته المعروفة بإسم «كراسات أندريه والتر». ونظراً لأن مستوى التدريس في السنة النهائية بالمدرسة الألزاسية كان ضعيفاً فقد انتقل أندريه جيد إلى مدرسة ليسيه هنري الرابع كما التحق زميله لويز بمدرسة ليسيه جانسون دي سالي. ورغم انشغالهما بالدراسة في السنة النهائية فقد وجدا لديهما فسحة من الوقت للاشتراك معاً في إصدار مجلة مدرسية. وفي عام ١٨٨٩ تقدم أندريه جيد لامتحان البكالوريا ولكنه رسب فيه وتقدم للملحق الذي اجتازه بصعوبة بالغة. فكافأته أمه على نجاحه المهزوز بقضاء عطلة الصيف في منطقة بريتاني. وفي تلك الفترة من حياته التقى في حانة بولدو بمجموعة كبيرة من الرسامين المجهولين والغريبي الأطوار وقد أصبح واحد منهم وهو بول

جوجان ناراً على علم. وأراد أندريه جيد أن يكمل «كراسات أندريه والتر» في هدوء فسافر إلى سويسرا ليكملها بين أحضان الطبيعة وسحر الجبال والبحيرات. وبعد أن أكمل «كراسات أندريه جيد» قفل راجعاً إلى باريس حيث قرأها على قريب له إسمه ألبرت ديمارسيه الذي نصحه بالتقليل من الإستشهادات بآيات الكتاب المقدس، الأمر الذي يدل على مدى تأثر هذا العمل الروائي بالدين. وقد سعى أندريه جيد بروايته أن يتقرب إلى قلب إبنة عمه مادلين دوندو ويتخلص من تسلط أمه عليه. ولكن إبنة عمه لم تعجبها الرواية كما رفضت أن تستجيب إلى طلبه الزواج منها. وكان إبتعاد إبنة عمه عنه سبباً في اكتشاف طبيعته الجنسية التي تميل إلى المثلية. غير أن قطيعة أندريه جيد وإبنة عمه لم تدم طويلاً. ففي عام ١٨٩٢ عاد الإثنان إلى الإلتقاء والتراسل. ولكن مادلين روندو ظلت تعبر عن رأيها السيىء في كتاباته. وإذا كان لصديقه بيير لويز أي أثر إيجابي في تلك الرحلة الباكرة من حياته الأدبية فإنه يتلخص في لفت نظر أندريه جيد إلى ضرورة العناية بالصياغة أو الشكل الأدبي.

لقد قطع الشابان الصديقان جيد ولويز على نفسيهما عهداً بأن يكتب كل منهما الصفحة الأولى من أي عمل أدبي يعنّ للآخر أن يقوم بتأليفه. ولكن سرعان ما اتضح لهما استحالة تنفيذ هذا العهد. يقول جيد في هذا الشأن: «شعرت بأنه (أي لويز) عاجز عن كتابة صفحة واحدة من كتاباتي النثرية مثلما شعرت أنا نفسي بالعجز عن قرض أية قصيدة من سوناتاته.» ولم ينجح لويز في كتابة أي شيء نيابة عنه سوى التصدير الذي قدم به روايته «أندريه والتر» التي ظهرت في يناير/ كانون الثاني ١٨٩١ بدون ذكر مؤلفها. وفشل هذا الكتاب الذي نشره جيد على نفقته الخاصة فشلاً ذريعاً زاد منه كثرة ما ورد فيه من أخطاء هجائية، الأمر الذي اضطر مؤلفه الشاب إلى استئجار سيارة لنقل جميع النسخ إلى المطبعة التي وافقت على شرائها كورق دشت. ومما يذكر أن لويز زميله كان صديقاً للشاعر مالارميه وجماعة الرمزيين المعروفين بالبارنسيين. فقدمه لويز إلى هذه الجماعة. وهكذا تعرف جيد الشاب إلى فحول شعراء المدرسة الرمزية في زمانه أمثال مالارميه وهو سماتز وماترلينك وبورجيه الذين استقبلوا كتابه الأول بالحفاوة والتقريظ. فعلى سبيل المثال سطر جورمومنت عدداً من المقالات يقارن فيها بين روايتي «أندريه والتر» و«آلام فوتر» لجوته و«الشهواني» لسانت بيف. وأيضاً نصح لويز صديقه جيد بزيارة الشاعر الكبير فاليري. وفي ٢٦ يناير/ كانون الأول ١٨٩١ كتب جيد إلى فاليري يقول له إنه كان فيما مضى من أشد الناس انتقاداً لمدرسة الرمزيين. ثم اتضح له أن أفكار هذه المدرسة تمثل نوعية ما يكتب وأنه إذا كان مالارميه يمثل المدرسة الرمزية في مجال الشعر وماترلنك يمثلها في عالم الدراما والمسرح، فإنه هو نفسه يمثلها في مجال الرواية. ويعترف جيد بالمفاجأة التي شعر بها عندما اكتشف في نفسه القدرة على قرض الشعر الرمزي إلى جانب تأليف الرواية

الرمزية. فبعد صدور روايته الرمزية الأولى «أندريه والتر» نراه في فترة لا تتجاوز أسبوعاً واحداً يقرض عشرين قصيدة غنائية بعنوان «قصائد أندريه والتر». وأيضاً ألف جيد تحت تأثير فاليري الذي كان يتنزه معه في حدائق مونبلييه العامة مبحثاً نثرياً عن نارسيوس أهداه إلى فاليري.

ويعتبر البحث الذي كتبه جيد في صيف عام ١٨٩٣ بعنوان «محاولة للحب أو مبحث عن الرغبة الفانية»، بمثابة إتجاه نحو ممارسة الحب الطليق الخالي من الكفارة والندم والإحساس بالذنب. وفي عام ١٨٩٣ سافر جيد إلى تونس مع صديق له يدعى ألبرت لورين. وتوغل الإثنان في الصحراء جنوباً. وفي شمال أفريقيا ومع الغلمان العرب في كل من تونس والجزائر عرف جيد الحب المحرم. وداهمه المرض في بلدة سوسة التونسية حيث اشتبه الطبيب المعالج في إصابته بمرض السل. وبعدها انتقل إلى بلدة مسكرة حيث أخذ يتماثل للشفاء. وحيث تعرف إلى غلام عربي إسمه عثمان ظل على علاقة محرمة به حتى شب عن الطوق وتزوج من فتاة عربية مثله وهو في نحو العشرين من عمره. وفي بادىء الأمر أراد جيد وزميله ألبرت لورين أن يثبتا لنفسيهما أن مشاعرهما الجنسية طبيعية فأقاما علاقة جنسية بفتاة سمراء تدعى مريم. ومن طريق علاقته بمريم تأكد أندريه جيد أن النساء لا يرقن له وأنه يفضل عليهن الغلام علي الذي عرفه في سوسة بتونس. غير أن وصول أمه المفاجىء إلى الجزائر للإطمئنان إلى صحته وضَع حداً لاستسلامه لنزواته المثلية. وعندئذٍ قرر الصديقان جيد ولورين العودة إلى فرنسامعن طريق روما. وفي طريق عودته إلى فرنسا وصل جيد إلى فلورنسا بإيطاليا حيث قابل أوسكار وايلد للمرة الثانية. وافترق جيد عن لورين كي يتوجه إلى جينيف لإستشارة الدكتور أندريا الذي نبهه إلى أن جهازه التنفسي ليس به عيب وأن العيب يرجع إلى جهازه العصبي غير السليم. ونصح له هذا الطبيب بالعلاج بالمحاليل وقضاء فترة الشتاء في المرتفعات الجبلية. وفي تلك الفترة من حياته فكر جيد في الإنتحار ولكنه عدل عنه مؤثراً السفر إلى سويسرا حيث ألف رواية «أرض المستنقعات» التي أعقبها بروايته الأخرى «الأرض الواطئة». وقد عبر ليون بلوم عن شديد إعجابه بـ «أرض المستنقعات» وأسلوب كتابتها. ولكنه رأى فيما بعد أن أسلوبها يقل في روعته عن أسلوب روايته التالية «ثمار الأرض».

وفي يناير/كانون الثاني ١٨٩٥ سافر جيد للمرة الثانية إلى الجزائر حيث أمضى فصل الشتاء القارص في جورا وحيث ساعده النوم والنوافذ مفتوحة في زمهرير الليل المتجمد على تحسين حالة رئتيه. واشتاق جيد إلى قضاء فصل الربيع في شمال أفريقيا فطلب من والدته أن تلحق به هناك مصطحبة معها إبنة عمه مادلين التي كان يفكر آنذاك في الزواج منها. ولكن مادلين رفضت الإستجابة إلى دعوته. وشاءت المقادير أن يلتقي هذه المرة في الجزائر بأوسكار وايلد الذي جاء إليها بصحبة عشيقه الأرستقراطي اللورد ألفريد دوجلاس. وفي خلال الأيام المعدودة

التي قضاها وايلد وجيد معاً أغرى وايلد اللواطي السيىء السمعة مؤلفنا بالإقتداء به. ثم رحل جيد إلى بلدة مسكرة حيث بدأ روايته «ثمار الأرض». غير أن أمه القلقة على صحته أصرت على ضرورة عودته إلى فرنسا. وبعد فترة قصيرة توفيت والدته في ٣١ مايو/ أيار ١٨٩٥. وفي يونيه/ حزيران من العام نفسه تقدم جيد لخطبة إبنة عمه مادلين التي أحبته حباً أفلاطونياً كصديق وأخ لها. وفي ٨ أكتوبر/ تشرين الأول ١٨٩٥ تزوج جيد من إبنة عمه زواجاً غير طبيعي. فهو على وعي بشذوذه الجنسي وهي لاتزال تعاني من آثار الصدمة التي تلقتها في فترة مراهقتها عندما اكتشفت أن أمها تخون أباها مع رجل آخر. وهو الأمر الذي جعلها شديدة التردد في الزواج من جيد وتفضل أن يظل حبها له حباً روحياً خالصاً. والجدير بالذكر أن جيد الذي اعترف بنزعته إلى المثلية لطبيب متخصص في الأعصاب استشاره في مسألة زواجه فنصح له هذا الطبيب الغر بالزواج مؤكداً له أن هذا الزواج سوف يشفيه من شذوذه الجنسي. ولم يفت جيد أن يسأله عن صلاحية الزواج من أبناء العمومة فطمأنه الطبيب الغر إلى سلامة الزواج من أولاد العم. وهو ما تنكره قوانين الوراثة.

تمّ زواج أندريه جيد من إبنة عمه على يدي الكاهن البروتستانتي نفسه الذي سبق له أن عقد على زواج أمه من أبيه. وسافر العروسان الشابان لقضاء شهر العسل في فلورنسا وروما ونابولي حتى وصلا إلى تونس. ومنها استقلا القطار لينقلهما من مسكرة إلى الجزائر. وكان في عربة القطار المجاورة رهط من صبية المدارس أخذ جيد يغازلهم من خلال النافذة الفاصلة بينهم، الأمر الذي أثار حنق زوجته وجعلها تزجره قائلة: «يبدو أنك إما مجرم أو مجنون.» ورغم أن زواج مادلين من جيد دام نحو عشرين عاماً فإن العلاقة التي ربطت بينهما كانت علاقة روحية في جوهرها. وفي فترة بقائه في الجزائر شعر بحب جارف نحو الغلام العربي عثمان. وقد بلغ اهتمامه بهذا الغلام مبلغاً جعله يسعى إلى تعليمه قرض الشعر. وقبل أن نتناول بالتفصيل موقف أندريه جيد من الشذوذ الجنسي يجدر بنا أن نورد قائمة بمؤلفاته. وهي: «مذكرات أندريه والتر» (١٨٩١) - «مبحث نارسيوس» (١٨٩٢) - «محاولة للحب» (١٨٩٣) - «رحلة أورين» (١٨٩٣) - «أرض المستنقعات» (١٨٩٥) - «ثمار الأرض» (١٨٩٧) - «فيكولتيت» (١٨٩٩) - «الحاج» (١٨٩٩) - «الملك كاندولس» (١٩٠١) - «الإباحي» (١٩٠٢) - «أعذار» (١٩٠٣) - «شاوول» (١٩٠٣) - «أميناتس» (١٩٠٦) - «عودة الولد الضال» (١٩٠٧) - «الباب الضيق» (١٩٠٩) - «أوسكار وايلد» (١٩١٠) - «إيزابيل» (١٩١١) - «ذكريات المحكمة» (١٩١٣) - «مخازن الفاتيكان تحت الأرض» (١٩١٤) - «السمفونية الرعوية» (١٩١٩) - «ديستيوفسكي» (١٩٢٣) - «كوريدون» (١٩٢٤) - «رحلة إلى الكونغو» (١٩٢٧) - «عودة من بحيرة تشاد» (١٩٢٨) - «مدرسة النساء» (١٩٢٩) - «قضية روديرو» (١٩٣٠) - «أوديب» (١٩٣١) -

«بيريسفون» (١٩٣٤) - «جينفييف» (١٩٣٦) - «أفكار لاحقة عن الإتحاد السوفيتي» (١٩٣٧) - «ثيسيوس» (١٩٤٦) - «عن كافكا» (١٩٤٧) - «مذكرات عن شوبان» (١٩٤٩) - «أوراق الربيع» (١٩٤٩) - «الأدب الملتزم» (١٩٥٠) - «مادلين» (١٩٥٣) - مراسلات أندريه جيد مع بول فاليري» (١٩٥٥). وهي مؤلفات تشمل أساسا الرواية والمسرح والشعر وأدب الرحلات.

كوريدون:

في عام ١٩٠٧ بدأ أندريه جيد في تأليف كتاب بعنوان «كوريدون» يدافع فيه عن اللواط. «كوريدون إسم إستعاره أندريه جيد من الشعر الرعوي اللاتيني عند الرومان. وهو إسم ورد ذكره في أشعار كل من فيرجيل وثيوقريطس. ولا يغيب عن ذهن القارىء الفرنسي ما ينطوي عليه هذا الإسم من مدلولات جنسية. فهو يرتبط في ذهنه باللواط المتفشي في بلاد الإغريق والرومان. ولكن معناه يغيب عن بال القراء غير الفرنسيين الذين لايعرفون أو لم يعودوا يذكرون عشق كوريدون للفتى الكسيس. والجدير بالذكر أن الغلام الجزائري عثمان الذي وقع جيد في غرامه كان راعياً للماعز. والذي لا شك فيه أن محاورات كوريدون تحمل أصداء لروايته «فاكهة الأرض» التي تصور الحياة الرعوية.

ورغم صغر حجم الكتاب فقد استغرق تأليفه ثلاثة عشر عاماً ولا يرجع هذا إلى صعوبة الكتاب بل إلى معالجته لموضوع شائك للغاية هو إباحة الشذوذ الجنسي بين الذكور: و«كوريدون» كتاب مكتوب على شكل أربع محاورات مثل المحاورات التي عودنا عليها أفلاطون في كتاباته. وفي عام ١٩١١ قام جيد بطبع إثنتي عشرة نسخة فقط من كتابه في بلجيكا وزعها على أصفيائه واللصيقين به. ولم يكن جيد حينئذٍ قد انتهى من تأليف محاوراته الأربع بل أتم فقط ما يزيد قليلاً على إثنتين من المحاورات الأربع. وفي عام ١٩٢٥ وافق أندريه جيد على نشر المحاورات على نطاق واسع دون أن يكترث بما قد يثيره من ردود فعل غاضبة. والكتاب ليس سوى سيرة حياة مؤلفه بطريقة غير مباشرة. وهو يلقي الضوء على أفكاره دون أن يلقيها على أفعاله التي اتسمت كما يعرف الخاصة والعامة بالشذوذ والإنحلال. ورغم أن خلصاءه نصحوا له بالإمتناع عن نشره لأنه سوف يسيء إلى سمعته أبلغ إساءة، فإنه قرر المضي قدما لإذاعته بين الناس. والغريب أن جيد أعلى من شأن هذا الكتاب لدرجة أنه اعتبره أفضل مؤلفاته على الإطلاق، وهو أمر مشكوك فيه. وكما أشرنا فإن جيد في هذا الكتاب يدافع عن الشذوذ الجنسي على نحو غير مباشر وإن كان لا يخفى على أحد. والكتاب عبارة عن أربع محاورات بين لواطي يدعى كوريدون والرواي الذي يعارضه ويستهجن إباحة الشذوذ الجنسي.

وكوريدون كان طالباً متفوقاً في كلية الطب وزميلاً وصديقاً للراوي في مدرسة الليسيه لفترة طويلة. غير أن ظروف الحياة فرقت بينهما حتى التقيا أخيراً في باريس. والذي لا ريب فيه أن «كوريدون» حوار يديره جيد مع نفسه.

المحاورة الأولى

يقول الراوي إنه زار كوريدون في شقته وأجال البصر فيها لعل أنظاره تقع على أي مظهر من مظاهر التخنث الذي اشتهر به هذا الصديق فلم يعثر على أي أثر لهذا التخنث. غير أنه لاحظ فوق مكتبه المصنوع من خشب الماهوجاني صورة للوحة مايكل أنجلو المعروفة «خلق الإنسان» التي تصور آدم عارياً تماماً وهو يتطلع بنشوة إلى يد الله وقد اجتاحه شعور بالإمتنان والعرفان بالجميل. فضلاً عن أنه رأى على المكتب صورة لشاعر أمريكا اللواطي والت ويتمان (١٨١٩ ـ ١٨٩٢)، الذي توفر ليون بازالجيت على ترجمة أعماله إلى الفرنسية وألف سيرة حياته.

كانت صورة اللواطي والت ويتمان سبباً في أن يبدأ الراوي مع كوريدون بادئاً بالإشارة إلى كتاب بازالجيت عنه حيث يسعى هذا المؤلف إلى تبرئة هذا الشاعر من تهمة اللواط على أساس أن الشذوذ الجنسي شيء غير طبيعي، في حين أن حياة ويتمان طبيعية للغاية. فيرد عليه كوريدون بأن أشعار ويتمان خير شاهد على شذوذه الجنسي وأن حياته الطبيعية لا تنفي أنه من شواذ الجنس. ويضيف كوريدون أنه يزمع كتابة مقال يدحض فيه محاجات بازالجيت الساعية إلى تبرئة ويتمان من تهمة اللواط وأنه سوف يسميه «دفاع عن اللواط».

واعترض الراوي على استخدام كوريدون لكلمة (دفاع) لما تنطوي عليه من استفزاز للشعور العام واقترح عليه استخدام كلمة (تقريظ) كبديل لها. ثم استطرد الراوي قائلاً إن اللواطيين يفاخرون في أحاديثهم الخاصة بممارستهم للشذوذ ولكنهم يجبنون عن ذلك عند مواجهة جمهور الناس، لإدراكهم لما سوف يلحق بهم من ملامة وتقريع. وهنا اعترف كوريدون أن اللواطيين يفتقرون إلى وجود شهداء بينهم يضحون بحياتهم من أجل قضيتهم. فشهداء اللواط المعروفون أربعة هم: أوسكار وايلد وكروب وإيلينبورج وماكدونالد. وهو عدد لايكفي، لأن القضية بحاجة إلى المزيد من الشهداء. وهنا قاطعه الراوي بقوله إن من الخطأ تسميتهم بالشهداء والأفضل إستخدام كلمة ضحايا اللواط بدليل أنهم جميعاً بادروا بإنكار تهمة اللواط الموجهة ضدهم وسعوا إلى إثبات براءتهم منها. فاعترف كوريدون بأنهم جميعاً تراجعوا أمام ضغوط الرأي العام والصحف والمحاكم، وقال إنه لمن الغرابة أن يجد شواذ الجنس في أنفسهم الشجاعة

في الدفاع عن آرائهم اللواطية ولكنهم يجبنون عن الدفاع عن مسلكهم اللواطي. ثم يستطرد قائلاً إن شواذ الجنس بالفعل على استعداد لتحمل العذاب دون أن يكونوا على استعداد لتحمل الفضيحة والعار. فاللواطي لن يسامح نفسه إذا عرفت أمه عنه شذوذه أو إذا كان السبب في إمتناع الرجال من التقدم إلى خطوبة أخته. ويعرب كوريدون عن أمله في أن يظهر لواطي على قدر من الأمانة والإستقامة والتكامل يجعله لايأبه بما يوجه إليه من إهانات. ولما طلب الراوي منه ألا يحاول السعي إلى الحصول على تسامح الناس المحترمين معه أجابه بأنه لا يحرص على شيء قدر حرصه على الحصول على موافقتهم على شذوذه.

وسأل الراوي كوريدون متى شعر لأول مرة بجنوحه إلى الشذوذ فأجاب بأن الأمر كان خافياً عليه في البداية فقد فكر بعد انتهاء فترة الإمتياز بعد تخرجه في كلية الطب في الزواج من فتاة ملكت قلبه. غير أن هذه الفكرة لم تعش طويلاً. واعترف أنه - بخلاف أقرانه من الشبان - لم يجد أدنى إغراء في معاشرة المومسات واعتقد خاطئاً أن هذا يرجع إلى تأصل الفضيلة فيه وقدرته غير العادية على الإحتفاظ بطهارته الجنسية. ولكنه أدرك فيما بعد أن إمتناعه عن معاشرة المومسات كان يرجع في المقام الأول إلى أنه لم يكن يشعر بأدنى انجذاب نحوهن. وعلى أية حال لم تمنعه طهارته الجنسية من أن يجرب في قليل من المرات مضاجعة العاهرات. وأكدت له هذه التجارب أنه لا يعاني أي عجز جنسي، كما أكدت قدرته على الإستمتاع بالجنس الآخر وخاصة لأنه كان فتياً نشيطاً وسليم البدن. ويسترسل كوريدون في قصة اكتشافه لنزوعه إلى المثلية مبيناً أهمية نصيحة الأب جالياني إلى مدام إيناي التي تقول: «ليس المهم أن يشفى المرء من مرضه بل المهم أن يتمكن من التعايش مع الداء الذي يعاني منه.» ومعنى هذا أن المهم أن يقتنع الإنسان اللواطي بأنه ليس شاذاً عن المألوف أو حالة متفردة غير معتادة. فالإيمان بصحة هذا القول من شأنه أن يشفي اللواطي من كراهيته لذاته واحتقاره لها ويعيد إليه اتزانه وثقته بالنفس. يذكر كوريدون في حكايته أنه أحب الفتاة التي كان يزمع الزواج منها على نحو صوفي رقيق وشفاف. وكان لخطيبته أخ أصغر يدعى ألكسي حمل له أعمق مشاعر الصداقة. ولاحظ كوريدون أن الغلام يريد منه الملاطفة والتدليل فنهره وعنفه تعنيفاً شديداً. ويبدو أن ألكسي أحس بفطرته بوجود بذرة المثلية في خطيب أخته التي لم يكن كوريدون نفسه على وعي بها. واسودت الدنيا في عيني الغلام فآثر الإنتحار ووجدت جثته أسفل صخرة عالية. وظن الجميع أنها كانت حادثة سقوط من ارتفاع شاهق. وكاد كوريدون نفسه يصدق أنها حادثة لولا أن الغلام قبل انتحاره ترك بالقرب من فراش خطيب أخته خطاباً يبثه لواعج العشق والهيام. وكان هذا الإنتحار صدمة شديدة على كوريدون جعلته ينبذ على الفور فكرة الزواج من حبيبته وأخذ يلوم نفسه لأنه لم يعالج مشكلة الغلام علاجاً سليماً، وشعر بالندم لأنه كان

يخلق به أن يشرح للغلام التعيس أن تخنثه ومشاعره المثلية ليست شذوذاً أو مرضاً بل هي شيء طبيعي للغاية.

ويختتم كوريدون المحاورة الأولى بقوله لمحدثه إنه لا ينوي أن يكتب عن المثلية كطبيب ومتخصص بل ينوي الكتابة عنها كإنسان مؤمن بالمذهب الطبيعي ومن وجهة نظر أخلاقية وإجتماعية وتاريخية. ثم إنه لا ينوي أن يعالج في كتابه اللواطيين الذين يشعرون بأنهم شواذ ومرضى بل اللواطيين الذين يشعرون بأنهم طبيعيون وأصحاء. ويذهب كوريدون إلى أنه يعتبر كل شيء على وجه الأرض طبيعياً باستثناء ظهور الفن فهو في نظره الشيء الوحيد غير الطبيعي والمصطنع في هذه الحياة. ويضيف كوريدون إلى ذلك قوله إن كثيراً من الممارسات الجنسية غير السوية تتم في فراش الزوجية وأن اللذة وليس استمرار النوع هو الذي يدفع الإنسان إلى ممارسة الجنس، إذ لو كان استمرار النوع هو الدافع الأوحد لما استغرق الإنسان في تكراره للممارسة الجنسية. هذا مجمل المحاورة التي جرت في اليوم الأول.

المحاورة الثانية

وبعد المحاورة التي جرت في اليوم الأول توجه الراوي إلى شقة كوريدون في اليوم التالي لاستكمال الحوار معه. قال الراوي لكوريدون إنه لا يريد أن يسمع منه المحاجة التي تدافع عن اللواط من منظور نفسي بل من منظور طبيعي. فالإنسانية تكاد تجمع على أن اللواط شيء غير طبيعي. وهنا قال كوريدون إنه سوف يبين أن ممارسته تتمشى مع الطبيعة من طريق الإستناد إلى مقتطفات يستقيها من كل من باسكال ومونتاني. فارتسمت إمارات الحيرة والإستغراب على وجه الراوي الذي لم ير أدنى علاقة بين هذين الفيلسوفين والدفاع عن اللواط. قال كوريدون إنه يؤيد وجهة نظره بعبارة باسكال التالية: «لشد ما أخشى أن الطبيعة في حد ذاتها هي مجرد الشكل الأول للعادات تماماً كما أن العادات هي الطبيعة الثانية.» وأيضاً استقى كوريدون من مونتاني العبارة التالية: «إن قوانين الضمير التي تزعم أنها وليدة الطبيعة ليست إلا وليدة العبارات.» وبالإضافة إلى ذلك قدم كوريدون إلى محدثه بعض المقتطفات الأخرى منها: «ما من شك أن الطبيعة لا تسير على وتيرة واحدة. ولهذا فإن التقاليد هي التي تجعلها كذلك لأن هذه التقاليد تضع قيوداً على الطبيعة. وفي بعض الأحيان نجد أن الطبيعة تتغلب على التقاليد وتسجن الإنسان في غرائزه بالرغم من كل التقاليد الحسنة والسيئة على حد سواء.» وهنا سأله الراوي إذا كان يريد بذلك أن يقول إن العلاقات الجنسية بين الذكور والإناث هي بكل بساطة مسألة تقاليد. فرد عليه كوريدون قائلاً إنه يهدف إلى القول إن البشر يحكمون وفقاً للتقاليد

عندما يذهبون إلى أن العلاقة الجنسية بين الذكر والأنثى هي وحدها العلاقة الطبيعية.

واعترف الراوي بقوله إن عادة اللواط انتقلت إلى أوروبا من آسيا وأفريقيا وانتقلت إلى فرنسا من ألمانيا وإنجلترا وإيطاليا. فاحتج كوريدون بأن المسألة ليس لها علاقة بجنس دون الآخر وأضاف أن المسلمين يعتقدون أن الشذوذ الجنسي غريب عنهم فهو أمر سيّيء مستورد من أوروبا. وأكد كوريدون أن اللواط ظاهرة إنسانية عامة وليست ظاهرة قومية. وأوضح أن المجتمع يسعى جاهداً إلى طمس هذه الحقيقة بالتأكيد على أن الحب بين الذكور والإناث هو الشيء الطبيعي. ويستشهد برأي إسكندر ديماس الإبن الوارد في مقدمة كتابه «مسألة نقود» والقائل باستسلام المرء أمام هذه الضغوط الإجتماعية الرهيبة. عندئذٍ قال الراوي إن المحاكاة تلعب دوراً في الإقتداء بأهل لوط. فأجابه كوريدون أن الرغبة في المحاكاة لم تكن لتؤتي ثمارها في هذا الشأن لولا نزوع المرء إلى ممارسة اللواط مضيفاً أن اللواط موجود في كل مكان وزمان مثل سائر الرغبات الطبيعية. وهنا سأل الراوي محدثه قائلاً: «إذا كان الأمر كذلك فإن ممارسة السادية والقتل شيئان طبيعيان أيضاً.» يذهب كوريدون إلى أن السادية أمر طبيعي للغاية بدليل أن ممارسة الجنس عند القطط تختلط فيها الخربشات بالملاطفات والتربيت مضيفاً أن السادية تصاحب علاقة الذكور بالإناث أكثر مما تصاحب علاقة الذكور بالذكور.

ويقول كوريدون إنه بالرغم من كثرة ما كتب عن الحب فإن أصحاب النظريات في الحب قلائل باستثناء أفلاطون في مناظرته عند الأقدمين وكتابات شوبنهور عند المحدثين. وهنا قاطع الراوي محدثه مذكراً إياه بكتاب دي جورمونت الذي يحمل عنوان «فسيولوجية الحب». فرد كوريدون بأنه قرأ هذا الكتاب وأنه يعيب عليه إنكار الحب ويصوره على أنه لا يعدو أن يكون معاشرة حيوانية. وأوضح كوريدون نظريته الجديدة في الحب ومفادها أن الحب إختراع إنساني تماماً وليس له وجود في الطبيعة، فلم يفهم الراوي معنى هذه المقولة التي تنكر وجود الحب والغريزة الجنسية، فاستطرد كوريدون قائلاً إن دي جورمنت يخطيء عندما يفسر الغريزة الجنسية بأن قوة لا مفر من طاعتها تعمل بالدقة نفسها التي تتسم بها الغرائز الأخرى. وأمام إلحاح محدثه أقرّ كوريدون بأنه لا ينكر الغريزة الجنسية بقدر ما ينكر الدقة الآلية أو الأوتوماتيكية المنسوبة إليها، ذاهباً إلى أن الغريزة الجنسية تفقد دقتها بارتقاء الإنسان في سلم التطور الحيواني. ثم أضاف إن محدثه يستخدم تعبير الغريزة الجنسية للدلالة على حزمة من السلوكيات الأوتوماتيكية أو على الأقل حزمة من الميول الشديدة الإرتباط ببعضها البعض في أنواع الحياة الدنيا، ولكن هذه الحزمة تزداد في تفككها كلما صعد الحيوان في سلم الإرتقاء. ويضيف كوريدون أن هذه الغريزة ليست على منوال واحد لأن اللذة التي توفرها عملية الإنجاب لكل من الرجل والمرأة ليست بالضرورة أو على إطلاقها مرتبطة بعملية الإنجاب، ومن

ثم فإن الحيوان يسعى إلى اجتناء اللذة الجنسية بغض النظر عن عملية التلقيح والإنجاب التي تحدث بمحض الصدفة. ويعرض كوريدون لنظريتي أفلاطون وشوبنهور في الحب قائلاً إن كلا الفيلسوفين يعترف باللواط مع فارق واحد هو أن أفلاطون يعتبر ممارسة اللواط شيئاً أساسياً في حين يعتبره شوبنهور استثناء من القاعدة. ثم يسوق كوريدون شرحاً للنظرية التي ينادي بها عالم البيولوجيا والإقتصاد الأمريكي لستر وارد الذي يرى أن معظم علماء الأحياء يخطئون عندما يظنون أن الذكر هو الممثل الحقيقي للنوع الحيواني وأن الأنثى تابع له. ويؤكد لستر وارد أن الطبيعة يمكنها الإستغناء عن الذكر ولكن لا يمكنها أن تستغني عن الأنثى، فالأنثى لا تمثل النوع فقط بل هي النوع نفسه. ويستند وارد في تأييد وجهة نظره إلى تتبع عنصر الذكر في النوع الحيواني خلال مراحل تطوره المتنوعة. يقول وارد إننا نشاهد في الكائنات الجوفمعويات المعروفة Coelentrates عضوي الذكورة والأنوثة في آن واحد. فأنثى الجوفمعويات تحمل على جسدها كائناً طفيلياً يكبرها بنحو خمسين أو مائة مرة ويتعلق بها بهدف تلقيحها، تماماً مثلما تفعل النساء في المجتمعات البدائية المتوحشة اللائي يعلقن عضو التذكير حول رقابهن. وقد كان تشاميسو أول من تنبه إلى هذه الظاهرة في كتابه «بيتر تشيليمهل»، ثم أخرج كوريدون من رفوف مكتبه مجلدين كاملين نشرهما تشارلـس داروين عام ١٨٥٤ ليشرح فيهما الكائنات المعروفة بإسم Ciripedes التي تتميز بالجمع بين عضو التذكير والتأنيث. ويضيف داروين أن بعض الكائنات الحية تشتمل على ذكور ذوي حجم ضئيل وظيفتها حمل الحيوانات المنوية دون أن يكون لهذه الذكور فم أو جهاز هضمي. واكتشف داروين أن ثلاثة أو أربعة من هذه الذكور تتعلق بجسد الأنثى، الأمر الذي دفعه إلى تسميتها بالذكور التكميلية. وهذا شيء شائع بين بعض الطفيلات المعروفة بإسم القشريات Crustaceans. وإثباتاً لصحة رأيه أطلع كوريدون محدثه على صورة أنثى الغضروفيات المعروفة بإسم Chondracanthus Gibbocus التي تحمل على جسدها عضو تذكير ضئيلاً. وبعد أن تتم عملية التلقيح نجد أن هذه الذكور العالقة تحتفظ بمخزون من الحيوانات المنوية الزائدة على حاجة التلقيح. وطبقاً لما يقول لستر وارد فإنه بانحطاط الأنواع في سلم الرقي وفي الأحوال العادية نلاحظ زيادة في عدد الذكور بالمقارنة بعدد الإناث. وإناث الأنواع الدنيا لا تسمح أن يواقعها عدد من الذكور في الوقت نفسه، الأمر الذي يؤدي إلى وجود عدد من الذكور الذين لا تتاح لهم فرصة مواقعة الإناث بطريقة طبيعية. أما في الحالات التي يقل فيها عدد الذكور عن عدد الإناث فإننا نجد أن هذا يؤدي إلى معاشرة الذكور للإناث عدة مرات. غير أن أنثى الحيوان تهدأ ولا تحتاج إلى المواقعة بمجرد حدوث عملية التلقيح. ولهذا نجد أن قطيع الحيوان يكفيه للتلقيح «طلوقة» واحدة. وفي حالة إخصاء بقية الذكور والإكتفاء بطلوقة واحدة تتحول هذه الذكور إلى ما يشبه الإناث وتصبح مجالاً للتغير

البيولوجي وخلق ما يمكن تسميته بالإزدواجية الجنسية. وإلى هنا تنتهي المحاورة الثانية في اليوم الثاني لتستكمل في اليوم الثالث حيث يحدثنا كوريدون عن سفه الطبيعة وإسرافها.

ثم يستكمل كوريدون نظريته في الحب فيقول إن الطبيعة تتصرف بإسراف وتبذير يبلغ حد الخلل. والدليل على ذلك العدد الهائل من البويضات التي تضعه الأنثى والعدد الهائل من الحيوانات المنوية التي يقذف بها الذكر. يقول كوريدون إنه وفقاً لتقديرات داروين فإن دودة البحر المعروفة بإسم الدوريس البيضاء تضع أكثر من نصف مليون بويضة ومع ذلك فإن الأعداد الموجودة من هذه الذودة محدودة للغاية. ومعنى هذا أن الوفرة الهائلة في عدد بويضات الدوريس لا تعني الكثرة في إنجابها، بالعكس فإن الأمر يوحي بأن عملية التلقيح تكتنفها الصعوبات رغم إسراف الطبيعة في إنتاج وسائل التلقيح. ولهذا يذهب داروين إلى أن علماء الأحياء يخطئون عندما يظنون أن الزيادة في أعداد أي نوع تعتمد على قدرته على التناسل. ويستطرد داروين قائلاً إن الشيء نفسه يحدث مع حبوب لقاح أشجار المخروطيات أو الصنوبريات. فهذه الأشجار تختنق من كثرة حبوب اللقاح المتراكمة فوقها لدرجة تعوق وصولها إلى البويضة، الأمر الذي يدل على أن التلقيح يحدث بمحض الصدفة؛ ويشبّه كوريدون هذه المسألة بصياد غير ماهر في دقة التصويب ويخشى الفشل في إصابة الهدف فيعتمد في إصابته على إطلاق كم هائل من الطلقات. ومن ثم يذهب كوريدون إلى أن الغريزة الجنسية ليست محكمة أو متقنة، ولهذا فهي تعتمد في استمرار النوع على الوفرة في إعداد الذكاء كإجراء وقائي ضروري. ويضيف كوريدون أن الذكر ضروري لتلقيح الأنثى دون أن يعني هذا أن الأنثى ضرورية لإشباع رغبات الذكر.

وعندئذٍ انتقل كوريدون إلى الحديث عن العلاقة الجنسية بين الكلاب منتهزاً فرصة إشارة محدثه إلى أنه يحتفظ بكلبة وأنه لاحظ أن كلباً ذكراً يأتي إليها من أقصى القرية كي يجتمع بها. وعلّق كوريدون على ملاحظة محدثه بقوله إن الكلب لا يأتي الكلبة إلا إذا رآها في حالة هياج جنسي وأنه يتركها وشأنها في غيرها من الحالات. والذي يجذبه إلى الكلبة أنها في حالة استثارتها تنبعث منها رائحة يشمها الكلب من على مبعدة فيسعى إلى معاشرة الكلبة التي تصدر عنها هذه الرائحة. ويضيف كوريدون أن رائحة الكلبة أثناء هياجها لا تجذب إليها الكلب الذكر فحسب بل تجذب إليها أيضاً إناث الكلاب التي تقترب من الأنثى الهائجة تحاول اعتلاءها على نحو غليظ. ولهذا السبب يقوم المزارعون بفصل البقرة الهائجة عن بقية الأبقار حتى لا تتعرض لتحرش هذه الأبقار بها. ويخلص كوريدون إلى القول إنه إذا كان الكلب يستثار جنسياً نتيجة الرائحة التي تنبعث من الأنثى فإن هذا لا يعني أن ذلك هو الوقت الوحيد الذي يشعر فيه الذكر بالإثارة الجنسية.

ويتطرق كوريدون إلى الحديث عن ظاهرة الشذوذ الجنسي لدى الحيوانات فيقول إن الخبير بشئون الحمام م.ج. بايلي يذهب إلى أن الحمام بالذات يميل أكثر من غيره من الطيور إلى الشذوذ الجنسي. وهو ما يؤكده عالم النفس المعروف هافيلوك إليس فضلاً عن العالم الإيطالي موسيولي الذي يقول إن ذكر الحمام المعروف بالحمام البلجيكي يمارس الشذوذ في حضرة أنثاه. ويمارس اللواط أيضاً كل من البط والدجاج وطائر الحجلة (Partridge). وتأسيساً على ما تقدم يعترف كوريدون بأن الكلب الذي يفقد تماماً إحساسه بالرائحة التي توجهه إليه أنثاه قمين بأن يتحول إلى كلب شاذ جنسياً. ويذكر كوريدون أن المتخصص سانت كلير ديفيل يقول إنه لاحظ أن ذكور الماعز والخراف والكلاب التي تجد نفسها معزولة عن إناثها تمارس الشذوذ مع بعضها البعض وهو الأمر الذي نلاحظه مع طلبة المدارس الداخلية.

المحاورة الثالثة

يقول كوريدون في محاورته الثالثة إن إناث الحيوان تجذب الذكور نحوها من طريق الرائحة التي تنبعث منها وهي في حالات الحيض، في حين أن الرجل يمتنع عن مواقعة المرأة في فترات حيضها. ويؤكد كوريدون كما سبق للإغريق أن بينوا أن جسم الرجل أكثر تناسقاً وجمالاً ورشاقة من جسم المرأة. ولهذا نرى النحات الإغريقي يحرص على نحت جسم الرجل عارياً في حين أنه ينحت جسم المرأة مكسواً بغطاء. والرأي عنده أنه ليس أدل على افتقار جسم المرأة إلى الجمال من التجائها دوماً إلى تجميل نفسها بالحلى وأدوات الزينة؛ ويضيف كوريدون أن داروين نفسه لاحظ هذا عندما وطأت أقدامه أرض تاهيتي عام ١٨٣٥ فقد شد انتباهه روعة وجمال الذكور من أهالي تاهيتي بالمقارنة بمنظر نسائها غير اللطيف. ويستطرد كوريدون قائلاً إن إعلاء الفنون التشكيلية من قدر المرأة جاء مواكباً لفترات التدهور وهو تدهور يذكرنا بالإضمحلال الذي أصاب المسرح عندما استبدل النساء بالغلمان الذين يمثلون أدوار النساء كما كان الحال في المسرح الأليزابيتي. ويسوق كوريدون رأي جوتة في هذا الشأن. يقول جوته شارحاً نشأة الشذوذ الجنسي إن جسم الرجل يفوق جسم المرأة من الناحية الجمالية البحتة. ويؤكد كوريدون أن الشذوذ الجنسي شيء طبيعي للغاية. فضلاً عن أنه لا يقتصر على شعب أو جنس دون الآخر. ويعتبر ديديروس سيكوس من أوائل الذين يشيرون إلى تأصل هذه النزعة المثلية في تاريخ البشر. فبالرغم من أن نساء الجنس الكيلتي يتمتعن بلطف المنظر فإن الرجال الكيلتيين يعرضون عنهن ويفضلون إقامة العلاقات الحميمة مع الذكور. وتتلخص إحدى عادات الكيلتيين في الرقاد على الأرض فوق جلد الحيوان بحيث يرقد الذكر ومن خلفه ومن قدامه إثنان من رفاقه.

والرأي عند كوريدون أن شعر الرعاة عند الإغريق والرومان يمتلىء باللواط. ولكن هذا الشعر فقد الإحساس الطبيعي والصادق وأصبح مصنوعاً ومفتعلاً عندما توقف الشعراء عن حب الغلمان من الرعاة. وبطبيعة الحال لا يفوت كوريدون أن يشير إلى ما ورد في «مناظرة» أفلاطون من دفاع المسرحي الإغريقي المعروف أرسطفان عن اللواط. ويذهب كوريدون أن الطبيعة تسمح بالشذوذ الجنسي في حين أن القوانين والمواضعات الإجتماعية تتواطأ مع المرأة في تحريمه. ولو أن هذه القوانين والمواضعات الإجتماعية اختفت لأصبح عدد اللواطيين في العالم كبيراً. فضلاً عن أن المرأة تؤيد وجود هذه القوانين والمواضعات كما أنها تزيد من إغرائها من طريق الزينة وستر جسدها.

المحاورة الرابعة

ويتناول كوريدون في محاورته الرابعة والأخيرة كتاباً مثيراً للغط والإعتراض نشره ليون بلوم تحت عنوان «عن الزواج». ويشرح هذا الكتاب فيما يشرح مدى إسراف الطبيعة وتبذيرها في عملية حفظ النوع وهو ما سبق كوريدون أن أشار إليه. ويشيد كوريدون بالحياة الإغريقية التي لا تتفوق في النحت والفن التشكيلي فحسب بل في كل من مناحي الحياة التي يعتبر دعاة اللواط أمثال سوفوكل وبندار وأرستوفان وسقراط وأفلاطون خير ممثلين لها. والحياة الإغريقية تتميز في مجملها بالتناسق والتناغم. وهنا يعترض محدثه قائلاً إن اللواط لا يحتل سوى جانب ضئيل من الأدب الإغريقي فيبرر كوريدون هذا بقوله إن مخطوطات الإغريق وصلتنا من طريق الرهبان ورجال الكنيسة في القرون الوسطى ومن المرجّح أنهم استبعدوا منها الأجزاء التي يرونها مشينة وفاحشة. فالذي وصل إلينا من الإغريق قليل من كثير، فاسخيلوس كتب تسعين مسرحية وسوفوكل كتب مائة وعشرين مسرحية في حين أنه لم يصلنا من هذه الأعمال غير سبع مسرحيات على أكثر تقدير. ومع هذا فإن كوريدون يعترف بأن اللواط لا يحتل مكاناً كبيراً في التراجيديا لأن العشق المثلي بطبعه يصور السعادة والهناء ومن ثم لا يتفق مع جوهر التراجيديا. ولكن الشعر الغنائي مفعم بالممارسات المثلية. وينتقل كوريدون إلى الحديث عن الحياة في إسبرطا فيقول إن اتسامها بالنظام الصارم والدقيق والروح العسكرية لم يمنع انتشار اللواط فيها. بل إن اسبرطا لم تسمح بممارسته فحسب بل وافقت عليه أيضاً. وطبقاً لما ورد في كتابات بلوتارك فإن أهل طيبة في اليونان القديمة استنوا قوانين تسمح بممارسة اللواط. وقد تولى الدفاع عن طيبة جماعة من المحاربين الأشداء تتكون من ثلثمائة مقاتل توفر الدولة لهم التدريب وتضمن معاشهم. ويعتقد البعض أن هذه الجماعة كانت تتكون من العشاق الذكور حتى يتعذر على العدو اختراق صفوفهم أو دحرهم. فالعشاق يستمسكون ببعضهم البعض ويواجهون

عدوهم في بنيان مرصوص لا يتهاون عاشق في الدفاع عن عشيقه بل يبلي بلاء حسناً في الدفاع عنه.

والحب عند الذكور في رأي كوريدون يمكنه أن يعرف الإيثار والتضحية بالنفس بل بالطهارة في بعض المناسبات. يقول كوريدون إن أثينا بدأت في طريقها إلى الإضمحلال عندما توقف الأغريق عن ارتياد الجمنازيوم حيث يتدرب غلمانهم وشبانهم على الألعاب الرياضية. ومعنى هذا أنها تدهورت بعد أن تخلت عن ممارسة اللواط واتجهت إلى الجنس الآخر كما هو الحال في أعمال يوربيديس. إنه لمن الخطأ أن نعتقد أن فترات اللواط في التاريخ القديم ليست سوى فترات انحلال. بالعكس نرى أنها أزهى الفترات في هذا التاريخ مثل عصر بيركليس عند الإغريق وأغسطوس عند الرومان وعهد شكسبير في بريطانيا وعصر النهضة في كل من إيطاليا وفرنسا (تحت حكم لويس الثالث عشر) وعصر حافظ عند الفرس. وهي فترات كاد اللواط فيها أن يصبح رسمياً. ويخلص كوريدون إلى القول إن العصور والمناطق التي لم تعرف ممارسة اللواط خالية من الفن. والرأي عنده أن تمجيد الحياة العسكرية يرتبط بفترات اللواط. ولهذا يتساءل ما الذي حدا القوانين التي استنها نابليون أن تخلو من المواد التي تعاقب اللواط. لعل نابليون تحاشى بذلك إحراج بعض من أحسن قواد جيشه.

هذه المحاورات الأربع أقرب ما تكون إلى «المناظرة» عند أفلاطون ليس فقط في دفاعها عن الشذوذ الجنسي بل أيضاً في أسلوب الحوار أو السؤال والجواب الذي اتبعه كمنهج له. وعلى أية حال كان أسلوب الحوار أثيراً إلى قلب المؤلف الذي لم يقصره على مسرحياته فقط بل امتد كذلك إلى رواياته. ويبدو أن حرصه على مشاعر زوجته وخوفه من الإساءة إليها هو الذي منعه من نشر «كوريدون» حتى العشرينات من القرن العشرين. كما أنه سعى بدفاعه عن اللواط أن يكسب رضاء زوجته عنه وخاصة لما رآه فيها من تشدد في رفض الشذوذ الجنسي. ويمكننا اعتبار رواياته «الإباحي»، «إذا لم تمت البذرة» و«كوريدون» أعمالاً كتبها مؤلفنا تحدوه الرغبة الملحة في استرضاء زوجته ومحاولة إقناعها بشرعية الشذوذ الجنسي. وإذا كان أندريه جيد قرر بصفة نهائية عام ١٩٢٤ نشر كتابه «كوريدون» فإن الفضل في ذلك يرجع إلى تشجيع مارسيل بروست له على نشره. والجدير بالذكر أن جيد هو الذي اعترض على نشر رواية بروست «طريق سوان» عندما عرضت عليه إحدى دور النشر الكتاب لأخذ رأيه فيه. ولكن إذا كان جيد قد أخطأ في عدم التنبه لأهمية كتاب بروست «طريق سوان» فإنه احتفى حفاوة شديدة بصدور روايته «البحث عن الزمن الضائع». ففي يناير/ كانون الثاني ١٩١٤ أعرب جيد عن إعجابه بهذه الرواية في خطابين أرسلهما إليه. ويبدو أن جيد لم يقابل بروست لفترة طويلة تناهز ساعة كاملة إلا في ١٣ مايو/ أيار ١٩٢١. وقد حدث اللقاء بين الرجلين عقب نشر

بروست لروايته المدافعة عن شواذ الجنس التي تحمل عنوان «مدائن السهل» حيث وصفهم بروست بأنهم «هؤلاء الجنس الملعون الذين يضطرون إلى العيش في زيف وكذب، لأنهم يدركون أن رغباتهم عار لابد من عقابهم عليه.» وقد أهدى جيد نسخة فاخرة من كتاب «كوريدون» الذي نشره دون أن يضع إسمه عليه إلى بروست. فكان من الطبيعي عند التقائهما أن يدور الحديث بينهما حول اللواط. يقول جيد في يومياته إن بروست في حضرته لم يحاول إنكار شذوذه الجنسي أو إخفاءه بل جاهر به فيما يشبه الزهو. وقال إنه لم يحب النساء في حياته قط إلا من الناحية الروحية وإنه لم يعرف الحب إلا مع أمثاله من الذكور. وعندما التقى جيد ببروست عبر بروست عن ندمه على ما أبداه من تردد في الدفاع عن الشذوذ الجنسي لأن هذا أدى في كتاباته إلى توجيه أرق مشاعر الحب والود عند وصفه علاقات الحب بين الذكور والإناث. ولذلك لم يبق في جعبته غير القبح والفظاعة يصف بها العلاقة التي تربط بين الذكور والذكور. واتهم جيد بروست بأنه يسعى في كتاباته إلى إظهار استنكاره للوّاط فاحتج بروست على هذا الإتهام وعبر عن تعاطفه الكامل مع ممارسته.

ويعتمد جيد في دفاعه عن اللواط على شواهد التاريخ والتاريخ الطبيعي والفنون وعلوم الإجتماع والأخلاق. وكتاب «كوريدون» يخلو تماماً من العاطفة فهو مكتوب بأسلوب بارد يخاطب العقل ولا يخاطب العاطفة. ويعترف جيد في هذا الشأن أن هدفه من الكتاب ليس إثارة العطف أو الشفقة على شواذ الجنس بل إحراج الشعور العام وتحديه بأن يثبت للناس أن ممارسة الشذوذ الجنسي شيء طبيعي لا يدمر الأخلاق أو المجتمع. ويضيف جيد أنه أراد أن يحل مشكلة شذوذه الجنسي بالكتابة عنها والتصدي لها وجهاً لوجه حتى ينفس عن مكبوتاته. ولم يشك لحظة واحدة في أهمية كتابه. ولكن بعض الشكوك راودته أحياناً في صلاحية الشكل الأدبي الذي اختاره له.

وفي فترة الإحتلال النازي لفرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية عاش جيد في المنفى. ولكنه عاد إلى باريس عام ١٩٤٦ بعد اندحار النازية على يد الحلفاء. واقترح أصدقاؤه على الأكاديمية الفرنسية (أو مجمع الخالدين) انتخابه عضواً فيها. ولكن كتابه «كوريدون» السيىء السمعة وقف حائلاً دون ذلك. وقد كتب في يومياته يقول إنه إذا اختير عضواً في مجمع الخالدين فسيكون أول عمل يقوم به هو كتابة تصدير جديد يبين فيه أهمية «كوريدون» البالغة. ولكن على أية حال لم تمتنع الإكاديمية السويدية من ترشيحه لجائزة نوبل للأدب. وبلغ من تحمس السكرتير الدائم للأكاديمية الفرنسية أنه امتدح المؤلف وجرأة اعترافاته في «كوريدون» كما امتدح وقوفه في وجه النفاق الإجتماعي وحبه للحقيقة وهو الأمر الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ من الأدب الفرنسي منذ مونتاني وروسو.

لقد نصح أوسكار وايلد كاتبنا بعدم الكشف عن هويته عند معالجته مشكلة اللواط. وبعد مضي ثلاثة وعشرين عاماً قال له بروست الشيء نفسه. ولكن أمانة أندريه جيد الرائعة مع النفس دفعته إلى ذكر الحقيقة عن نفسه مما جعل السير أدموند جوس يبدي دهشته من هذه الإعترافات التي لم يكن جيد مضطراً إلى الإدلاء بها لأن أحداً لم يوجه إليه أي اتهام. ويفسر جيد هذا الصدق الرائع مع النفس بقوله إنه من الجائز أنه يرجع إلى نشأته البروتستانتية التي تفزع من الزيف وتنفر من الخداع والتمويه. يقول كاتبنا في هذا الشأن: «كتبت هذا الكتاب كي أجعله سابقة وأعطي به مثلاً يحتذى في الصراحة وتنوير البعض وطمأنة البعض الآخر وإجبار الرأي العام أن يأخذ في اعتباره ما لا يعرف أو يدعي عدم المعرفة به. الأمر الذي يلحق بالغ الضرر بنفسية الإنسان والأخلاق والفن والمجتمع.» وفي كتابه عن دستيوفسكي عبر جيد عن عظيم استمتاعه بجنوح الروس إلى الإعتراف بخطاياهم بكل صراحة إمعاناً منهم في اتهام أنفسهم وإذلالها. وينسب بعض النقاد ممارسة جيد للمثلية إلى انجذابه نحو كل ما هو ممنوع ومحرم. غير أن جيد يدحض هذا الرأي بقوله: «لا. إن المنع والتحريم لا يثيران عندي الرغبة على الإطلاق». ولا شك أن مؤلفنا كان يأمل عن طريق إثبات مشروعية اللواط أن يجعل المجتمع يقبل اللواطي على علاته. لقد كان جيد ينظر إلى دفاعه عن اللواط باعتباره دعوة إلى الإصلاح كما أنه كان مقتنعاً بأن أية حركة اصلاحية مردها شيء من عدم الإتزان من الناحية الفسيولوجية. ولعله كان يفكر في حالته عندما ذهب إلى هذا الرأي. ومن ثم فإن هدفه من الكتابة عموماً والكتابة عن اللواط بوجه خاص كان الوصول بالشواذ إلى حالة انسجام مع النفس.

ويرى الدارسون أنه في حياة جيد الزوجية منطقة تكاد تكون مجهولة تماماً. فهو لا يذكر شيئاً ذا بال عن زوجته مادلين بل يتعمد إغفال سيرتها في يومياته. حتى أصدقاؤه المقربون منه امتنعوا عن ذكر أي شيء عنها في حياته حتى يتجنبوا إغضابه. ويؤكد لنا جيد أن علاقته بمادلين لم تتعدّ أن تكون علاقة روحية خالصة (توفيت زوجته في ١٧ أبريل/نيسان ١٩٣٨). غير أن جيد نفسه ظل حتى سن الخامسة والسبعين يستمتع بممارسة شذوذه.

ومن نافلة القول إن معظم علاقات جيد اللواطية كانت علاقات عابرة وموقوتة تكاد أن تخلو تماماً من الحب والعواطف. ولكن إحدى علاقاته التي دامت عشر سنوات من ١٩١٧ حتى ١٩٢٧ كانت مختلفة. ففي أغسطس ١٩١٧ سافر جيد وهو في الثامنة والأربعين من عمره إلى سويسرا ليقوم بمهمة إقناع غلام فرنسي رائع الحسن والجمال في نحو الخامسة عشرة بالرجوع معه إلى أهله في فرنسا. فعشقه كاتبنا. وتتضمن يوميات جيد إشارات عديدة إلى هذا الغلام وخاصة في عامي ١٩١٧ و١٩١٨. وكثيراً ما اصطحب هذا الغلام في رحلات وأسفار

إلى أماكن مختلفة من العالم. ففي سبتمبر/ أيلول ١٩٢٣ اصطحبه في رحلة إلى تونس. واستبدت به لواعج الغيرة عندما رأى الغلام ينصرف عنه ويقع في غرام عشيقة تدعى برونجا. وبحلول عام ١٩٢٤ خشي جيد أن يفقد هذا الغلام فأجل سفره إلى الكونغو لحين انتهاء هذا الغلام من امتحاناته. ثم اصطحب عشيقه في رحلة طويلة إلى أفريقيا دامت قرابة عام. وأغلب الظن أن مار أليجريه هو إسم هذا العشيق فهو الذي رافقه في هذه الرحلة الأفريقية الطويلة. واكتسب الغلام من هذه الرحلة خبرة ساعدته في أن يصبح فيما بعد كاتب سيناريو ومخرج أفلام. ويعبر جيد في يومياته عن سعادته الغامرة بصحبة هذا الغلام التي أوحت له بكتابة «دار صك النقود المزيفة». ويبدو أن زوجة أندريه جيد استشاطت غضباً من هذا الوضع فقد قامت بحرق كل الخطابات التي أرسلها زوجها إليه في أواخر عام ١٩١٨ ففقد الأدب بذلك كنزاً ثميناً وخاصة لأن جيد ضمن هذه الرسائل أرق وأعطر مشاعره نحو زوجته. ويعلق بيير هربارت صديق جيد ومؤلف سيرة حياته «البحث عن أندريه جيد» عن هذه الحادثة بقوله إنها المرة الأولى التي تعبر فيها مادلين عن احتجاجها العنيف على ممارسة زوجها الشاذة. ويشرح هربارت مدلول هذه الحادثة فيقول إن جيد الذي كان لا يرتبط بأية علاقة عاطفية بغلمانه العرب شعر لأول مرة أنه يخون زوجته مع غلام يحبه. لقد حاول جيد إقناع نفسه وإقناع الآخرين أن الحب شيء مختلف عن الرغبة وأن الروح شيء مختلف عن الجسد، بمعنى أنه بالإمكان إرضاء الجسد بمعزل تماماً عن الحب الروحي. وتختلف علاقة جيد المثلية مع مار أليجير عن سائر علاقاته المثلية العابرة الأخرى في أنها تحولت إلى علاقة جسدية وروحية معاً. وبلغ تأثر جيد بحرق خطاباته الجميلة مبلغاً جعله يبكي على ضياعها لمدة أسبوع كامل، لأنه ضمن هذه الخطابات أرق خلجات حبه الروحي لزوجته منذ أن عرفها في طفولته. ولا يستطيع الدارسون أن يجزموا بأن جيد اعترف بشذوذه إلى زوجته قبل الزواج ولكن هناك احتمالاً أن يكون قد اعترف لها به عقب الزواج وعقب اكتشافها أنه لايمارس الجنس معها كما تقتضي واجباته الزوجية أن يفعل.

وبعد وفاة جيد بعامين ظهرت مجموعة من الخطابات الشائقة التي أرسلها هذا الكاتب إلى صديقه الشاعر الكاثوليكي بول كلوديل. فقد أبدى كلوديل انزعاجاً شديداً بسبب إحدى الصفحات الواردة في قصته «مخازن الفاتيكان الموجودة تحت الأرض» فأرسل إلى مؤلفها يستفسر منه إذا كان لواطياً أم لا. وتلقى منه اعترافاً صريحاً بلواطه قال فيه «إنني الآن أخاطب صديقاً وكأنني أخاطب قسيساً يحتم عليه واجبه المتشدد أن يحافظ على سري الذي أبوح به له أمام الله. إنني لم أشعر في حياتي بأية رغبة نحو النساء وإنه ليحزنني أشد الحزن أن أجد أن أكثر صنوف الحب استقراراً ودواماً وعظمة لا تصاحبها مشاعر الحب التي تسبقها في العادة. بالعكس يبدو أن الحب يقتل الرغبة عندي.» وحتى لا يشتم بول كلوديل من هذا أنه لا يحب

زوجته نراه يضيف قائلاً: «أبتهل إليك أن تعرف أنني أحب زوجتي أكثر مما أحب الحياة وأنني لن أغفر أي عمل تقوم به أو كلمة تتفوه بها من شأنها أن تعرض سعادتها للخطر.» ويدل هذا الكتاب المؤرخ عام ١٩١٤ أن زوجته كانت حتى ذلك التاريخ لا تعرف أمر شذوذه. ومما يزيد الأمور تعقيداً أن إشاعة قوية سرت في أواخر حياة مؤلفنا مفادها أنه أنجب فتاة غير شرعية إسمها كاثرين.

إن جيد في علاقاته اللواطية كان يتعمد عدم الإرتباط عاطفياً بمن يلوط بهم حتى يتجنب الإعتماد على أي منهم. يقول جيد في هذا الشأن: «إنني بقدر ما أتذكر لم ألهث وراء أحد طيلة حياتي.». والرأي عنده أن تبادل العواطف بين المحب والمحبوب كفيل بالقضاء على الرغبة فيه. يقول جيد هنا «إن غريزتي في الحال تحذرني من التورط في هذا التبادل. وهنا يكمن أحد أسرار سعادتي». وأيضاً يقول جيد: «أما بالنسبة لذوقي الجنسي فإني لم أخف حقيقة أمري إلا إذا وجدت أنهاقد تضايق الآخرين، كما أني لم أشعر بالزهو بأفعالي. إنني لا أخفي ما أفعل. وأحد أسباب ذلك أنني لم أر فيما أفعل عاراً يشينني. إن ما أفعل لا يهم أحداً غيري».

وفي مارس ١٩٤٣ ألفى جيد نفسه محاصراً في تونس الواقعة آنذاك تحت وطأة الإحتلال النازي. وكانت أوراقه الخاصة في بيته بباريس فراوده القلق بشأنها. ولكن مخطوطاته في باريس ظلت رغم الإحتلال سليمة، الأمر الذي مكّن نشرها عام ١٩٤٧.

كان كتاب «آمين» آخر ما سطره يراع جيد قبل وفاته. ولم يندم حتى وهو على فراش الموت على لواطه. ولم تكن حياته اللواطية تؤرقه مطلقاً بل كان منزعجاً بسبب اعتقاده بأنه لم يكتب كل ما ينبغي عليه كتابته وأنه سوف يرحل عن الدنيا وقد ترك مؤلفاته ناقصة دون أن يضع يده على وجه النقص فيها. يقول مؤلفنا في «آمين»: «لست أبالي إذا كانت هذه الكلمات الفاضحة سوف تصدم مشاعر البعض الذين يعتبرونني فاسقاً. لقد آليت على نفسي ألا أهتم بهذا. ولكني أحب أن ازداد يقينا من أنني إذا أعدت قراءتها فلن أشعر بالحرج منها. هل من الحقيقي أن أفكاري الأخيرة تتبلور حول أقل الأشياء روحانية رغم أنه يجوز أنه لا يزال أمامي متسع من الوقت لتقديم هذه الأفكار إلى ذلك الإله الذي ينتظر مجيئي إليه والذي أرفض الإيمان بوجوده؟» والغريب أنه استمر في الكتابة حتى الأيام الأخيرة من حياته رغم نوبات الإغماء التي أصابته وأفقدته الوعي.

ويقول جيد في معرض لوم كلوديل له على شذوذه الجنسي: «إنني لم أختر أن أكون ما أنا عليه.» لقد سبق أن ذكرنا أن جيد طلب من كلوديل أن يحافظ على سره. وبالفعل وعده كلوديل بذلك. ولكنه كتب إليه يقول: «ولكنك أنت الذي تتحدث عن نفسك بصراحة

وتجعل كل إنسان يرى أفعالك. إننا لم نشهد من قبل هذه الصراحة في معالجة موضوع اللواط منذ العصر الوثني. فلم يسبق لكاتب أن خاض في هذا الموضوع مثلما تفعل. حتى وايلد نفسه لم يفعل هذا.»

والجدير بالذكر أن إشارات جيد للشذوذ الجنسي لا تقتصر على أعماله الباكرة «إذا لم تمت البذرة» و«شاوول» و«الإباحي» و«مخازن الفاتيكان الموجودة تحت الأرض» . ومن السهل على القارىء أن يجدها في أعماله اللاحقة. ولا شك أن الفضيحة التي أثارتها محاكمة أوسكار وايلد بسبب اتهامه بالشذوذ الجنسي والحكم بحبسه نتيجة لذلك قد اصابت أندريه جيد بالفزع. ولعل هذا كان السبب في التعجيل بزواجه من مادلين أملاً بالهرب من شيطان اللواط الذي يسكنه. ولكن الزواج لم يمنع شيطان اللواط من ملاحقته مما جعله يستسلم له حتى في الأيام الأولى من زواجه. لقد أشرنا إلى معاكسته للصبية العرب في حضرة زوجته الأمر الذي جعلها تعنفه وتنهره. ويعترف جيد بهذا قائلاً: «تصرفت كإنسان غير مسئول. لقد كان الشيطان يسكنني». ويبدو أنه كان هناك صراع داخلي بينه وبين نفسه في بادىء الأمر. فكتاباته الباكرة مثل «كراسات أندريه والتر» تساوي بين رغباته اللواطية والجنون. ولكنه ما لبث أن اعتاد هذا الجنون لدرجة أنه اعتبره شيئاً طبيعياً ولا غبار عليه من الناحية الأخلاقية. وتعتبر رواية «الإباحي» وثيقة كاملة تسجل ممارسته للواط. وفيها تتبع جيد التطور العاطفي عند اللواطي. ويعلق كلوديل بقوله إن الرواية تصور صراع مؤلفها المحتوم ضد الشيطان الذي يسكنه واستسلامه لهذا الشيطان في نهاية الأمر. ويقول الدارسون إن رواية «الإباحي» تفوق رواية توماس مان «الموت في البندقية» في تصويرها لما يمر به اللواطي من تطور عاطفي. وإذا كانت رواية «الإباحي» المكتوبة عام ١٩٠٢ تصور صراعه ضد شيطان الشذوذ الجنسي فإن رواية «مخازن الفاتيكان الموجودة تحت الأرض» المكتوبة عام ١٩١٤ تخلو من هذا الصراع وتتسم بالموضوعية والحبور والمرح. ويذكر جيد في بعض أعماله أنه إذا كان بعض اللواطيين أخيارا فإن البعض الآخر أشرار. وكأن جيد بذلك يريد أن يقول إنه لا يريد الإدعاء بأن كل اللواطيين يملكون شخصيات تدعو إلى الإعجاب بهم. ويعتبر الدارسون أن أندريه جيد كان رائداً في مجال الكتابة عن اللواطيين؛ فبينما كان مارسيل بروست يتنصل من لواطه ويخفيه تحت ستار من التهكم نرى جيد لا يخجل من الإعتراف به في وقت لم يكن هناك من يجرؤ على مثل هذا الإعتراف. وظل جيد على مدى نصف قرن من الزمان يدافع عن اللواط حتى أصبح اللواط في الأدب الغربي الحديث جزءاً لا يتجزأ من مقوماته. لقد بدأ جيد حياته شيوعياً يدافع عن الشعوب والأجناس المضطهدة مثل الشعب الفلسطيني، ورأى في دفاعه عن ممارسة الشذوذ الجنسي دفاعاً عن الحرية. ورغم أنه نبذ أفكاره الشيوعية فيما بعد فإنه ظل يدافع عن شذوذه

الجنسي من المنطلق القديم نفسه وهو أن الدفاع عنه هو في واقع الأمر دفاع عن حرية الإنسان باعتبار أن ممارسته شيء طبيعي من ناحية ومسألة شخصية بحتة من ناحية أخرى. وفي عام ١٩٣٥ اشترك جيد في مناظرة عامة قال فيها: «أصبحت بكل حماس وبصفة تكاد تكون منتظمة المدافع عن كل صوت يحاول المجتمع إخراسه (أي الدفاع) عن الشعوب والأجناس المضطهدة وعن الغرائز الإنسانية كما أصبحت المدافع في يومنا الراهن المدافع عن الممنوعين أو العاجزين عن الدفاع عن أنفسهم».

يقول جيد في «كوريدون» في معرض الحديث عن ثلاثة لواطيين معروفين هم: وايلد وكروب وإيولنبرج «إنهم جميعاً أنكروا شذوذهم شأنهم في ذلك شأن بقية البشر... إن الناس تتوفر لديهم الشجاعة عندما يدافعون عن آرائهم ولكن شجاعتهم تخونهم حين يدافعون عن أخلاقهم. فهم يقبلون العذاب ولكنهم لا يقبلون العار». «وبالرغم من جرأة زولا في اقتحام الموضوعات الشاذة فإنه آثر الإنسحاب من موضوع اللواط بعد أن بدأ في معالجته.» والرأي عند البعض أن جيد لم ينجح في تبرير اللواط في عيون الناس كشيء طبيعي ومشروع ولكنه نجح في لفت نظرهم إليه ليس باعتباره شراً ولكن باعتباره مرضاً ينبغي علاجه والشفاء منه. والغريب في حالة جيد أن المجتمع الفرنسي لم يستهجن مسلكه رغم صراحته في الإعتراف بممارسته اللواطية في «إذا لم تمت البذرة» بل أن بعض أفراد هذا المجتمع أظهروا شيئاً من الإعجاب به وبشجاعته. وهذا عكس ما حدث لأوسكار وايلد الذي عامله المجتمع الإنجليزي بكل احتقار واشمئزاز. ولعل هذا يرجع إلى أن الفرنسيين اعتبروه مريضاً في حين اعتبر الإنجليز أوسكار وايلد مجرماً.

ويختلف أندريه جيد في أسلوب معالجته للواط عن أسلوب مارسيل بروست، فمارسيل بروست يصور اللواطيين على أنهم مجموعة من البؤساء الذين راحوا ضحية انحرافهم، في حين يصور جيد اللواطيين على أنهم نماذج إنسانية بديعة. والنتائج التي توصل إليها جيد عن اللواط تشبه إلى حد كبير النتائج نفسها التي توصل إليها فرويد في هذا الموضوع نفسه. يقول جيد في «كوريدون» إنه لا توجد علاقة حتمية أو مطلقة بين اللذة الجنسية والإنجاب بدليل أن الرجل يسعى إلى تحقيق هذه اللذة بغض النظر عن الإنجاب. فعملية الإنجاب ليست الأساس في الممارسة الجنسية والإنجاب لا يعدو أن يكون نتيجة عابرة. ويقول فرويد الشيء نفسه: «إننا نخطيء عندما نظن أن الجنس والإنجاب شيء واحد.» ويذهب جيد في «كوريدون» إلى أن المرأة تتحايل على جذب الرجل إليها من طريق الحلي والزينة والمساحيق. ثم يقوم المجتمع بإستكمال الباقي من طريق زرع مجموعة من الأفكار الجنسية في عقل الرجل ووجدانه مفادها أن المرأة هي وسيلة الرجل الطبيعية لتحقيق اللذة الجنسية. ويقول فرويد شيئاً مشابهاً عندما يذكر

أن الشاب في فترة المراهقة ينجذب نحو كلا الجنسين وأن المواضعات الإجتماعية والأخلاقية في المجتمع هي التي توجهه إلى جنس الإناث عند بلوغه مرحلة النضوج. وقد عالج جيد هذه النقطة في «كوريدون» عندما أشار إلى ازدواجية توجهات الإنسان الجنسية عند المراهقة.

يقول جيد في «كوريدون» إن داروين أخطأ عندما ذكر أن الأنثى في عالم الحيوان تختار من الذكور ما يتميز بالجمال وأن مثل هذا الإختيار من شأنه تحسين النوع. ويعبر كوريدون عن تشككه في رأي داروين، فالرأي عنده أن الذى يجذب أنثى الحيوان إلى ذكره ليس جمال الذكر بل قوته وبأسه. ومعنى هذا أن أنثى الحيوان في واقع الأمر لا تختار ذكرها. ومعنى هذا أيضاً أن الجمال الذي يتحلى به الذكر شيء إضافي. والرأي عنده أن الإنسان يختلف عن سائر الحيوانات في أن انجذابه نحو المرأة لا يعتمد على أية رائحة تنبعث منها في حالة هياجها الجنسي. ولكنه ينجذب إليها بدافع متعته لا غير. ومن ثم فإن دور المرأة هو حفظ النوع في حين أن دور الرجل هو التنوع والتجريب والمتعة والغناء. والرجل ليس محكوماً بالآليات الغريزية نفسها التي تتحكم في مسلك الحيوان الجنسي فهو يتمتع بحرية في اشتهاء امرأة دون الأخرى. ويستشهد جيد بالحديث الذي يقال إنه دار بين الشاعر الألماني الكبير جوته والمستشار مولر. يقول جيد في هذا الصدد: «لقد شرح لنا جوته كيف أن هذا الشذوذ عن القاعدة (أي اللواط) يرجع في الحقيقة إلى أن جسم الرجل من الناحية الجمالية الخالصة يفوق بكثير جسم المرأة في حسنه واكتماله».

وفي المحاورة الرابعة من «كوريدون» يناقش جيد الإقتراح الذي تقدم به ليون بلوم في كتابه «عن الزواج». ومفاد اقتراحه أن الرجل يتمتع بنشاط زائد. ومن ثم فلا مناص أمام المجتمع غير التخفيف من قيوده الإجتماعية بحيث يسمح للرجال قبل الزواج بإقامة علاقات جنسية مع نساء الطبقة العليا. واعترض جيد على حل مشكلة نشاط الرجل الجنسي الزائد على هذا النحو. واقترح بدلاً منه السماح باللواط واعتباره شيئاً طبيعاً. وفي هذه المحاورة الرابعة نراه يؤكد ما سبق أن ذهب إليه من أن الرغبة الجنسية شيء منفصل عن الحب وأن الهدف من الزواج ليس للإنجاب فقط.

وليس من شك في أن جيد في كل محاوراته ومناقشاته يسعى إلى إيجاد مبررات لشذوذه الجنسي كما أنه يحاول أن يطمئن نفسه ومن كان على شاكلته أنه إنسان سوي وطبيعي. وهو منطق لا يستسيغه إلا شواذ الجنس الذين يحلو لهم أن يثبتوا لأنفسهم أنهم ليسوا بالوحوش بل هم أبناء الطبيعة لا فرق بينهم وبين سائر البشر الأسوياء. ويبدو أن جيد لم يستطع التخلص تماماً من نشأته الدينية البيوريتانية المتزمتة بدليل أنه رغم لواطه يعتقد أن الطهارة الجنسية تفوق كلاً

من اللواط والعلاقة بين الرجل والمرأة، وبدليل أنه كان يرضي شهوته اللواطية دائماً في إيطاليا وتونس والجزائر أي خارج حدود فرنسا. وكان يجد متعة خاصة في معاشرة الصبية العرب.

والجدير بالذكر أن صديقه كلوديل حاول أن يقنعه بالتحول إلى المذهب الكاثوليكي. ولكننا نراه يقول في فبراير ١٩١٢ «الكاثوليكية مذهب لا يمكن قبوله والبروتستانتية مذهب لا يطاق. ولكني أشعر في أعماقي بأني مسيحي.» وهو قول أشد ما يكون غرابة. ولم تسكت الكنيسة الكاثوليكية على استهزائه القاذع بالدين المسيحي، فلم يمر وقت طويل على وفاته عام ١٩٥١ حتى اجتمع المجمع المقدس بالفاتيكان في ٢٤ مايو/ أيار ١٩٥٢ ليصدر بياناً بإدانة جميع مؤلفاته وحظرها من التداول بين الكاثوليك. ونشرت صحيفة الأوبزرفتوار الروماني تعليقاً على هذا الحظر هاجمت فيه عداء جيد الشديد للمسيحية واستخفافه بها حتى وهو على فراش الموت وأنحت عليه باللوم لأنه رفض الإستماع إلى نصائح زوجته الكاثوليكية وأصدقائه الكاثوليك أمثال جام وكلوديل وجيون ودي بو ومورياك. وهاجمته هذه الصحيفة لأنه قال عن ترسخ العقيدة المطرد في روح زوجته: «بدا لي وأنا أراقب ترسخ العقيدة المطرد في روحها وكأنني أراقب انتشار الغرغرينة فيها.» وقوله: «إن المسيح بإيمانه وبدعوتنا إلى الإيمان بأنه شريك في المسؤولية مع الله عن كل الأشياء كان يخدع نفسه ويخدعنا معاً.». وأشارت الصحيفة إلى المثل السيىء الذي أعطاه بلواطه وإلحاده لجيل كامل من الشباب ليس في فرنسا وحدها بل خارجها، وأيضاً أبرزت أسلوب أندريه جيد في النيل من المسيحة والزراية بها فقد كان من عادته أن يقتبس باللغة اللاتينية الآيات الأثيرة إلى قلوب المؤمنين ويستخدمها في إطار مستهزىء. ولم يتورع من أن يعمل في المسيحية نهشاً وتمزيقاً حتى وهي تناديه إلى حظيرتها. ولهذا لم يكن في مقدور الكنيسة المسيحية السكوت على تجديفه وبذاءاته، ومما يزيد من أسف الكنيسة الكاثوليكية على ضياعه أنه كاتب شاعري موهوب ليس في موهبته أدنى شك.

- ٣ -

مارسيل بروست
(١٨٧١ - ١٩٢٢)

الفصل الثالث

حظي مارسيل بروست بتكريم الدوائر الأدبية خارج فرنسا أسرع مما حظي به من داخلها. ففي عام ١٩٢٤ أي بعد وفاته بعامين اعترف الفيلسوف الأسباني المرموق أورتيجاي جاسيه بريادته. فضلاً عن أن الناقد الألماني إرنست روبرت كيرنيوس ذهب إلى أنه يتفوق على فلوبرت في الذكاء وعلى بلزاك في الموهبة الأدبية وعلى ستندال في فهمه للحياة والجمال. ورغم أن عقد الثلاثينات في القرن العشرين شهد شيئاً من أفول نجمه، إلا أنه سرعان ما عاد إليه بريقه ولمعانه. ففي عام ١٩٤٣ أعلن الأديب الإنجليزي ريموند مورتمير: «لا يوجد روائي استطاع أن يضفي على شخصياته الروائية واقعية أكثر مما فعل بروست. ونحن نعرف عن شخصياته أكثر بكثير مما نعرف عن أية شخصيات روائية أخرى. ولهذا السبب وحده فإني أعتقد أنه أفضل بكثير من جميع الكتاب الذين أصابوا الشهرة والنجاح في أيامي.».

وإذا كنا لا نعرف عن حياة توماس مان الجنسية وغيره من شواذ الجنس بين الأدباء سوى النذر اليسير، فلا مناص من الإعتراف بأن الباحثين كشفوا النقاب عن كل كبيرة وصغيرة في حياة مارسيل بروست الجنسية. وإلى جانب كتاب السيرة الفرنسيين استطاع الأمريكي ريتشارد باركر في عام ١٩٥٨ والإنجليزي جورج بانتر في عامي ١٩٥٩ و١٩٦٥ أن يميطا اللثام عن كثير من أسرار بروست الجنسية.

وإنها لمفارقة أن يجد الدارسون في حياة مارسيل بروست اللاحقة نزوعاً نحو ما يسمونه «التصوف العلماني» ما جعل المعجبين به يصفونه بأنه قديس وملاك ساقط. ورغم ازوراره عن الدين فليس هناك شك في أنه اقتفى أثر الشاعر الإنجليزي جون راسكين في افتتانه بالعمادة

الدينية في القرون الوسطى. والجدير بالذكر أنه لم يتأثر بالمذهب الكاثوليكي أو بالتقاليد اليهودية التي نشأت أمه في ظلها. كانت أمه وإسمها جين وتل إبنة سمسار يهودي ثري ظلت على دينهااليهودي بعد الزواج من أبيه الكاثوليكي دون أن تمارس في حياتها اليومية الطقوس والشعائر اليهودية ورغم بعد مؤلفنا عن الدينين المسيحي واليهودي فإنه أظهر تعاطفاً مع قضية الضابط اليهودي المظلوم الفريد درايفوس (١٨٥٩ - ١٩٣٥) الذي اتهمه الجيش الفرنسي بالخيانة وأفشاء الأسرار العسكرية إلى الألمان فقدم إلى المحاكمة وأدين فيها فهاجت الدنيا وماجت فأعيدت محاكمته لتثبت براءته ويرد الإعتبار إليه. والجدير بالذكر أن الكاتب الفرنسي المعروف إميل زولا شعر بفداحة الظلم الواقع عليه فانبرى للدفاع عنه.

والد بروست

حاول جد مارسيل أن يرغم أباه أدريان على أن يصبح قسيساً. ولكن الإبن آثر أن ينصرف إلى دراسة العلم دون أن تؤدي دراسته له إلى تخليه عن الإيمان بالعقيدة الكاثوليكية التي نشأ عليها. وفي عام ١٨٥٣ حصل أدريان على شهادة البكالوريا التي أهلته لدراسة الطب في باريس وحصل على الدكتوراه فيه في ٢٩ ديسمبر/ كانون الأول ١٨٦٢ ثم عمل مدرّساً في مدرسة الطب في باريس. وفي عام ١٨٦٦ اجتاح فرنسا وباء الكوليرا وتساقط المئات صرعن لهذا المرض الفتاك. فنذر الدكتور أدريان نفسه لمحاربة المرض. ولكنه أسقط في يده عندما أدرك عجزه عن التصدي له على المستوى الفردي. عندئذٍ أدرك أن الوقاية خير من العلاج. ومن ثم ذهب إلى أن السبيل الأمثل لمحاربة الكوليرا يكمن في إقامة كوردون صحي حول أوروبا بهدف عزلها عن مصدر الوباء في آسيا. وفي عام ١٨٦٩ كلفته وزارة الزراعة والتجارة في فرنسا بالسفر إلى إيران من أجل تتبع المسالك والدروب التي يتبعها وباء الكوليرا للإنتقال إلى روسيا. وأدى أبو مارسيل بروست مهمته على خير وجه فمنحته امبراطورة فرنسا أيوجيني وسام الشرف المعروف بالليجيون دونير.

مارسيل بروست في طفولته ويفاعته:

تزوج الدكتور أدريان بروست من سيدة يهودية تجمع بين الجمال والذكاء تدعى مدام ويل. وهي امرأة رفيعة الثقافة أغرمت بالموسيقى وعشقت الأدب وأعجبت على وجه الخصوص بخطابات مدام دي سفيني. وكان زواجه منها سعيداً وموفقاً. وبعد بضعة أسابيع على زواجها بدأت أعراض الحمل تظهر عليها في فترة عصيبة من تاريخ فرنسا، فقد انتصرت عليها الجيوش الألمانية التي زحفت على العاصمة باريس حتى تمكنت من محاصرتها وقطع إمدادات الطعام

عنها، الأمر الذي أضر بصحة سكان باريس بالغ الضرر. فلا غرو إذا رأينا الطفل مارسيل يعاني منذ ولادته الضعف واعتلال الصحة. واعتقد المحيطون به أن حياته لن تطول. أصيب مارسيل بالربو في نحو العاشرة من عمره أثناء عودته مع عائلته وبعض الأصدقاء من رحلة في غابة بولونيا بضواحي باريس. وعندما شاهده والده يختنق إعتبره في عداد الموتى. إعتقد مارسيل في طفولته الباكرة أن سفينة نوح هي السجن الحقيقي الذي تلظت بعذابه روح نوح. غير أن نوح لم يكتشف حقيقة العالم الخارجي إلا من خلال الظلمة الحالكة التي عاشها في فلكه. وهكذا يرى مارسيل بروست أن وحشته ووحدته أعانتاه على فهم نفسه وفهم العالم الخارجي، في حين أنه كان سيعجز عن ذلك لو كان سليماً. وعلى أية حال كان مارسيل منذ نعومة أظفاره نهباً مقسماً بين عالمين: عالم اللعب واللهو مع أقرانه الصغار وعالم المطالعة والكتب. وكان بمجرد الإنتهاء من اللعب ينسحب إلى عالمه الخاص ينكب على القراءة ويسبح في الأحلام. وبلغ حبه للقراءة حداً جعله يخالف تعليمات والديه ويشعل الشموع سراً في الليل كي يقرأ على ضوئها. وقد لعبت إجازات عيد القيامة والإجازات الصيفية دوراً بارزاً في حياة الصبي وكان من عادة الأسرة قضاء هذه الإجازات في قرية هادئة صغيرة هي قرية إلييه التي أطلق عليها أديبنا إسم كومبراي في روايته الذائعة الصيت «البحث عن الزمن الضائع». لاحظ مارسيل أن حب والدته يزداد كلما رأت صحته تزداد اعتلالاً، الأمر الذي جعله يستعذب المرض ويستمرىء العلة التي لازمته طيلة حياته. وتعلق الصبي بأمه تعلقاً مرضياً واستغل حب أمه له وقلقها على صحته فأمعن في كسر جميع القواعد المنزلية التي رسمها الأب لأبنائه. وبسبب دلعه المفرط وغيرته على أمه من أبيه أصر على حضورها وقت نومه لتطبع على وجهه تلك القبلة الخالدة التي استطاع مؤلفنا تخليدها في الصفحات الأولى من «البحث عن الزمن الضائع».

كان مارسيل صورة طبق الأصل من أمه في حين كان أخوه روبرت صورة طبق الأصل من أبيه كما كان مارسيل طفلاً مدللاً عنيداً يخفي حياته الخاصة عن ذويه. وأغلب الظن أن أمه كانت منذ البداية على علم بشذوذه الجنسي وبأن الحفلات التي أكثر من إقامتها في البيت ودعا إليها الشباب من أقرانه استهدفت غوايتهم. ومن الجائز أن طبيعته الشاذة جعلته يتلذذ بتلطيخ صورته أمام أمه فضلاً عن تدنيس صورتها أمام نفسه. ومن المحتمل أن الصورة التي رسمها مارسيل بروست في أدبه لفتاة تتعمد تدنيس صورة أبيها قبل انغماسها في علاقة سحاقية مع شقيقتها تمثل المشاعر التي أحس بها مارسيل وهو يمارس الشذوذ مع بعض الداعرين من الذكور في عقر داره. ورغم انغماسه في الدعارة مع الذكور فإن حبه المثلي للموسيقار الشاب رينالدو هاهن المولود في باريس من أصل فينزويلي كان طاغياً وعميقاً. فضلاً عن أن شذوذه لم يمنعه من إقامة بعض العلاقات الجنسية السوية مع بعض الفتيات السائرات على حل شعرهن.

وفي مايو/أيار ١٨٧٣ أنجبت أمه أخاه روبرت الذي يصغره بعامين والذي احترف فيما بعد مهنة الطب محتذياً حذو والده ليصبح جراحاً مرموقاً وأستاذاً بكلية الطب، كما أنه حصل مثل أبيه على وسام الشرف. ويشهد معارف العائلة أن مارسيل كان يحنو على أخيه روبرت ويدافع عنه وأنه ظل يحتفظ بهذا الموقف منه حتى آخر العمر.

ويشير بعض الأحداث في طفولته إلى شدة حساسيته وفرط تأثره بمنظر البؤس والشقاء. فذات يوم أعطته أمه مبلغاً من المال كي يسلمه إلى طباخة تعمل لدى إحدى قريباتها. ولكن مارسيل رأى في الطريق ماسح أحذية طفلاً في مثل عمره ينم منظره على البؤس والمعاناة من زمهرير الشتاء القارص. فما كان منه إلا أنه أعطى النقود لهذا الصغير الغلبان. ولما عرفت الأم بما حدث غضبت منه وعاقبته على فعلته. ورغم مرور أربعين سنة على هذه الحادثة فقد ظلت ماثلة في مخيلته لا تبارحه فرواها إلى مربية منزله بعد إنقضاء هذه الفترة الطويلة. فضلاً عن أن القمر المضيء كان يخلب لبه لدرجة أنه رجا من أهله أن يختاروا هداياهم كتباً في علم الفلك. وبلغ حبه للشمس درجة جعلته يكتب: «أعتقد وأنا على فراش الموت وحين يموت في كل شيء أنه إذا سطع شعاع الشمس وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة فسوف تغمرني السعادة... وأغني آه لقد تحسن الجو أخيراً!» ولكن قدره شاء ألا يتمكن من الإستمتاع بما يحب. فتعرضه لأشعة الشمس يزيد من حالته سوءاً. ولم يحرمه القدر من الإستمتاع بدفء الشمس فحسب بل من أيضاً من التمتع بجمال الطبيعة. ففي طفولته وجد مارسيل متعته الفائقة في حديقتي أوتيل وإلييه ولكن إصابته بالربو في سن مبكرة اضطرته إلى تجنب الحدائق. وهكذا كتب عليه القدر أن يبتعد منذ نعومة أظفاره عن الزهور وأشجار الفاكهة التي يحبها لأنها تسبب له نوعاً من الحساسية والحمى. وفي حياته اللاحقة اضطر مارسيل بروست إلى قيادة سيارته الليموزين وإغلاق نوافذها بإحكام حتى يتمكن وهو خلف الزجاج أن يتطلع إلى الزهور وشجر الفاكهة الأثيرة إلى قلبه.

وبوفاة والدته في عام ١٩٠٥ انطلق شذوذه ولهوه من عقالهما. وليس أدل على ذلك من أنه نشر في فبراير ١٩٠٧ مقالاً مروعاً في جريدة الفيجارو أذهل رئيس تحريرها بعنوان «عواطف ولد يريد قتل والدته». والجدير بالذكر أن مؤلفنا استقى مقاله من حياة صديق له يدعى هنري فان بلار نبرج أقدم بوحشية على قتل أمه التي يحبها ثم انتحر. ورأى بروست في هذا الحادث دليلاً على الحب ووصف عملية قتل الإبن لأمه بأنه عمل يكاد يكون جميلاً. واختتم بروست مقاله بقوله: «وددت أن أبين كيف أن تفجر اللوثة وسفك الدماء قد حدثا في جو من الجمال الأخلاقي الذي يجمع بين النقاوة والدين. ورغم هذا فإن الدماء المسفوكة لم تنجح في تلطيخ هذا الجمال.» والرأي عند كاتبنا أن المختارين هم أصحاب النفوس المريضة لأنهم يفوقون في

حساسيتهم وذكائهم أصحاب النفوس السليمة. وقد جعلته عصبيته المفرطة يرفض أي اعتراض حتى من جانب والديه على رغباته.

وفي طفولته وقعت في حياة مارسيل بروست حادثة غار أثرها العظيم في أعماقه. ففي إحدى ليالي الصيف دعا والده طبيباً زميلاً له لقضاء أمسية في بيته الريفي في أوتيل. وانشغلت الأم بخدمة الضيف عن إبنها فلم تذهب إليه في تلك اللحظة كعادتها كل ليلة إلى غرفة نومه كي تقبله قبل أن يخلد إلى النوم. وعبثاً حاول الطفل في تلك الليلة أن ينام فقد فارق النعاس جفنيه. وأطل الطفل من نافذة غرفته ليرى ـ والألم يعتصر قلبه ـ أمه وأباه والضيف يتسامرون في ضوء القمر بين الأشجار ويحتسون بعض المشروبات الروحية الخفيفة. وأرسل إليها الخادم كي يستدعيها ثم نادى عليها عندما تأخرت عليه. وأرادت الأم أن تتجاهل نداء إبنها لها ولكن زوجها حفزها للذهاب إليه حتى ترى ما خطبه. وجاءت الأم على عجل كي تسري عن ولدها المحزون الذي انخرط في بكاء هستيري جعل الخادم يتعجب من مسلكه وجعل الأم تلتفت إلى الخادم لتشرح له الموقف قائلة إن أعصاب إبنها مرهفة لدرجة أنه هو نفسه لا يعرف ماذا ألم به. واجتاحت الطفل سعادة بالغة حين أدرك أن لعبته الصبيانية وانخراطه في النشيج الهستيري انطليا على أمه وأنه استطاع بدموعه الزائفة التأثير في عواطفها لدرجة أنها ظنت أن بكاءه المتعمد شيء خارج عن إرادته. وفي سنوات نضجه يفسر لنا مارسيل بروست هذه الحادثة بأنها أول إخفاق واجهته أمه في محاولة تنشئته على الإستقلال والإعتماد على النفس. وهو فشل تكرر وانتهى بالصبي إلى أن أصبح إنساناً مسلوب الإرادة ينام بالنهار ويسهر بالليل وينفق ببذخ على حفلات العشاء الفاخرة التي يقيمها في فندق ريتز بباريس. ويعيش في شبه عزلة في حجرة تغطى جدرانها بألواح الفلين حتى لا تصل إليه ضوضاء الشارع.

وفي عام ١٨٨٢ التحق مارسيل بروست بمدرسة الليسيه كوندورسيه وهو في الحادية عشرة من عمره حيث زامل جاك إبن الموسيقار المشهور مؤلف أوبرا كارمن. وكان لبيزيه الفضل في تقديم زميله مارسيل إلى أمه اليهودية الحسناء. وكانت أم جاك آنذاك أرملة حزينة تؤثر العزلة وعدم مخالطة الناس. وعندما بلغ مارسيل السابعة عشرة من عمره كانت أرملة بيزيه قد خرجت من عزلتها وأنشأت صالوناً أدبياً أصبح مارسيل بروست عندما كبر من رواده. وقد دامت أواصر الصداقة بين مارسيل وأرملة بيزيه حتى نهاية العمر.

تميزت مدرسة كوندورسيه بعنايتها الفائقة بالحرية واهتمامها الشديد بالثقافة. وكان ناظرها يسمح للتلاميذ باختيار مدرستهم. غير أن الباحثين لا يعرفون غير النذر اليسير عن فترة تلمذته التي تمتد من عام ١٨٨٢ حتى عام ١٨٨٧. وهي فترة في حياته مليئة بالمتناقضات التي تتأرجح

بين صعود مستواه الدراسي وهبوطه. ففي ٣١ ديسمبر/ كانون الأول ١٨٨٤ استطاع الحصول على مرتبة الشرف ثم ما لبث أن تخلف في العامين التاليين ليعود إلى مكان الصدارة في ٢٨ فبراير/ شباط ١٨٨٧. ويفسر الدارسون هذا التفاوت الهائل في مستواه الدراسي إلى تأرجح حالته الصحية بين السوء والتحسن. ويروي أحد زملائه في هذه المدرسة أنه كان يتغيب لفترات طويلة منها وأن هذا الغياب تسبب في تعطيله عن كتابة موضوعات الإنشاء التي تؤهله لاجتياز الفصل الدراسي. واعتاد الغلام الإستغراق في الخيالات والتأملات وأحلام اليقظة. ويسجل بروست في أدبه هذا التفاوت الواضح في التحصيل الدراسي الذي يعزوه والداه إلى الشلل الكامل الذي أصاب إرادته. وظل الأبوان يرددان هذا القول حتى اقتنع به مارسيل نفسه. ثم سار النقاد بعد ذلك على الدرب نفسها. ومن المحتمل أن يكون إحساسه الباكر بالفشل في الحب سبباً في تأخره الدراسي. فقد أحب مارسيل وهو لا يعدو الخامسة عشرة من عمره فتاة صغيرة تدعى ماري دي برناراداكي وهي إبنة نبيل بولندي كان فيما مضى رئيس ديوان البلاط القيصري في روسيا قبل أن يستقر في فرنسا ويجمع ثروة طائلة من تجارة الشاي. واعتاد الغلام وهو في الثانية عشرة أن يلعب معها عقب انتهاء اليوم الدراسي في حديقة الشانزلزيه. وصدم عندما اكتشف بأن ماري دي برناراداكي لا تحبه وأن الفوارق الإجتماعية بينهما تحول دون مثل هذا الحب. وعلى أية حال كان حبه لها رومانسياً وخيالياً فهو لا يعشقها لشخصها بل لأنها تمثل في نظره فكرة الحب الذي يهفو إليه قلبه. ودعاه فشله في الحب إلى قطع أية علاقة تربطه بحبيبته في ربيع عام ١٨٨٧. وفكر في الإنتحار بإلقاء نفسه من الشرفة ولكنه سرعان ما عاد إلى رشده. ومن المؤكد أن حبه لأمه كان يفوق حبه لهذه الفتاة الأرستقراطية. ولعل حبه لهذه الفتاة محاولة من جانبه للفكاك من ارتباطه العميق بأمه. وهو حب كان محكوماً عليه بالفشل لأن أمه على أية حال لم تكن راضية عنه. ويفسر بعض المحللين النفسيين هذا الحب بأن صاحبه دون وعي منه تعمد أن يرتبط بعلاقات عاطفية محكوم عليها بالفشل كي يجد لنفسه مبرراً للإنقياد وراء نزعته إلى المثلية. وهي سمة غلبت على معظم علاقاته العاطفية بالجنس اللطيف في حياته اللاحقة.

والجدير بالذكر أن صديقاً له طرح عليه بعض الأسئلة وهو في الرابعة عشرة من عمره تنم إجاباته عنها أنه يحترم الذكاء ويقدر الحس الأخلاقي في الرجال والذكاء والحساسية والرقة والمسلك الطبيعي في النساء. وفي تلك الفترة من حياته انصرف مؤلفنا إلى القراءة والإستغراق في الأحلام والشعر والمسرح. ويذكر مارسيل في معرض إجابته عن أسئلة صديقه أن مثله الأعلى في السعادة هو أن يعيش بالقرب من أحبائه في حضن الطبيعة الجميلة وبصحبة كثير من الكتب والموسيقى وبمسرح فرنسي قريب. وفي أيام التلمذة تعلق بحب أدب جورج صاند وآثر

موسيقى موزارت على غيره من الموسيقيين. وعندما سأله سائل: ما هي أقصى درجة من البؤس في نظرك أجاب بقوله: «أن أعيش بعيداً عن أمي.» ورداً على سؤال آخر عن الخطايا التي يمكنه أن يغفرها قال: «إني على استعداد لأن أغفر للعباقرة حياتهم الخاصة» وكأنه بذلك يتنبأ بحياة اللواط التي سوف يحياها بعد مرور ما يقرب من ثلاثين عاماً.

كان مارسيل بروست أيام تلمذته في الكوندورسيه يحفظ عن ظهر قلب أشعار موسيه وهيجو وراسين ولامارتين وبودلير. ولاحظ معارفه في تلك الفترة جمال صورته وشدة تهذيبه وأدبه الجم في مخاطبة من يكبرونه سناً، فضلاً عن حسن تعبيره.

يذكر أن مارسيل بروست شفي من حبه الأول في النصف الأول من عام ١٨٨٧ واجتهد في مذاكرته فحصل في ذلك العام على الجائزة الثانية في التاريخ والجغرافيا والجائزة الثالثة في اللغة اللاتينية والجائزة الرابعة عن «امتيازه العام». وكان علم الرياضيات نقطة ضعفه. وعبثاً حاول روبرت أخوه أن يشرح له دروسه في الرياضيات قائلاً له: «حقاً يا مارسيل. على الأقل يجب أن تحاول أن تفهم.» فرد عليه مارسيل بقوله: «هذا مستحيل». وعندما انتقل مارسيل من مدرسة الكوندورسيه إلى السنة التي يتعين عليه فيها دراسة البلاغة تعلمها على يدي كل من كوشيفال الذي كان الناقد الأدبي للمجلة الزرقاء وماكسيم جوشيه. والجدير بالذكر أن كوشيفال أول من توسم فيه النبوغ. كان كوشيفال يطلب إليه لأسابيع متتالية أن يقرأ موضوع الإنشاء على الفصل ويمتدحه أحياناً وينتقده أحياناً أخرى. كما كان يضحك أحياناً أخرى من جسارة أسلوبه. ولايزال أحد هذه الموضوعات الإنشائية الباكرة باقياً حتى الآن. وهو مقال عن كورنيل وراسين يظهر فيه كاتبه قدراً ملحوظاً من النضج والإتقان اللغوي. وكانت كتابته النثرية آنذاك تميل إلى استخدام الجمل الطويلة الخالية من الوقفات. وذات يوم زار المدرسة مفتش فطلب إليه مدرس الفصل أن يقرأ عليه أحدث موضوعاته الإنشائية. وظهرت إمارات الضيق على وجه المفتش ثم التفت إلى مسيو جوشيه ليسأله: «أليس لديك طالب آخر حتى ولو كان في ذيل الفصل يستطيع أن يكتب الفرنسية بسلامة ووضوح أكثر؟».

في بادىء الأمر لم تكن لدى مدرسه كوشيفال فكرة حسنة عن مستوى موضوعات الإنشاء التي يسطرها مارسيل بروست. يقول كوشيفال في هذا الشأن إن الفصل انقسم بين مؤيد لبروست ومعارض يستقبل كتاباته بصيحات الإستنكار. ويعلق مارسيل بروست على حدة هذا الإنقسام بقوله إنه لولا وجود مدرسهم كوشيفال بينهم لقام زملاؤه بالفتك به. ورغم سوء تقدير المفتش لقدرة بروست على كتابة موضوعات الإنشاء فقد تفوق في امتحان يوليه ١٨٨٨ حيث حصل على الجائزة الأولى في موضوع الإنشاء المكتوب باللغة الفرنسية. فضلاً عن حصوله على الجائزة الثالثة لتفوقه في اللغتين اللاتينية والإغريقية.

وفي أيام التلمذة بمدرسة كوندورسيه أصيب مارسيل بروست بصدمة هزت مشاعره فقد رحلت أمه عن بلدة أوتيل وتركته بمفرده لتسافر مع أخيه روبرت إلى مكان يسمى سالي دي بيرن فبكى لفراقها بكاءً مراً، ولم يعوضه عن فراق أمه له سوى وقوعه في غرام جديد مع فتاة جميلة من فيينا تدعى ليوني كلو سمنسيل التي تبادل معها الخطابات والصور الفوتوغرافية. وشجعه على المضي في هذا الحب أن أمه لم تكن بجواره لأنها لو كانت بجواره لحالت دونه. فيكفي وجودها بجواره كي يعجز عن حب الجنس الآخر. وفي تلك الفترة حرضه تلميذ زميل له أن يزور بيت عاهرة وهو ما أشار إليه بروست في أدبه. وكانت النتيجة أنه تقزز من التجربة. وما إن خرج من بيت الدعارة حتى قال لصحبه: «أشعر وكأنني قد تركت ورائي جزءاً من كياني الأخلاقي.» وهو قول بدا غريباً على أسماعهم.

وفي أكتوبر/تشرين الأول ١٨٨٨ بلغ بروست السنة التي يتعين فيها دراسة الفلسفة التي تعلمها على يدي الفونس دارلو الذي علمه فيما علمه فلسفة ليبنتز. ورغم نقد هذا المدرس الشديد لبروست فقد لعب دوراً هاماً في توجيهه. وعاب دارلو على موضوعاته الإنشائية ميلها إلى التفكير العادي والإستعارات المفككة وسائر عاداته الأسلوبية السيئة التي استقاها من مطالعة المجلات. وتعلم مارسيل من دارلو أنه لا يكفي للعمل الفني أن يكون شاعرياً أو أخلاقياً بل ينبغي أن يكون ميتافيزيقياً. وهو الأمر الذي تحقق في تحفته الرائعة «بحثاً عن الزمن الضائع».

وفي فترة تلمذته في كوندورسيه اشترك مارسيل بروست في تحرير عدد من مجلات التلاميذ المكتوبة بخط اليد ومنها مجلة بدأت في الصدور عام ١٨٨٧ بعنوان «الإثنان» ومجلة أخرى صدرت في ربيع ١٨٨٨ بعنوان «مجلة الفصل الثاني» كما أنه ساهم بكتاباته في «المجلة الخضراء» التي سميت كذلك نظراً لكتابتها على ورق أخضر. وهناك أيضاً مجلة «لابلاس». ومازالت إحدى مقالات مارسيل بروست الطلابية باقية حتى يومنا الراهن. وهو مقال أهداه إلى «صديقي العزيز جاك بيزيه». ومما عوضه عن ضعف بنيته واعتلال صحته تفوقه الملحوظ في مجال الفكر والكتابة. فضلاً عن أنه أظهر تفوقه مرة أخرى عند حصوله على شهادة البكالوريا.

وقبل الإستمرار في تتبع مارسيل بروست يجدر بنا أن نذكر أن إصابته بالربو حرمت عليه الإستمتاع بجمال الزهور وسحر الحدائق وتعين عليه أن يستبدلها بهواء البحر والجبال.

بروست يقابل أناتول فرانس ويلتحق بالجيش:

بدأ مارسيل بروست يرتاد صالونات باريس بعد حصوله على شهادة البكالوريا. وكان آنذاك شاباً ذا شارب في الثامنة عشرة من عمره. وساعده على التعرف بعلية المجتمع الباريسي أن أباه يعرف عدداً كبيراً من السياسيين والوجهاء. وسهل عليه أمر الإندماج في المجتمع الراقي أن

والدتي تلميذين من أقرانه جاك بينير وجاك بيزيه كانتا تقيمان صالونين في باريس وتدعوان إليهما صفوة المجتمع. وفي الصالونات ظهرت رقته البالغة وبراعته المذهلة في معاملة النساء وقدرته العجيبة على إرضائهن والتودد إليهن، الأمر الذي فتح كل صالونات باريس أمامه. والأغرب أن معرفته بعلية الناس لم تدفعه قط إلى الزهو الإجتماعي فقد كان يخفي هذا عن معارفه الأقل حظاً حتى لا يجرح مشاعرهم.

وانجذب بروست إلى صالون مدام بيزيه بوجه خاص فأخذ يتردد عليه كثيراً لدرجة أن الأدباء أشاعوا عنه أنه مجرد أديب صالونات. ولكن صالون مدام أرمان دي كايلافير لعب دوراً هاماً في حياته وأدبه. فقد استقبلته في صيف عام ١٨٨٩ صاحبة الصالون مدام أرمان، وكانت آنذاك في الثانية والأربعين من عمرها - لتحييه وتقول له إنه سوف يجد في صالونها العلم والتسلية. ثم قدمته إلى أديب فرنسا الكبير أناتول فرانس. وفي بادىء الأمر لم يكن انطباعه عن هذا الأديب طيباً. والجدير بالذكر أنه رسم فيما بعد صورة أناتول فرانس في بيرجوت إحدى شخصياته الروائية. كان هذا الأديب الكبير على خلاف دائم مع زوجته الأمر الذي أدى إلى طلاقها منه. ولهذا كان يأكل ويشرب ولا يبارح بيت صاحبة الصالون مدام أرمان. بل إنه كان يمارس الجنس معها كل صباح في شقته التي عاش فيها وهو أعزب.

بدأ بروست حياته الأدبية متأثراً بأسلوب أناتول فرانس. غير أنه ما لبث أن تخلص من هذا الأثر الأسلوبي. ورغم ذلك فقد ظل مهتماً بكثير من الموضوعات التي عالجها فرانس في أدبه مثل القول إن العالم الظاهري غير حقيقي والقول بطبيعة الماضي الشاعرية واستحالة معرفة الآخرين وعمليات التغيير الدائبة التي تطرأ على النفس والشعور والذاكرة. والأهم من هذا أنه تأثر بتشاؤم أناتول فرانس. علماً بأن أديبنا آمن بالقسمة والنصيب وبأن الإنسان مسيّر وليس مخيّراً وأنه سجين الجينات وعوامل الوراثة وطبيعته الفسيولوجية. وفي تلك المرحلة الباكرة من حياته طالع أدب لوتي بنهم شديد. علماً بأن الفيلسوف بيرجسون ترك أثراً عميقاً في روايته «البحث عن الزمن الضائع». وعندما انحسر نفوذ كل من فرانس ولوتي عليه انصرف إلى قراءة أدباء الماضي العظام أمثال بلزاك وستندال وفلوبير وتولستوي وديستوفسكي وجورج أليوت وتوماس هاردي. وفي بداية تعارفه بأناتول فرانس طرح عليه بروست هذا السؤال: كيف تحصلت على كل هذه الذخيرة من المعرفة يا مسيو فرانس؟» فأجابه فرانس بقوله: «إنها مسألة غاية في البساطة يا عزيزي بروست. عندما كنت صغيراً في مثل سنك لم أكن حسن المنظر أو محبوباً مثلك. ولهذا لم أختلط بالمجتمع ومكثت في عقر داري لا أفعل شيئاً سوى القراءة.».

أما حكاية التحاق مارسيل بروست بالكلية الحربية ففيما يلي تفاصيلها: أراد بروست أن

يحذو حذو جاستون إبن مدام أرمان صاحبة الصالون الذي كان يسمع عنه الكثير دون أن يراه. كان بإمكان جاستون أن يتجنب الإنخراط في صفوف الجيش. كما كان بإمكان بروست أن يفعل الشيء نفسه ولكن عندما أصدرت الحكومة الفرنسية بتاريخ ١٥ يوليه/ تموز ١٨٨٩ قراراً بتخفيف فترة التجنيد من خمسه إلى ثلاثة أعوام وبإلغاء نظام التطوع بالجيش سارع بروست إلى التطوع فيه قبل سريان مفعول القانون الجديد. غير أنه استفاد من صلات والده ونفوذه. فقد أعفاه رئيسه من طابور الصباح والقفز بحصانه فوق الحفر مراعاة لحالته الصحية. وقد استمتع بحياته العسكرية استمتاعاً لا مزيد عليه لدرجة أنه بعد مرور خمسة عشر عاماً كتب إلى أحد أصدقائه يلومه على قوله إنه يعتبر فترة التجنيد بمثابة سجن. فهو في نظره «فردوس» و«نعيم». ويبدو أن سعادته بفترة التجنيد ترجع إلى أنها أعطته الإحساس الواهم بأنه إنسان سوي وطبيعي يقبله المجتمع.

وفي ١٩ مارس/آذار ١٨٨٩ توفيت جدته لأبيه فحزن عليها غير أن حزنه الفاجع تفجر عند وفاة جدته لأمه في ٢ يناير/ كانون الثاني ١٨٩٠. والغريب أنه كان دائب الحديث بإعجاب شديد عن جاستون إبن مدام أرمان دون أن يراه. وعندما ألتقى به فيما بعد في منزل والدته تبادل الإثنان الإعجاب على الفور. وكانت مدام أرمان تعامل مارسيل بروست برقة وتحيطه بالحنان فهي تصر عقب كل زيارة له على تحميله بالكعك والسندويتشات لأنه قد يجوع في القطار الذي يرجع به من أورليانز إلى باريس.

وذات يوم قدم جاستون خطيبته مدموازيل جين بوكيه إلى مارسيل الذي لم يفتأ يهنئها بأعذب الكلمات على جمالها واستشعرت الفتاة أن مارسيل يغازلها فشكته إلى خطيبها الذي امتدح سلوكه مؤكداً لها أنه إنسان ممتع. واستطاع أديبنا برقة ألفاظه أن يستميل أم الفتاة إليه فدعته لزيارتهم في البيت. ولكن جاستون بدأ يغضب منه عندما شعر بتماديه في ملاطفة خطيبته. وعندما عقدت الكلية الحربية امتحان المتطوعين في الجيش جاء ترتيبه قبل الأخير فحاول تبرير هذه النتيجة السيئة بسوء حالته الصحية. ولكن والده رأى أن الأوان قد آن كي يكسب إبنه رزقه من عرق جبينه. وفي العام الذي تخرج فيه مارسيل في الكلية الحربية (وهو عام ١٨٩٠) التحق بكلية الحقوق بجامعة السوربون كما أنه التحق في الوقت نفسه بكلية العلوم السياسية. ولكنه ضاق ذرعاً بدراسة القانون كما أنه لم يطق فكرة العمل بالسلك الديبلوماسي بعيداً عن أرض الوطن.

علاقات جنسية شاذة:

يبدو أن علاقات مارسيل بروست الجنسية الشاذة بدأت مع موسيقار شاب يدعى رينالدو

هاهن بالإضافة إلى رسام شاب هو لوسيان إبن الروائي الفرنسي المعروف الفونس دوديه. وفي ربيع ١٨٩٣ تعرف مؤلفنا في أحد الصالونات بنبيل من أعرق العائلات الأرستقراطية من هواة الأدب وقرض الشعر إسمه الكونت روبرت دي مونتسكيو فيزينساك الذي نجح في إخفاء نزعته إلى الشذوذ الجنسي عن معظم معارفه وأصدقائه. غير أن شذوذه لم يخف على بروست الذي اقتدى به في ممارسة المثلية واعتبره أستاذه ورائده. ويبدو أن بروست بشكل أو بآخر كان يطمع في الإستفادة من مكانة مونتسكيو الإجتماعية المرموقة، فقد كان في مقدور هذا الرجل أن يفتح أمامه الأبواب الموصدة. كان مونتسكيو مزهواً بنفسه يستعمل أغلى العطور وأندرها ويلبس الملابس القشيبة الزاهية ويحتفظ بمجموعة كبيرة من بورتريهاته أي الرسوم التي تصوره.

ودخل في روع هذا الأرستقراطي المغرور أنه أشعر شعراء فرنسا وقرر أن يذهب إلى الأسواق ليبين للناس ذلك. وحتى يبرهن للعالمين على موهبته الشعرية الفذة، نشر ديوانين من الشعر أحدهما بعنوان «الوطاويط» والآخر بعنوان «رئيس طباخي الروائح الزكية». ورغم ذلك فقد فشل حتى وفاته في عام ١٩٢١ في تحقيق أي نجاح أدبي يذكر. ولولا علاقة مارسيل بروست المثلية به لأهمله تاريخ الأدب وخاصة لأن مؤلفنا رسم شخصية البارون دي شالوس في رائعته «البحث عن الزمن المفقود» على شاكلته. والغريب أن العلاقة بين الرجلين لم تكن متكافئة. فقد كان الكونت يعامل بروست بتعال واضح. وفي يوم من الأيام ألقى هذا الأرستقراطي المغرور قصائده على جمهور كان بروست أحد أفراده. ولاحظ مونتسكيو حضور بروست فتنازل وأظهر شيئاً من الإهتمام به. ثم تنازل أكثر وأكثر وأهداه نسخة من ديوانه «الوطاويط» فكتب بروست إليه ليشكره على هديته. ورغبة منه في التقرب إلى الكونت أرسل إليه باقة من الزهور مع كلمة تملق له وتقريظ لشعره جاء فيها: «صدقني أنني أشعر بأنني لا أستحق أن أكتب إليك وأن زهورك تفوق الزهور التي أهديها إليك في جمالها وشذاها. إن عبيق زهورك يفوق دوماً ما في زهور الحدائق الباطلة من عبق. وما تعبر عنه مثل هذه الزهور الباطلة تعبيراً مضطرباً نسيء نحن فهمه تماماً ولكنك تعبر عنه أنت بوضوح مقدس دون أن تبدد أيا من سحرها الممتع. إن روحك بستان نادر وفتان مثل البستان الذي أذنت لي أن أتجول فيه بالأمس.» وراق هذا التملق في عين الكونت الذي تكرم عليه بنسخة من ديوانه الثاني «رئيس طباخي الروائح الزكية». ومرة أخرى رد بروست على هديته الثانية بكلمات معسولة جاء فيها: «إن أشعارك أشبه ما تكون بعسل النحل الغامض الذي يشبه شهده عذوبة السماء، وإذا أنا عبرت عن شكري لمدى السعادة التي منحتني إياها فلسوف أمضي في التعبير عن شكري بلا نهاية. ولكني في الختام يجب أن أشكرك على الكلمات السامقة التي سمعتها من شفتيك بالأمس والتي لا يزال صداها يتردد في الموسيقى الثرية التي يتسم بها صوتك. ولتعلم أنه بإمكانك أن تعتبرني معجباً صريحاً

ورقيقاً وصادقاً يكنّ لك الإحترام. إنني أنتظر بصبر نافد صورتك الفوتوغرافية.».

ولكن الخلاف سرعان ما دب بين الكونت وبروست لأسباب تافهة من بينها شعور الكونت أحياناً بأنه لا يعامل بالإحترام اللائق به واعتراضه على دعوة بروست لبعض الضيوف لحضور حفلات مونتسكيو، ومنها أيضاً أن الكونت استمع إلى إشاعات مفادها أن بروست استغل مقدرته الفائقة في التقليد على محاكاته على نحو مضحك. وفي فبراير/ شباط ١٨٩٤ كتب بروست إلى الكونت خطاباً يطلب إليه أن يأذن له بأن يقدم إليه شاباً موسيقاراً وعازف بيانو بهي الطلعة إسمه ليون دي لافوس. ووافق الكونت على ذلك ودعا هذا الشاب الجميل إلى بيته في ضاحية فرساي ليعزف ويغني له. وكلف الكونت سكرتيره بإقامة حفلة موسيقية ترفيهية على شرف دي لافوس الذي عبر عن إمتنانه للكونت بإرسال هدية إليه عن طريق بروست. ويبدو أن الكونت امتعض من أسلوب دي لافوس فى تقديم الهدية فتعمد عدم التنويه بموهبة الفتى الموسيقية، الأمر الذي أثار حنق بروست ضد الكونت فكتب إليه معاتباً لأول مرة في حياته ومشيراً إلى سوء الفهم العميق بينهما. ويرى النقاد أن بروست استقى شخصية شارلوس في «البحث عن الزمن الضائع» من شخصيته الكونت مونتسكيو. ولكن البعض يرى أنه استقى جانباً من شخصيته من أحد شواذ الجنس الآخرين هو الأرستقراطي البارون دوسان. وقد سرت شائعات في صالونات باريس أن مونتسكيو تبارز بالسيف مع البارون دوسان لأنهما كانا يتنازعان على عشق فتى جميل إسمه جابرييل ديتوري. على أية حال كان سوء التفاهم الذي نشأ بين بروست ومونتسكيو بمثابة سحابة صيف ما لبثت أن انقشعت فقد عاد بروست إلى سابق تملقه لمشاعر الكونت. ولعله من الأصوب أن نقول إن بروست كان ضعيفاً أمام أصدقائه ومعارفه يفرط في مجاملتهم ويمتدح بوجه حق وبغير وجه حق كل ما يسطره يراعهم. كما أنه كان ضعيفاً أمام الألقاب الأرستقراطية العريقة لدرجة أنه وجد متعة في دراسة الأتيكيت الإجتماعي الخاص بطبقة النبلاء: طريقتهم في التخاطب وأسلوبهم في الإنحناء والخروج والدخول. ورغم أنه توقف عن تمجيد العائلات العريقة وأنه فقد الإهتمام بإقامة علاقات معها وهو في نحو العشرين فإنه لم يقطع علاقته بمعارفه من الأرستقراط حتى آخر يوم في حياته، كما أنه لم يكف عن حضور حفلاتهم واستقبالهم في بيته. وقد بلغت علاقته بطبقة الأرستقراط أوجها في الفترة بين ١٨٩٣ و١٨٩٤.

وفي أيام التلمذة أحب مارسيل بروست عاهرة حباً أفلاطونياً. غير أن هذه العلاقة لم تصل في أهميتها ما وصلت إليه علاقته بعاهرة فنانة تدعى لور هايمان وهي إبنة رسام رائعة الجمال. وشاء القدر أن يتوفى والدها الرسام ويتركها مع إبنها يعانيان شظف العيش. فاستغلت هذه الفتاة جمالها الرائع في اصطياد الرجال والإيقاع بهم في حبائلها لدرجة أن سمعتها سبقتها إلى

عدد كبير من المدن الأوروبية. وفي أخريات حياتها آثرت الإعتزال عن المجتمع وانصرفت إلى دراسة فن النحت الذي أصابت فيه قدراً من النجاح. وقد قامت لور هايمان بتعريف مارسيل بروست بالأديب المعروف بول بورجيه الذي كان واحداً من أصدقائها. ورسم مؤلفنا صورة لهذه الفنانة المومس في عمليه «طريق سوان» و«طريق جورمانتيس» وذلك في شخصية امرأة تدعى أوديت. فلما احتجت لور هايمان على ذلك بادر بروست بإنكار وجود علاقة بينها وبين شخصيته الروائية. واللافت للنظر في علاقته الغرامية بالجنس اللطيف أن الخطابات التي أرسلها إليهن (مثل خطاباته إلى مدام ستراوس) تستخدم لغة جريئة تروق لهن رغم أنها تصدم مشاعرهن.

وفي أيام دراسته عندما كان بروست في السابعة عشرة من عمره سطر خطاباً إلى زميله بيزيه ـ إبن الموسيقار المعروف ـ أثناء حصة الجغرافيا والتاريخ يتضح منه أنه حاول أن يراود بيزيه عن نفسه. ولكن بيزيه قابله بالرفض والصدود. ويعبر بروست في خطابه عن أسفه لعدم استجابة زميله لرغباته وإضاعة هذه الفرصة السانحة. يقول بروست في هذا الصدد إنه من المؤسف ألا يمكنه صديقه من قطف تلك الزهرة الممتعة التي سوف يعجز سريعاً عن اقتطافها لأنها ستتحول إلى فاكهة محرمة. وهو يعني بهذا أن الناس يتسامحون مع ممارسة الشباب للشذوذ الجنسي باعتباره طيشاً سوف يمضي لحال سبيله. ولكنهم لا يتسامحون مع الرجال لإتيانهم الشيء نفسه. ورغم رفض بيزيه الإستجابة لنزواته فقد طلب إليه أن تستمر صداقتهما على أساس غير جسدي.

وفي أيام التلمذة كتب بروست خطاباً آخر إلى زميل له بالمدرسة إسمه دانييل هاليفي في حصة الفلسفة التي يتولى دارلو تدريسها. ونحن نراه للمرة الثانية يرمز إلى الممارسة الجنسية بالزهور وقطفها. يقول بروست شارحاً موقفه من الجنس: «إن معتقداتي الأخلاقية تسمح لي أن أؤمن بأن المتعة الجسدية شيء حسن للغاية.» ثم نراه يتحدث عن جمال عيون دانييل وكيف أنه لا يستطيع عشق عقله بدون أن يعشق عيونه الجميلة. وفي إشارة جنسية فاضحة نراه يستطرد قائلاً: «يبدو لي أنني لا أستطيع الإمتزاج بعقلك على نحو أفضل إلا إذا جلست على حجرك.» ويشير بروست في معرض دفاعه عن اللواط إلى ممارسات سقراط ومونتاني اللواطية التي بها تكتمل الحياة. والرأي عنده أن اللواط أفضل من معاشرة النساء لأن علاقة الذكر بالذكر دلالة على التحام الجسد والعقل والفكر. ومعنى هذا أن بروست يرى في الشذوذ الجنسي أبعاداً فكرية وفلسفية وميتافيزقية.

تضايق بروست كثيراً عندما أزورّ عنه كل من بيزيه وهاليفي فكتب يشكو منهما إلى صديق ثالث هو روبرت دريفوس. وإذا كانت العلاقات التي أقامها بروست في حداثته مع إثنين من

الصبية أحدهما سويسري إسمه إدجار أوبرت والآخر إنجليزي إسمه ويلي هيث غير واضحة المعالم، فإن علاقته بشاب ثالث إسمه روبرت دي فلير تفوح برائحة الجنس. غير أن القدر تدخل ليضع نهاية باكرة لعلاقته بكل من أوبرت وهيث فقد وافت الأول المنية في ١٨ سبتمبر/ أيلول ١٨٩٢ بسبب انفجار الزائدة الدودية كما توفى الثاني في ٣ أكتوبر/ تشرين الأول ١٨٩٣ عقب إصابته بمرض التيفود. والجدير بالذكر أن بروست أهدى باكورة كتبه «اللذات والأيام» إلى صديقه الإنجليزي ويلي هيث. ولا يستطيع أحد أن يجزم متى بدأت تظهر على بروست أعراض اللواط. فالباحث البروستي المرموق جورج بينتر يستبعد ظهورها أيام التلمذة في حين يؤكد جيه.إيه. ريفز أن هذه الأعراض لا بد وأن تكون قد ظهرت عليه أيام التلمذة. ودليله على ذلك الخطابان اللذان أرسلهما إلى كل من جاك بيزيه ودانييل هاليفي. فضلاً عن أن بروست نشر في وقت باكر قصة بعنوان «قبل الليل» تدور حول الشذوذ الجنسي في «المجلة البيضاء» الصادرة في ديسمبر ١٨٩٣.

على كل حال كان بروست على علاقة جنسية ثابتة ومستقرة كعلاقة الأزواج بسكرتيره وعشيقه جابرييل يوري الذي هاجر في حداثته من أمريكا الجنوبية إلى باريس. ودامت هذه العلاقة عشرين عاماً لم تنته إلا بموت يوري عام ١٩٠٥. ويذهب الباحثون إلى أن بروست كان واقعاً تحت تأثير علاقته بيوري عندما رسم شخصية موريل عشيق البارون تشارلوس إلى جانب تأثره بعازف بيانو يدعى ليون ديلافوس يجمع بين الموهبة والوجه المليح. ويجدر بالذكر أن بروست كان مسئولاً عن تقديم هذا الشاب المليح إلى البارون مونتسكيو. غير أن علاقة الشاب الفاتن ديلافوس به ما لبثت أن انقطعت. فقد سافر هذا العازف إلى سويسرا حيث أصاب نجاحاً باهراً كعازف بيانو من الطراز الأول. لقد سبق أن أشرنا أن بروست اتخذ من شخصية مونتسكيو أساساً لرسم شخصية تشارلوس في البحث «عن الزمن الضائع». ولكن بعض الباحثين يرون أن بروست لم يبن شخصية هذا البارون الفاسق على شخصية مونتسكيو وحدها فقد بناها أيضاً على شخصية رجل آخر يدعى دوسان الذي كانت تربطه بجابرييل يوري علاقة جنسية قبل أن يتعرف إلى البارون مونتسكيو. ويقال إن شخصية البارون تحتوي كذلك على جانب من شخصية أوسكار وايلد الذي التقى ببروست عند مجيئه إلى باريس عام ١٨٩١ أي قبل عام من مثوله أمام محاكم لندن بتهمة ممارسة الشذوذ الجنسي. ويرى بعض الباحثين أن العلاقة بين تشارلوس وموريل أشبه ما تكون بالعلاقة اللواطية بين أوسكار وايلد واللورد الفريد دوجلاس. ويمتدح بروست في كتابه «سدومة وعامورة» أوسكار وايلد باعتباره شهيد العشق المثلي. يقول بروست في هذا الشأن مشيراً إلى الهوان الذي لقيه أوسكار وايلد عندما لفظه المجتمع الإنجليزي: «إنه مثل الشاعر الذي كان موضع الحفاوة في جميع الصالونات ويستقبل

بالتصفيق والتهليل في كل مسارح لندن ثم أصبح في اليوم التالي عاجزاً عن أن يجد غرفة يستأجرها أو وسادة يضع عليها رأسه». ولا يزال هناك خطاب أرسلته مدام أرمان دي كابلافيه إلى إبنها جاستون تحدثه فيه عن زيارات بروست المنتظمة إلى أوسكار وايلد الذي عاش في باريس مريضاً ومشرفاً على الموت بعد خروجه من السجن بتهمة ممارسة الشذوذ الجنسي. ويرى بعض النقاد أن شخصية تشارلوس تتضمن بعض خصائص المؤلف مثل إعجابه بأدب بلزاك ومثل عبقرية هذا المؤلف في إدارة الحوار ودعابته الطلية الذكية. ويعتقد ليون جويشارد أن بروست استمد علاقة تشارلوس بعشيقه موريل من العلاقة اللواطية التي ربطت بين إثنين من راقصي الباليه الروسي همادياجليف ونيجنسكي. ولكن سلست الباريه مربية بيت بروست ترى أن هذا الكاتب بنى علاقة تشارلوس بموريل على أساس العلاقة اللواطية التي ربطت بين رجل إسمه جولد سميث وشاب إسمه تشارلي.

وفي عام ١٨٩٤ بدأت العلاقة اللواطية بين بروست وعازف البيانو الفنزويلي الأصل رينالدو هاهن الذي التقى به في صالون مادلين ليمير الأدبي حيث لمع نجمه بسبب غنائه وعزفه البديعين. وما إن تقابل بروست مع الفتى رينالدو هاهن حتى تبادلا الإعجاب. ولاحظت صاحبة الصالون التفاهم بينهما فمهدت لهما فرصة الإختلاء ببعضهما البعض ودعت كليهما في صيف ١٨٩٤ لقضاء بعض الوقت في قصرها في منطقة مارن. والجدير بالذكر أن أول كتاب أصدره بروست بعنوان «الملذات والأيام» احتوى رسوماً بريشة صاحبة الصالون ومؤلفات موسيقية من وضع رينالدو هاهن. وقد دامت علاقة بروست برينالدو حتى التقى بعشيق آخر هو لوسيان إبن الكاتب المعروف الفونس دوديه أي حتى أواخر عام ١٨٩٥ وأوائل عام ١٨٩٦.

لقد عالج بروست موضوع الشذوذ الجنسي في الخطابات التي أرسلها إلى عشيقه رينالدو. ورغم أن كثيراً من هذه الخطابات باد واندثر فإن بعض ما تبقى منها يوضح موقفه من اللواط. وهو موقف يقوم على خلط الدعابة بالجد. ونحن نراه في أحد هذه الخطابات ينصح رينالدو بقراءة محاورة أفلاطون المعروفة بالمناظرة التي تدافع عن الشذوذ الجنسي. ورغم نظرته الجادة إلى الشذوذ الجنسي نرى أن بروست يشارك عشيقه رينالدو في السخرية من تصرفات الكونت مونتسكيو القائمة على الإدعاء المضحك. وتنم رسائل بروست التي تعرّض فيها للشذوذ الجنسي عن قدرته على الإنتقال السريع من السخرية والزراية بهذا الشذوذ إلى التعاطف معه. لقد تركت علاقة بروست برينالدو هاهن أثراً واضحاً في كتاباته الخلاقة. فبعد مضي عام على التقائهما في صالون ليمتر سافر العاشقان إلى مدينة ينج ميل الواقعة على ساحل بريتاني حيث نزلا في أحد فنادقها تحت إسمي رينالدو هاهن موسيقار ومارسيل بروست أديب، الأمر الذي

يدل على زهوهما بعلاقتهما الشاذة. وفي هذا المصيف إنكبّ رينالدو على التأليف الموسيقي في حين انصرف بروست إلى تأليف رواية عن سيرة حياته بعنوان «جين ساتيل» التي لم يكتب له استكمالها. وتتضمن «جين ساتيل» كثيراً من الإشارات والموضوعات التي سوف يعرض لها فيما بعد في كتابة المعروف «البحث عن الزمن الضائع». وفي رسالة بعث بها بروست إلى رينالدو نراه يقول إنه يحب أن يراه في كل ما يكتب مثل إله متنكر حتى لا يراه بشرا. ولكن بروست فشل في إخفاء عشيقه عن عيون القراء. فهو يظهر بجلاء في صورة الموسيقار المغني بواتييه الذي يبهر الجميع بجمال عزفه وصوته.

تركت علاقة بروست برينالدو أثراً واضحاً في كتابته الخلاقة. وليس أدل على عمق الأثر الذي تركه رينالدو في أدب بروست من أن هذا الأديب كان يعرض عليه إنتاجه ويلتمس لديه النصح والمشورة ويأخذ تحفظاته على كتاباته مأخذ الجد فهو لم ينس قط أن رينالدو انتقد ذات مرة جملة طويلة بعض الشيء. وأثناء تأليف بروست لكتابه «ضد سانت بيف» كتب إلى صديقه جورج دي لوري يقول إنه قرأ مائتي صفحة من الكتاب على رينالدو الذي شجعه على الإستمرار في الكتابة. وأيضاً لم يغب رونالدو عن ذهن بروست أثناء تأليفه عام ١٩١٠ الأجزاء الأولى من «البحث عن الزمن الضائع». فقد كتب إلى عشيقه وهو في قمة نشوته وانفعاله بالتأليف يصف له الإلهام الذي هبط عليه عند كتابة هذا العمل الروائي الضخم، وأنه استمد الهمة والعزم للإستمرار في الكتابة لمجرد إحساسه بأن عشيقه يستحسنها. قلنا إن بروست أظهر إعجابه الواضح بالطبقة الأرستقراطية فراق له رجال هذه الطبقة ونساؤها على حد سواء. وراقت له ثلة من شبانها فصورهم جميعاً في شخصية شاب أرستقراطي إسمه روبررت دي سانت لوب. وكان أفراد هذه الجماعة يتخاطبون بلغة خاصة بهم لا يفهمها غيرهم مثل إطلاق وصف «الزحليون» على شواذ الجنس. وبوجه عام كانت هذه الجماعة تتقزز من الشذوذ الجنسي وتستهجنه. فلا غرو أن بروست يلجأ إلى التمويه والتضليل حتى لايشك الناس في شذوذه. لقد تعلم بروست من الحياة في الجيش أن يتقن إخفاء شذوذه بادعائه بأنه يشارك الآخرين تقززهم واشمئزازهم من ممارسته. وفي إحدى المرات لاحظ أحد معارفه أنه يسلم عليه باليد بطريقة واضحة الضعف والنعومة فنصحه أن يخشوشن في سلامه باليد على الآخرين. فتظاهر بروست بالفزع واعترض على ذلك بقوله إنه لو فعل هذا لظن الناس أنه من شواذ الجنس، أي أنه قلب منطق الأشياء رأساً على عقب. وفي مناسبة أخرى ادعى أمام أرستقراطي آخر إسمه إيمانويل بيسكو أن ما يهمه معرفته عن أي شخص مأفون أن يعلم إذا كان هذا الشخص من شواذ الجنس أم لا، وهو بذلك يريد أن يترك الإنطباع بأنه يعتبر الشذوذ الجنسي قمة الإنحلال. وقد تسرب هذا الإدعاء الكاذب إلى أدبه فنحن نراه يتظاهر في كثير من

المواضع في تحفته الروائية «البحث عن الزمن الضائع» باستبشاع الشذوذ الجنسي واستهجانه. الأمر الذي يزيد من تعقيد الرواية ويملأها بالتناقضات.

كان بروست من الناحية الجنسية يلاحق من يستملح من الشبان الأرستقراط فضلاً عن أنه ارتاد بيوت الدعارة المخصصة للذكور التي يرتادها حثالة القوم. وبهذا انتقل بروست من قمة المجتمع إلى قاعه. يقول أندريه جيد إنه قام بزيارة بروست الذي «تحدث معي حول الشذوذ الجنسي. وكان يتباهى بشذوذه بدلاً من إنكاره أو محاولة إخفائه وقال إنه لم يحب النساء قط إلا من الناحية الروحية وإنه لم يعرف الحب في حياته أبداً إلا مع الرجال. الأمر الذي يجعلني أميل إلى الإعتقاد أن شواذ الجنس أكثر عدداً مما كنت أظن.» وتحاول سلست ألابيرت مديرة بيت بروست تشكيكنا في صحة هذه الواقعة مؤكدة أن جيد اخترع هذه القصة كي يظهر أن بروست يشاركه في شذوذه الجنسي. ويبدو أن ولاء هذه الخادمة لمخدومها جعلها تسعى إلى تبرئته من تهمة اللواط بخلاف ما تشير إليه الشواهد الأخرى.

وفي ٤ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٠ نشر الناقد بول سودي مقالاً عن قصة بروست «جيرمانتيس» يتهم فيه مؤلفنا بالحس المخنث. فكتب بروست إلى سودي ينفي هذه التهمة مشيراً إلى المبارزة التي حدثت منذ ما يقرب من ثلاثة وعشرين عاماً عندما اتهمه الصحفي جين لورين ضمنياً بأنه على علاقة لواطية بلوسيان دوديه. وقد جاء هذا الإتهام في معرض عرض لورين لأول كتاب ألفه بروست تحت عنوان «اللذات والأيام». وهو كتاب استشعر لورين من ثناياه بالتخنث في نغمته وموضوعه. وهذه الحادثة يذكرها بروست بفخر عظيم ومفادها أنه تحدى الصحفي صاحب الإتهام ودعاه إلى المبارزة دفاعاً عن شرفه ورجولته.

كان بروست مفرط الحساسية لأي اتهام له من بعيد أو قريب بالمثلية أو بالتلميح لها من طرف خفي. ففي أغسطس/ آب عام ١٩٠٨ تعرف بشاب إسمه مارسيل بلانيفني من بلدة كابورج على ساحل نورماندي وهو مكانه المفضل للإستشفاء من مرض الربو. وتوطدت العلاقة بين الشابين فكان بروست يدعو صديقه إلى الفندق الذي ينزل فيه ويتبادل معه الحديث بالساعات ويقرأ له صفحات بأكملها من الرواية التي يكتبها. وفجأة تكهرب هذا الجو الودي بدون مقدمات أو سابق إنذار. فقد استلم هذا الشاب خطاباً من بروست يطلب فيه قطع العلاقة بينهما على الفور بسبب إزدرائه له. وعبثاً حاول الشاب أن يتذكر نوع الإساءة التي ألحقها بصديقه بروست. وظل يقدح زناد ذاكرته دون جدوى وأسقط في يد الشاب فذهب إلى والده واطلعه على خطاب بروست. فتوجه الوالد إلى الفندق لرؤية بروست وسأله عن طبيعة إساءة إبنه إليه. ولكن بروست رفض الإفصاح عنها واكتفى بالقول بأن إبنه يدرك تماماً طبيعة هذه الإساءة وأنه يجدر به أن يستجلي حقيقة الأمر من إبنه. ولكن ذاكرة الإبن عجزت

تماماً عن تذكر أية إساءة من المحتمل أن يكون قد وجهها إلى بروست دون قصد. وأراد الأب أن يساعد إبنه على التذكر فطلب إليه الجلوس بمفرده ساعات طوالاً يفكر في كل ما دار بينهما. ولكن ذاكرة الإبن أعينته فكرر الأب زيارته لبروست محاولاً مرة أخرى الوقوف على سر غضبه. وازدادت الأمور تعقيداً عندما دعا بروست الأب إلى مبارزته لأن إبنه قاصر ولأن واجبه يحتم عليه عبء المبارزة نيابة عنه. وازداد هذا الموقف الضاحك الباكي تأزماً عندما اختار بروست شهود المبارزة وطلب إلى غريمه تحديد مكان المبارزة وزمانها ونوع السلاح الذي يود استخدامه. واستطاع بعض شهود المبارزة أن يستشفوا من بروست بعض التلميحات عن السبب في غضبه من صديقه فعرفوا أن امرأة سيئة السلوك والسمعة ألحت أمامه أن بروست من شواذ الجنس وذلك أثناء مقابلتها هذا الصديق على شاطىء البحر. عندئذٍ فقط استرجع الشاب ما حدث فقال معلقاً: «وفجأة تذكرت ذلك المنظر القصير مرة أخرى. وكانت المقابلة أثناء تريضي على شاطىء البحر سريعة ومصادفة لدرجة أنني لم أفكر فيها ثانية. واعتادت هذه الشابة إغاظة الناس وكثيراً ما عايرت بروست بسبب شذوذه الجنسي. واستوقفتني هذه المرأة على الطريق مرة أخرى لتنفث حقدها المسموم فأجبت عليها بسرعة: «إنني أعرف ما تنوين إخباري به. ولكن هذا أمر لا أهمية له في نظري. عن إذنك يا سيدتي والسلام فأنا على عجلة من أمري. ثم هربت منها بأسرع سرعة ممكنة.» وعندئذٍ انحنى الوالد على إبنه باللائمة قائلاً له: «كان ينبغي أن تحتج عليها. وهذا ما سوف يأخذه بروست عليك.» وهكذا انكشفت خبايا القصة بالتدريج ومؤداها أن هذه المرأة السيئة السمعة قابلت بروست في نفس اليوم وسارت بجواره كي تعايره عن طريق التلميح بشذوذه الجنسي. ثم أردفت قائلة: «إن حبيب قلبك الذي لا تكف عن الكتابة عنه في قصصك التي تزعجنا بها يقول الشيء نفسه عنك. لقد قابلته وفتحت معه الموضوع فقال لي: «نعم أعرف كل شيء عن هذا الموضوع. ولكن الأمر سيان بالنسبة لي.» وعندئذٍ سعى والد الشاب إلى لقاء بروست ليزيل أسباب سوء الفهم بينه وبين إبنه. وبعد لأي وكثير من التردد قبل بروست على مضض أن يقوم الأب بإحضار إبنه للإلتقاء به. ومثلما توقع الأب وإبنه كان أول شيء قاله بروست معاتباً صديقه أنه استمع إلى اتهامات المرأة له بالشذوذ وأنه وافقها على رأيها هذا. وهنا تدخل الإبن ليصحح لبروست معلوماته وكرر على مسامعه الكلمات نفسها التي قالها للمرأة مؤكداً أنها مجرد كلمات كالتي يتفوه بها المرء عندما يريد التخلص من أراذل الناس. وهنا كرر بروست عتابه لصديقه قائلاً: «بكل هذه البساطة ودون احتجاج من جانبك على ما قالت!!». ثم سأل بروست صديقه: «هل بدر مني أي شيء يخدش الحياء أو يدعوك إلى الشكوك في! هل تفوهت بكلمة أو أتيت بفعل واحد من شأنه أن يصدم مشاعرك؟». فأجابه الشاب:

- بالقطع لا

- حسناً. يأتي شخص إليك ويتهمني بأن أخلاقي خطرة ويحذرك مني دون أن تحتج على هذا. أنظر هنا. كان ينبغي عليك أن تمكث وتحتج بعنف على ما قالته... ثم إنك قلت «أعرف... أعرف» فما هذا الذي تعرفه وأي دليل تستند إليه في قولك «أعرف... أعرف ؟» عندئذٍ قال الصديق الشاب إنه فقط أراد أن يقول للمرأة إنه يعرف ما سوف تقول له.

وهنا احتج بروست قائلاً:

- نعم أنت وافقت على ما سوف تقوله لك. ثم كيف عرفت ما عساها أن تقول؟

واتضح لصديقه بلانيفني أن الحوار قد وصل بينهما إلى طريق مسدود. فلم ير الشاب بداً من مواجهة بروست بالحقيقة العارية وقال له: «إن جميع الناس يهمسون بذلك».

وهنا اصفر وجه بروست حتى أصبح في بياض العاج اللامع. وغلبه الإنفعال فالتزم الصمت ثم قال بنغمة حزينة تفيض بالسخرية والإستهزاء: «ما أجمل أن يصل المرء إلى مكان فيجد أن سمعته قد سبقته إليه».

وحاول الشاب أن يخفف من وقع الصدمة على بروست فقال له: «لقد اعتاد الناس توجيه الإتهامات الباطلة إلى سواهم.» ثم ذكر بروست بأن بلاط الملك لويس الرابع عشر اعتاد الخوض في سير الناس وترويج إشاعات من هذا القبيل عنهم. وظل بروست شارد الذهن بعض الوقت ثم سأل صديقه فجأة: «ولكن ما رأيك أنت في كل هذا؟» فرد بلانيفني بقوله: «إنني لا أصدق كلمة واحدة مما يقال، وإلا لما حضرت إليك».

- وما رأي والديك؟

- والديّ لا يصدقان كلمة واحدة مما يقال أيضاً، وإلا لما سمحوا لي برؤيتك.

وهنا ظهرت إمارات الهدوء على وجه بروست الذي قال لصديقه: «إنني أمد إليك يدي وأقدم اعتذاري إلى أبيك... ولكن أنظر هنا. إن ما حدث يرجع إلى حدما إلى خطئك لأنك تتحدث إلى الجميع بصراحة وحماسة زائدتين عن الأمسيات التي زرتني فيها. وأنت لا تحتفظ بسر على الإطلاق... لا تخبر أحداً أنك تأتي لزيارتي. والأفضل أن تعلن أنك قد توقفت عن زيارتي».

- حسناً يا صديقي. إنك بطبيعة الحال سوف تأتي كعادتك دئماً لرؤيتي غداً».

فوعد الشاب أن يفعل هذا. وعادت المياه إلى مجاريهاعندما انفجر الصديقان فجأة في ضحك صبياني يفيض مرحاً وبهجة.

وتلقي هذه الحادثة الضوء على شخصية بروست فهو في حياته الخاصة وفي أدبه على السواء يخضع للضغوط الإجتماعية التي تستهجن ممارسة اللواط. ولا يقف منها موقف التحدي. فقد كان يخشى سخرية المجتمع منه واستهزاءه به. بل إن لون بشرته انخطف وأصبح في مثل بياض المرمر في كل مرة يحس فيها أن أمره قد انكشف. وبطبيعة الحال لم ينجح أسلوبه في إخفاء مثليته عن الناس أو في خداعهم. فقد انتشرت الشائعات في كل أنحاء مصيف كابورج حول شذوذه، لدرجة أن الناس كانوا يعايرونه أثناء سيره وتريضه على الشاطىء.

ولا شك أن اضطرار بروست إلى الظهور بمظهر الإنسان الطبيعي فرض قيوداً على حريته في ممارسة اللواط. الأمر الذي سبب له العذاب. ويخبرنا هنري بوينت أن بروست شرع في ذلك الوقت تقريباً في كتابة المقال الذي بدأ به قصة «سدوم وعامورة» أو «مدائن السهل» وأنه لا بد وأنه استقى مادته من خبرته على شاطىء كابورج الذي سبق أن أشرنا إليها، إلى جانب خبرات أخرى مماثلة. ويصف بروست في «البحث عن الزمن الضائع» شواذ الجنس بأنهم أناس حلت عليهم اللعنة فيقول: «إنهم عنصر ملعون. هم عنصر ملعون لأن مثلهم الأعلى في الجمال وإشباع رغباتهم مصدر لخجلهم وخوفهم من العقاب مثل المجرمين. كما أنهم يضطرون إلى إخفاء أسرارهم عن أحبائهم وأقرب الناس إلى قلوبهم. وهم يتألمون لحزن عائلاتهم وفجيعتها فيهم واحتقار أصدقائهم وعقاب أمتهم لهم. وهم عنصر ملعون لأنهم مضطهدون مثل شعب إسرائيل ولأن مصير هذا الشعب نفسه ينتظرهم في لوم الناس لهم والعيش في مهانة لا يستحقونها. وتقوم عائلاتهم باستبعادهم كما أن أوطانهم تعتبرهم مجرمين ومطاريد. وأصدقاؤهم يبتعدون عنهم لأنهم يتشككون في دوافع صداقتهم لهم.

وقد أبدع بروست في أدبه تصوير محنة هؤلاء الملعونين. ونحن نلاحظ في نظرته إلى الجنس امتزاج البعد الكوميدي بالبعد المأساوي. ولا يجانبناالصواب إذا قلنا إن بروست في أدبه يسخر من نفسه كما يسخر من وسوسته من جهة المرض ومن يهوديته. فضلاً عن أنه يسخر من شذوذه الجنسي من طريق محاكاته لنفسه. ويذهب صديقه مارسيل بلانتوفين إلى أن الخطاب الوارد في «البحث عن الزمن الضائع» الذي أرسله تشارلوس إلى إيميه رئيس الخدم في فندق جراند أوتيل في بالبيك يكاد أن يكون نسخة طبق الأصل من الخطاب الذي أرسله بروست إليه. وحيث أن هدف البارون تشارلوس من وراء خطابه إلى رئيس الخدم هو مراودته عن نفسه، فإن الباحثين لا يستبعدون أن بروست كان يهدف إلى الشيء نفسه من وراء خطابه إلى صديقه بلانتوفين.

ونحن نجد الشيء ذاته في موضع آخر في «البحث عن الزمن الضائع» تحت عنوان «مبارزة

في كابورج» حيث يروي لنا المؤلف على نحو هازل وضاحك قصة البارون تشارلوس مع معشوقه موريل المجند في الجيش. فتشارلوس يسعى إلى إخضاع موريل لنزواته الجنسية من طريق بث الذعر في قلبه من الفضيحة. فقد اخترع حكاية أفزعت موريل كثيراً مفادها أنه يعتزم اتخاذ الإجراءات نحو مبارزة الضابطين المسئولين عن كتيبة موريل. نظراً لأنهما يتهمان تشارلوس بوجود علاقة مشبوهة تربطه بموريل. وكما توقع تشارلوس أصاب الفزع قلب الشاب موريل وخشي من مغبة الفضيحة فهرع إلى البارون كي يرجوه أن يلغي إجراءات المبارزة دون أن يدري أنها مبارزة وهمية تهدف للإيقاع بالشاب الغرير في مصيدة نزواته. وحتى يتقن تشارلوس حيلته أرسل بالفعل خطاباً إلى الدكتور كوتارد يطلب إليه أن يصبح شاهده في مبارزة الشرف التي ينوي الدخول فيها. ولما جاء موعد المبارزة قام البارون بإلغائها على أساس أن الإهانة غير صحيحة ولا تعدو أن تكون شائعة مختلقة. ومما زاد من هزل هذا الموقف وكوميديته أن الدكتور كوتارد لم تنطل عليه الحيلة التي التجأ إليها البارون وأدرك أنها مجرد ساتر يخفي هذا البارون وراءه نزعاته الجنسية الشاذة. ولكنه يخطىء فيظن أنه هو وليس المجند موريل المقصود بهذه اللعبة.

وبروست لا يسخر من شذوذه الجنسي فحسب بل من ازدراء المجتمع لهذا الشذوذ حتى يقلل من استهجان الناس له. حتى الدكتور كوتارد ينسى أن الطب مهنته فيقشعر بدنه من ملمس شواذ الجنس . ومن الواضح أن تفسير الشذوذ الجنسي على نحو فرويدي لا يتفق مع موقف بروست منه. فنظرية فرويد تنطوي على الإعتقاد بأن ممارسة الشذوذ الجنسي تحركه دوافع لا شعورية أقوى من قدرة المريض على التحكم فيها والسيطرة عليها، في حين أن سخرية بروست من شذوذه الجنسي تدل على أنه على وعي كامل بمرضه.

غير أن لواط بروست لم يمنعه من الاهتمام بجنس الإناث. ويختلف الباحثون فيما بينهم في تحديد مدى اهتمامه بالمثلية وبالجنس اللطيف، فتذهب مديرة بيته سلست ألباريت إلى أن ميله إلى الجنس اللطيف يفوق كثيراً ميله إلى المثلية. ويضرب الباحثون الذين يحذون حذو سلست ألباريت مثلاً على ذلك بشخصية موريل الذي يظهر ميلاً إلى النساء بقدر ما يظهر من ميل إلى الرجال. حتى البارون تشارلوس الذي رسمه بروست كتجسيد للشذوذ الجنسي رجل متزوج ويتفانى في حب زوجته وهو بعد وفاتها يزور قبرها بانتظام. ومن ثم فنحن نجد أنفسناأمام فريقين من الباحثين يتعارضان تماماً. فريق يؤكد لواط بروست وفريق آخر يؤكد ممارسته السوية للجنس. حتى الباحثون الذين يذهبون إلى تأرجح علاقات بروست بين الجنسين يرون أنفسهم مضطرين إلى الشك في رواية الأديب المعروف أندريه جيد الذي يقول إن بروست اعترف له بانصرافه الكامل إلى ممارسة الشذوذ الجنسي وبكراهيته لممارسة الجنس مع النساء. وهي شهادة

تتعارض مع غزوات بروست الغرامية المعروفة مع الجنس اللطيف. فمن الثابت أنه كان يغازل النساء من جميع الأعمار والطبقات ويمتدح جمالهن وفتنتهن. وكانت الفتيات الصغيرات في السن بالذات يرقن في عينيه. ولعلنا نذكر في هذا الصدد كيف أنه ما انفك يغازل جين كالافيه خطيبة صديقه جاستون لدرجة أنها ضاقت به ذرعاً وشكته إلى خطيبها. بل إنه لم يتورع فيما بعد عن حب ابنتها الجميلة سيمون. وذات مرة زار بروست صديقه القديم جاستون وزوجته في منتصف الليل لرؤية إبنتهما سيمون البالغة من العمر آنذاك ستة عشر عاماً. ورغم أنها كانت مستغرقة في النوم فقد ألحف في رجاء والديها إيقظاها حتى يراها. فجاءته الفتاة تبتسم له وهي ناعسة ففتن بسحر جمالها. وبلغ هيامه بها مبلغاً جعله يكتب فيما بعد إلى والدها ليكشف عن ولهه بابنته.

وإلى جانب ذلك وقع بروست في شبابه في غرام ثلاث فتيات بإسم ماري. فقد سبق أن أشرنا إلى غرامه وهو في السادسة عشرة من عمره بماري دي نارداكي تلك الفتاة البولندية الأرستقراطية التي كان يلعب ويمرح معها في الشانزليزيه. ثم وقع في غرام ماري فينالي أخت واحد من أصدقائه في المدرسة. ثم إنه في صباه أحب أيضاً ماري وصيفة أمه. فلما اكتشفت أمه علاقتها بإبنها قامت بطردها من خدمتها. فضلاً عن أنه أحب وهو في السابعة عشرة سيدة في السابعة والثلاثين من عمرها دون أن يلتفت إلى فارق السن بينهما، الأمر الذي يدل على أن تفضيله للفتيات الصغيرات لم يقف عائقاً أمام حبه للسيدات اللائي في منتصف العمر. وأيضاً ارتبط بروست بعلاقة غرامية عنيفة مع امرأة تدعى لويزا دي مورناند وهي ممثلة كانت فيما مضى عشيقة صديقه لويس دالوفيرا. كان بروست لا يحترم لويزا كممثلة غير أنه كان شديد الإعجاب بجسدها كامرأة. ورغم قصر العلاقة الغرامية بينهما فقد أهداها بروست نسخة من ترجمته «كتاب أميين المقدس» للشاعر جون راسكين بعد أن كتب عليه الإهداء التالي: «من لم يحظ بحب لويزا فلا بديل من ارتكاب معصية الإستمناء».

ومن آن لآخر راودت بروست فكرة إقامة حياة زوجيه طبيعية. ويشهد على ذلك موريس دوبلاي الذي يقول إن بروست وقع يوماً ما في غرام آنسة تدعى هيلين دي نيل جعله يفكر في الزواج منها. وتدل خطاباته على أنه قابل فتاة في شاطىء كابورج عام ١٩٠٨ فوقع في غرامها بمجرد أن رآها واستمر على علاقة بها بعد أن عاد الإثنان إلى باريس. يقول بروست في رسالة بعث بها عام ١٩٠٨ من شاطىء كابورج إلى صديقه جورج دي لويس إنه استمتع قليلاً مع امرأة جديدة وعزيزة عليه لدرجة أنه في أوائل عام ١٩٠٩ بدأ يستعد للزواج بها. ولم يمنعه من إتمام الزواج غير الشكوك التي راودته بشأن صلاحية اتخاذ مثل هذا القرار. وعندما استبدت به الحيرة أرسل إلى صديقه جورج يستفسر منه إذا كان من الحكمة أن يجعل امرأة تشاركه حياته

المضطربة حتى إذا كانت هذه المرأة لا تخشى مجابهة مثل هذه الحياة. أو ليس الزواج ممن كان في مثل حالته جريمة، وأدى به الشك إلى نبذ فكرة الزواج. وحتى يومنا الراهن لم يكتشف الباحثون إسم المرأة التي أحبها وعزم على الزواج منها لأنها طلبت أن يبقى إسمها في طي الكتمان. ونحن نطالع قصة هذا الحب في رواية «البحث عن الزمن الضائع». وتذكر سلست ألباريت أن بروست كان يعتزم الزواج من إحدى قريباته البعيدات المليحات ولم يمنعه من ذلك غير اعتراض أمه على هذا الزواج. فضلاً عن أنه لم يكف عن ملاحقة الكونتيسة لور دي شفين وعن مغازلة مدام ستراوس الأمر الذي يدل على إقامته مشاعر طبيعية مع الجنس الآخر. غير أن نفراً من الباحثين يميل إلى الجزم بنزعة بروست إلى المثلية وأن نزوعه إلى الجنس الآخر ليس سوى ساتر يخفي وراءه شذوذه الجنسي أو مجرد مشاعر رومانسية كالتي يدمنها اللواطيون في العادة. ويؤكد أنتوان بيبسكو ـ وهو صديق لبروست ـ تجربة بروست الجنسية الفاشلة في بيت دعارة وخلو ممارساته الجنسية مع العاهرات من الدفء. وشعر بروست بسبب ظروفه الصحية السيئة بالبرودة وهو يمارس الجنس معها لدرجة أنه طلب إحضار قِرب الماء الساخن والتدثر بأغطية إضافية.

كان بروست من الناحية الجنسية يلاحق من يستملحه من الشبان الأرستقراط فضلاً عن أنه ارتاد بيوت الدعارة المخصصة للذكور التي يرتادها حثالة القوم. وبهذا انتقل بروست من قمة المجتمع الفرنسي إلى قاعه. يقول الروائي اللواطي المعروف جور فيدال في هذا الشأن إنه أثناء زيارته لباريس قابل وهو في صحبة الأديب الفرنسي كوكتو واحداً من أعز أصدقاء بروست الذي ذكر لهما أن بروست أحب فتى جزائرياً إسمه سعيد فاشترى له فندق سومون ليمارس فيه دعارة الذكور بحجة أن هذا الفندق حمامات عامة. وتوجه جور فيدال لمقابلة سعيد الذي حدثه عن كثرة ارتياد بروست لهذا الفندق ومن عادته في الجلوس للفرجة وظهره يستند إلى الحائط ويتدثر بسبب مرضه وإحساسه الدائم بالبرودة بجاكتة من الفراء في عز الصيف. ويضيف جور فيدال أنه عبثاً حاول أن يعرف من سعيد ما كان بروست يفعله في بيت دعارة الذكور على وجه التحديد. فقد اكتفى سعيد بالقول بأنه كان يحلو له التطلع إلى ما يحدث من خلال ثقب في الجدار، ويعلق فيدال على ذلك بأن سعيد أراد أن يخفي أسرار بروست الجنسية عن فضول الناس. ويقول الدارسون إن قصة سعيد ليست يقينية لأن إسمه لم يرد في أية أوراق أو وثائق أخرى خاصة بسيرة حياة بروست.

وإذا كانت الشكوك تساور الدارسين بشأن حقيقة قصة سعيد فمن المؤكد أن بروست كان على علاقة بلواطي إسمه ألبرت لي كوزبات الذي كان بدوره على علاقة بجندي إسمه أندريه. ويبدو أنهم جميعاً كانوا على علاقة ثلاثية الأطراف (بروست ـ ألبرت ـ أندريه). ورغم هذا

فإن سلست ألباريت ـ مديرة بيت بروست ـ تؤكد أن سيدها لم يكن يطيق رؤية ألبرت لي كوزبات الذي بدأ كخادم في عدد من بيوت الأرستقراط والتقى به بروست عام ١٩١١. ومن المؤكد على أية حال أن بروست كان يعرف هذا اللواطي الذي لم يكن له شاغل في الحياة سوى ممارسة اللواط ومعرفة إيتكيت الطبقة الأرستقراطية وأنسابها. وهي معلومات استفاد منها بروست وضمنها في روايته «البحث عن الزمن الضائع». ويبدو أن هذا الرجل كان يعيش في فزع دائم بسبب مداهمة البوليس له والزج به في السجن في كثير من الأحيان.

ويقال أيضاً إن بروست سعى ما وسعه السعي إلى إرضاء نزعاته السادية. وإن بعض معارفه الذين عرفوا ذلك عنه تعمدوا التندّر عليه والتشجيع على اختلاق روايات ليس لها أساس من الصحة تنم عن اتسامه بمنتهى القسوة. يقول وولف فون هاردر إن بروست أراد إحضار جزار إليه لسؤاله عما يفعل في نحر الذبائح. وتظاهر أحد الخبثاء أنه جزار ورد على كل تساؤلاته وادعى أنه قام لتوه بنحر ثور وأن يديه تلطختا بدماء هذا الثور. وبدت إمارات الرضا على بروست فنفح محدثه بقشيشاً. ونحن نرى تشارلوس في «البحث عن الزمن الضائع» يتلذذ من منظر التعذيب في بيت دعارة جوبيين للذكور. ويبدو أن بروست كان يستمد لذة بالغة من مشاهد القسوة التي تقع أمام ناظريه. ومن مظاهر استمتاعه بالقسوة أنه كلف البعض بإحضار عدد من الفئران ثم قام بوخزها بالأبر والدبابيس. بل إنه كان يتلذذ بمنظر تدنيس صور السيدات المحترمات مثلما نرى في روايته «البحث عن الزمن الضائع». حيث نرى فتاة تمارس السحاق تحت صورة والدها المعلقة. ويشهد أندريه جيد بأن بروست اعترف له بواقعه وخزه الفئران بالأبر.

ويعكس أدب بروست هذه النزعة إلى السادية حيث نجد سيدة تذبح كتكوتاً بوحشية لتعد به وجبة الغداء. ونحن نلاحظ في أدبه امتزاج الجانب الشيطاني بالجانب القدسي في الطبيعة الإنسانية. وتؤكد سلست ألباريت مديرة بيته أن اهتمام مخدومها بألبرت صاحب بيت دعارة الذكور اهتمام علمي يساعده في فهم الطبيعة البشرية وتغيراتها، الأمر الذي يفيده في رسم صورة واقعية للحياة في أدبه. تقول سلست إن مخدومها كان يحدثها بانفعال واضح عقب كل زيارة يقوم بها لبيت ألبرت لدعارة الذكور كما لو كان عائداً لتوه من حفل استقبال يقيمه علية القوم. وعندما عاتبته مربية بيته على استضافته لرجل سيىء السمعة مثل ألبرت في بيته رد عليها بقوله: «أعرف هذا يا سلست. ولكني لا أملك غير أن أكتب عن الأشياء كما هي في الواقع. ولهذا يتعين علي أن أراها بعيني رأسي.» وقد أوحى إليه بيت ألبرت لدعارة الذكور بواحد من أهم المناظر في «البحث عن الزمن الضائع». ويتلخص هذا المنظر في اللذة الجنسية التي يجدها البارون تشارلوس في رؤية منظر الجلد بالسياط. وهو منظر لم يكن بإمكان مؤلفنا

أن يضعه على هذا النحو من الدقة لولا أنه رآه بنفسه. وتروي لنا سلست ألباريت على لسان مخدومها التجربة التي شاهدها بنفسه في بيت دعارة الذكور. يقول بروست مخاطباً مربية بيته: «يا عزيزتي سلست، الذي رأيته هذا المساء يفوق قدرتي على التخيل... ذهبت إلى كوزيات كما تعرفين فأخبرني بأن رجلاً جاء إليه في بيت الدعارة لضربه بالسياط. وشاهدت كل منظر الضرب من حجرة إلى أخرى وذلك خلال نافذة صغيرة في الجدار. وهاأنذا أقول لك. إن ما رأيت لا يمكن تصديقه. لقد ساورتني الشكوك فأردت أن أقطع الشك باليقين. وها أنا قد حصلت على هذا اليقين فقد رأيت رجلاً ثرياً من رجال الصناعة يقوم خصيصاً بهذه الرحلة آتياً من شمال فرنسا لهذا الغرض. رأيته في حجرة مغللاً ومقيداً إلى الحائط بسلاسل موصدة ورأيت شخصاً من حثالة الناس لا أعرف من أين جاء يتقاضى أجراً على ما يقوم به من عمل يتلخص في جلد رجل الصناعة الثري بالسوط حتى يدمي جسده. ويتفصد بحبات الدم. وفي تلك اللحظة فقط بلغ هذا البائس قمة النشوة.» وهنا أصاب الرعب سلست التي قالت إنها لا تصدق أن مثل هذه الأشياء يمكن أن تحدث فأكد لها بروست أنها قصة واقعية لا أثر للخيال أو الإختراع فيها. ثم اعترف بروست بأنه أجزل العطاء لصاحب بيت الدعارة على إتاحة الفرصة له لمشاهدة هذا المنظر العجيب. وظل يعيد ويزيد في وصف وقائع هذه الحادثة حتى لا ينسى أيا من أدق تفاصيلها.

يعتبر الدارسون عشق بروست لسائق السيارة الخصوصي الفريد أجو ستنلي حبه الكبير. كان ألفريد في الثامنة عشرة من عمره عندما قابله بروست لأول مرة عام ١٩٠٧ في مدينة كابورج الساحلية. وبلغ اعجاب بروست بهذا الشاب القادم من موناكو مبلغاً جعله يسطر مقالاً عنه في صحيفة الفيجارو في عددها الصادر في ١٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٠٧. فضلاً عن أنه تناوله في أدبه الروائي. وقد انتهت حياة هذا الشاب نهاية تعيسة إذ توفى وهو في السادسة والعشرين في حادثة طائرة. أثار أجو ستنلي إعجاب بروست بذكائه المتقد وقدرته على الكتابة الأدبية كما يتضح من خطاباته. وحين عاد بروست إلى كابورج عام ١٩٠٨ قام بعمل بعض الرحلات بسيارة يتولى أجو ستنلي قيادتها. غير أن المرض ما لبث أن داهم بروست واضطره إلى البقاء في حجرته حيث أزجى وقت الفراغ بلعب الدومينو مع خادمه والسائق الخصوصي أجو ستنلي. وفي عام ١٩١٣ سافر أجو ستنلي إلى باريس بحثاً عن عمل. وهناك طلب إلى بروست أن يعينه سائقاً لسيارته الخاصة. ولكن بروست لم يجبه إلى طلبه لأنه لم يشأ أن يتخلص من أوديلون ألباريت سائقه الخصوصي الذي تزوج فيما بعد مربية بيته. كان أجو ستنلي آنذاك على صلة بامرأة تدعى آنا تغار عليه غيرة شديدة. ولم تكن هذه المرأة الغيور تعلم شيئاً عن خيانته لها مع غيرها من النساء. ولكن عاشقه بروست كان على علم كامل بمدى خيانته لها. وفي

أغسطس/ آب ١٩١٣ كان بروست في إحدى زياراته للمدينة الساحلية كابورج حيث مر بأزمة عاطفية حادة وشعر برغبة عارمة في مغادرة كابورج والتوجه إلى باريس للإختلاء بعشيقه أجو ستنلي. وبالفعل استجاب بروست لنزوته فسافر مع عشيقه إلى باريس دون أن يعود إلى الفندق الذي ينزل فيه أو يدفع الحساب بل دون أن يأخذ معه أياً من ملابسه أو متاعه.

كان بروست يخشى على حياة معشوقه أجو ستنلي من مغبة الطيران ومخاطره فنصحه أن ينبذ فكرة تعلمه. غير أن نصيحته ذهبت سدى بسبب شغف أجو ستنلي الشديد بالطيران من ناحية وتشجيع عشيقته آنا له على تعلمه من ناحية أخرى، فقد كانت عشيقته تحلم بأن يصبح طياراً ويصيب الثراء العريض. وتمكن أجو ستنلى أن يلحق بمعهد طيران خارج باريس بفضل ما ادخره من المال الذي كان بروست يغدق به عليه. وعجز بروست عن إثنائه عن عزمه وإغرائه بالعودة إلى باريس. وسعى بروست في سبيل ذلك إلى الضغط على عشيقة أجو ستنلي كي تترك عشيقها وشأنه وتغريه بنبذ الطيران وقال لها متوعداً إنه إذا حدث لأجو ستنلي مكروه بسبب الطيران فعليها ألا تتوقع منه أية مساعدة. وصدقت نبوءة بروست فقد وقعت لعشيقه الحادثة التي كان يخشاها في الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم ٣٠ مايو/ أيار ١٩١٤ وذلك خلال ثاني رحلة يطير فيها بمفرده بعد فترة من التدريب على الطيران دامت شهرين أظهر فيها هذا الشاب تقدماً ملموساً. ويبدو أن أجو ستنلي تعجل الأمور فغرّته ثقته بالنفس وظن أن معرفته بالطيران أصبحت تؤهله بالقيام بمفرده برحلة فوق البحر. وفي محاولة الإلتفاف بطائرته على ارتفاع منخفض ارتطمت هذه الطائرة بالماء على بعد لايزيد على بضعة ياردات من الشاطىء فابتلعه اليم لأنه لم يفكر أبداً في تعلم السباحة وذلك قبل أن يتحرك أحد لإنقاذه. وهكذا مات أجو ستنلي في ريعان الشباب وهو في الخامسة والعشرين من عمره.

وفي حزنه على حبيبه الذي فارقه نسي بروست تهديده لآنا بعدم تقديم أية مساعدة لها ودعاها كي تعيش معه تحت سقف واحد محاولاً أن يسري عنها لوفاة حبيبها بقدر ما كانت آنا تسري عنه لوفاة أجو ستنلي. ومن الواضح أن صدمة وفاة عشيقه المفضل كانت شديدة الوقع عليه فقد صرح لأندريه جيد بأن موته كان فجيعة له. ورغم مضي عام على فراق حبيبه فقد أرسل في أبريل/نيسان ١٩١٥ خطاباً إلى كليمنت دي موني يعبر فيه عن عميق حزنه لوفاة حبيبه الذي أحبه بالقدر نفسه الذي أحب به أباه وأمه. كما أنه كتب إلى رينيه بلوم عام ١٩١٦ خطاباً يصف فيه عشيقه أجو ستنلي بأنه «الشخص الذي أحببته أكثر مما أحببت الآخرين.» ويعبر بروست عن تقديسه لعشيقه أجو ستنلي في روايته «البحث عن الزمن الضائع» مثلما سبق أن عبر عن تأليهه لرينالد هاهن في روايته «جين سانتيل». وليس أدل على شغفه بأجو ستنلي من أنه بعث بالمراسيل والمخبرين الخصوصيين لإقناعه بنبذ الطيران وعودته إلى باريس.

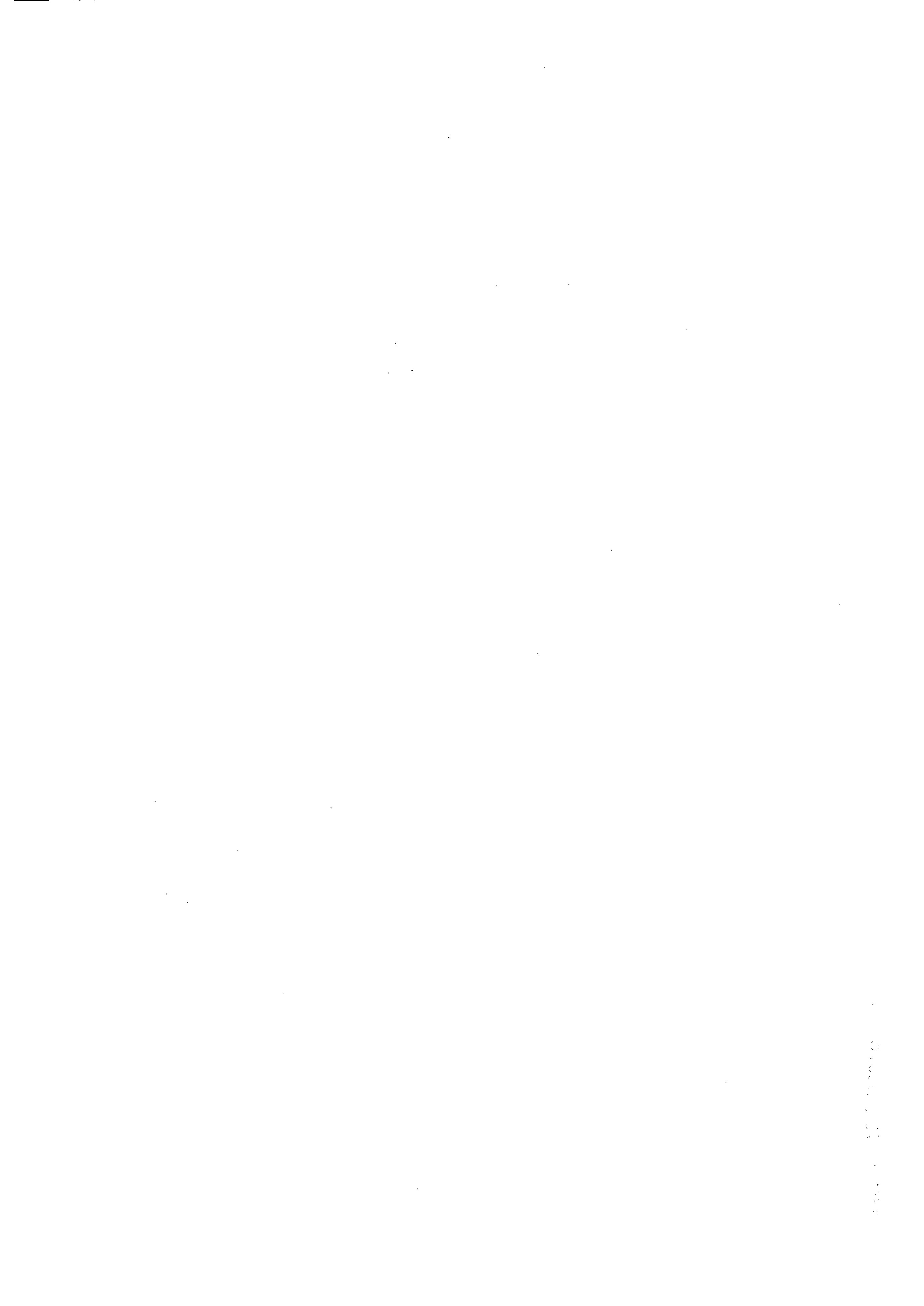
فضلاً عن أنه أرسل برقيات مطولة إلى شخص يدعى ألبرت ناهميس للغرض عينه. ومن مفارقات القدر أن يتسلم بروست خطاباً من عشيقه أجو ستنلي عقب سماعه نبأ وفاته مباشرة. ومما يزيد من هذه المفارقات أن يقوم بروست بإرسال خطاب إلى أجو ستنلي في نفس يوم مقتله.

ويجدر بالذكر أنه يندر أن نجد إنساناً في مثل موضوعية بروست وفي مثل قدرته على تأمل عواطفه وتحليلها. ومن دلائل موضوعية بروست إنه لاحظ أنه لم يحزن على وفاة عشيقه بالدرجة الكافية وأن حزنه عليه اشتد في أوقات لاحقة، الأمر الذي جعله يدرك عدم ثبات المشاعر الإنسانية وتذبذبها بسبب ما يعتريها من تغيرات من وقت لآخر. يقول صديقه ليون دوديه في هذا الصدد إن جانباً من عقل بروست كان يتأمل ويحلل ما يفعله الجانب الآخر من عقله. فضلاً أن جانباً ثالثاً من هذا العقل كان يلاحظ بدون اكتراث أو مبالاة ما فعله الجانبان الآخران. وقد أدت قدرته المذهلة على تحري الموضوعية إلى أن يرى نفسه كمهرج كوميدي أحياناً وكبطل تراجيدي أحياناً أخرى. وكانت قدرته على تحليل ذاته على هذا النحو نقمة عليه بقدر ما كانت نعمة له. ومما زاد من وجيعة بروست في عشقه أنه لم يكن غافلاً عن عدم اكتراث أجو ستنلي به بل كان يدرك تماماً أنه يعتبره مجرد مصدر للحصول على المال والهدايا.

وبعد وفاة حبيب قلبه أجو ستنلي اتخذ بروست لنفسه سكرتيراً وعشيقاً آخر من سويسرا إسمه هنري بوشات الذي شاء قدره أن يتوفى في سن باكرة. وبموته طرأ تغيير على موقف بروست من المثلية. فبعد أن كان في فترة علاقته بأجو ستنلي يتحدث عن اللواطية بشحنة عاطفية أصبح في الفترة بين ١٩١٧ و١٩١٨ يتحدث عنها بحياد وموضوعية وكأنها شيء ناءٍ وبعيد لا يعنيه في قليل أو كثير. ولم يفت هذا التغير على بروست فأصبحنا نراه لا يتكتم الحديث عن الشذوذ الجنسي مثلما كان يفعل من قبل. كما أنه يعرض له على نحو هازل مستخف قائلاً: «إن عدد شواذ الجنس أصبح كبيراً لدرجة تجعل المرء يقول عنهم إنهم هم الطبيعيون». والجدير بالذكر أنه لولا أن بروست استطاع أن يستفيد من الشذوذ الجنسي في إثراء أعماله الفنية لأصبح هذا الشذوذ مجرد شيء قميء. فضلاً عن أن بروست ربط بين الشذوذ الجنسي ومكابدة العذاب الأمر الذي أضفى على أدبه بعداً إنسانياً عميقاً.

- ٤ -

توماس مان
(١٨٧٥ - ١٩٥٥)



الفصل الرابع

تنحدر عائلة توماس مان من بلدة لوبيك الألمانية التي أُنشئت عام ١١٥٨ وظلت مدة سبعة قرون متتالية تتمتع بالإنتعاش التجاري حتى اندلاع الحرب النابليونية في أوروبا. وينتمي توماس مان إلى أسرة مكونة من أب ألماني يدعى جوهان هنريش مان وأم ألمانية ـ برتغالية عاشت في ريو دي جانيرو عاصمة البرازيل حتى السابعة من عمرها، بعدها حضرت إلى ألمانيا وإسمها جوليا داسيلفا برونز. وبسبب ثراء عائلة مان أباً عن جد عاش أفرادها في بحبوحة من العيش. وتتكون عائلة مان من خمسة أفراد ثلاثة ذكور وأنثيان. ولد هنريش أخ توماس مان الأكبر في ٢٧ مارس/ آذار ١٨٧١ ثم ولد أخوه الأصغر توماس من بعده بأربعة أعوام، وذلك في ٦ يونيه ١٨٧٥. وساعد على عشق الأخوين هنريش وتوماس للأدب أن بيتهما في مدينة لوبيك كان أشبه بالصالون الثقافي يجتمع فيه أصدقاء العائلة وخلانها لمناقشة شتى شئون الأدب والموسيقى والإشتراك في الحفلات الراقصة وسط حفاوة رب الدار وزوجته.

كان من عادة الأم أن تقرأ على أبنائها القصص الخيالية وتروي لهم الحكايات الشعبية الألمانية التي برعت فيها رغم الدماء البرتغالية التي تجري في عروقها. فضلاً عن أنها تغني لهم وتسمعهم أرقى أنواع الموسيقى مثل بيتهوفن وواغنر. وكان توماس في طفولته مفتوناً بلعبته الأثيرة إلى قلبه وهي حصان خشبي هزاز يحتضنه كما يحتضن العاشق الولهان حبيبته. وعبثاً حاول الأب أن يغرس في هذين الأخوين حب التجارة فقد نفرا منها وازورا عنها ورفضا أن يقتفيا أثر أبيهما رجل الأعمال الناجح والمرموق في مدينة لوبيك. وكان هنريش يحتفظ في طفولته بكمان لم يكن يتقن العزف عليه ويغار من أخيه توماس كلما رآه ممسكاً بكمانه ويعزف

عليه بمهارة. وانكسر هذا الكمان ذات يوم فانفطر قلب هنريش الصغير حزناً عليه. غير أنه وجد نوعاً من العزاء والسلوى عندما أدرك أن أخاه لن يتمكن من العزف عليه بعد اليوم. ويشير الخلاف الذي نشب آنذاك بين الأخوين إلى النزاع الذي سوف يدب بينهما في المستقبل. ومما ساعد على اتساع هوة الشقاق بين الصغيرين أن هنريش اعتقد أن أمه تحابي أخاه توماس وتظهر نحوه قدراً أكبر من الحب والحنان. ومن المؤكد أن توماس شعر بالأمان التام في حب أمه. ولكن هذا الأمان كان يتبدد كلما وجد أباه عنيفاً في سخطه عارماً في غضبه، الأمر الذي جعله يفضل أمه على أبيه. ولاحظ الصبي توماس مقدار ما تمتع به والده من سلطة ومهابة بين سكان لوبيك. وكان الأب يحلم أن يأتي اليوم الذي يرى فيه إبنه يتمتع بنفس سلطته ومهابته بين الناس. ولكن هذا لم يفلح قط في إغراء الصبي بالإقتداء بوالده. ولم ينفر توماس من الإشتغال بالتجارة فحسب ولكنه نفر أيضاً من المدرسة. يقول توماس مان في هذا الشأن: «كرهت المدرسة وفشلت في تلبية مطالبها حتى النهاية بسبب ما جبلت عليه من مقاومة تصيبني بالشلل أمام جميع المطالب الخارجية. وهو الشيء الذي تعلمت أن أصححه بشق الأنفس في وقت لاحق.»

أشرنا إلى احتدام الخلاف بين الأخوين هنريش وتوماس منذ الصبا. فنادراً ما كانا يلعبان معاً بل إنهما امتنعا عن التحدث إلى بعضهما البعض لمدة عام كامل. وفي صباه أظهر هنريش مهارة ويسراً في الرسم. ويذكر توماس عن أخيه حدة اللسان وطوله، فقد ذكر ذات مرة لإبنته فيما بعد «إن لسان هنريش قادر على الإيذاء الشديد». وقد نزع توماس منذ نعومة أظفاره إلى حياة الدعة والكسل. وهو كسل غالب نفسه حتى يشفى منه فلم ينجح من الشفاء منه تماماً. ألحقه والده بمعهد للتجارة وإدارة الأعمال ولكنه سرعان ما انفض عنه. ورغم أن والده لاحظ إزوراره عن الإشتغال بالتجارة فإنه ألحقه في حداثته في مكتبة لبيع الكتب في لوبيك لعل هذا يجذبه نحوها. وهناك تعرف بإبن صاحب المكتبة الذي شاركه نفوره من العمل التجاري.

وقد جر عليه أول عمل سطره في حياته المشاكل، فقد دفعه الغرور والخيلاء إلى أن يعرض على واحد من زملائه التلاميذ رواية رومانسية من تأليفه فأطلع زميله المدرس على هذه الرواية الذي ساءه ما لاحظه على تلميذه من تمرد وخروج عن المألوف.

على أية حال بدأ توماس مان محاولاته في الكتابة بتأليف بعض المسرحيات الصبيانية التي قام أخواه وأختاه بتمثيلها في حضرة والديه وأقاربه ومعارفه. كما ألف مجموعة من القصائد والأشعار ثم تدرج بعد هذا إلى كتابة الحكايات. ومما زاد الطينة بلة أنه اشترك مع بعض التلاميذ الراديكاليين في إصدار مجلة تتضمن أفكاراً متمردة بعنوان «عاصفة الربيع» أسهم فيها بكتاباته

الفلسفية والثورية. ويذكر لنا توماس مان كيف أنه بعد أن دانت له الشهرة سافر إلى مسقط رأسه في لوبيك حيث التقى بمدرسه القديم الذي علمه اللغتين اللاتينية والألمانية والذي كان يعتبر توماس تلميذاً خائباً عديم الفائدة. وأعاد توماس على مسامع مدرسه العجوز تعليقات هذا المدرس على أشعار شيلر فبدت على وجه الرجل الغبطة البالغة.

يقول توماس مان في «موجز عن حياتي» إن والده توفي من تسمم الدم وهو لايزال في الخامسة من عمره وإن جنازته في لوبيك كانت مهيبة. ويضيف قائلاً إن عائلته اضطرت إلى تصفية كثير من أعمال الأب في لوبيك فضلاً عن بيع منزلهم المنيف الواسع هناك. واشترت الأم فيلا متواضعة بحديقة خارج هذه المدينة. ولكن الأم في نهاية الأمر فضلت أن تترك لوبيك وتستقر في ميونيخ بالقرب من الجبال آخذة معها أخويه وأختيه وتاركة إياه في رعاية عائلة أحد الأساتذة ليكمل تعليمه في مدرسة لوبيك. ورغم ضيق الأساتذة في لوبيك منه بسبب كسله فإنه احتفظ بروحه العفوية العالية إذ كان على علاقة طيبة بزملائه التلاميذ يشاركهم قبل الأوان معاقرة الخمر. وأخيراً حصل توماس على شهادته المدرسية فغادر لوبيك إلى ميونيخ حيث عمل كموظف في شركة تأمين يملكها صديق قديم لوالده كان يشتغل بالتجارة في لوبيك.

ويحدثنا توماس مان عن سفره مع أخيه في شبابهما إلى روما التي كانت ملاذاً يلجأ إليه بعض شواذ الجنس. وبوجه عام راقت له تماثيل الفاتيكان القديمة أكثر مما راقت له اللوحات التي رسمها الفنانون الإيطاليون في عصر النهضة. وليس أدل على أن توماس عاش حياة ملؤها الدعة والرغد أن أمه كانت تعطيه في صدر شبابه من ميراث والده كما تعطي أخاه هنريش مائة وثمانين ماركاً تقريباً وهو مبلغ كبير مكنه من الإستمتاع بطيبات الحياة. وفي روما أدمن توماس تدخين السجائر وانكب على قراءة الأدبين الروسي والإسكندنافي. ومن المؤكد أنه كان شديد الثقة بأن مواهبه لا بد وأن تظهر للعالمين في يوم من الأيام. وليس أدل على فرط ثقته بنفسه من الحكاية التالية: أرسل توماس إحدى قصصه إلى رئيس تحرير مجلة تصدر في مدينة ليبزج إسمه لوديفج جاكوفسكي فأرسل إليه هذا الرجل خطاباً يعبر فيه عن دهشته من فرط عبقريته قائلاً: «يا لك من مخلوق موهوب». وضحك توماس مان في نفسه من استغراب الرجل من موهبته واعتبره إنساناً ساذجاً؛ ولا غرو فقد كان توماس مان يعتبر موهبته أمراً مفروغاً منه. على أية حال أقبلت المجلات ودور النشر على نشر أعماله في وقت باكر للغاية. ففي أثناء إقامته في روما شاهد في مكتباتها أول مجموعة قصصية أصدرتها له المطابع الألمانية. وأيضاً في فترة إقامته بإيطاليا بدأ توماس في كتابة روايته الهامة «بودنبروكس» التي فرغ من كتابتها بعد عودته إلى ميونيخ. وفي تلك المدينة عاش بعض الوقت مع أمه. غير أنه آثر أن يستقل في مسكنه عنها جرياً وراء حياة بوهيمية منطلقة. وفي ميونيخ قابله صاحب دار نشر يدعى كورفيز هولم الذي زامله

في مدرسة لوبيك، فعرض عليه وظيفة قارىء للمخطوطات القصصية والأدبية فيقوم بفرزها تمهيداً لعرضها على المسئولين عن النشر. وقد نشرت له دار النشر التي يملكها زميله قصة بعنوان «إرادة السعادة» فضلاً عن «الطريق إلى فناء الكنيسة» وقصيدة عن عيد الميلاد أو الكريسماس. كما نشرت هذه الدار برضا بالغ دراسته عن الشاعر شيلر بمناسبة مرور مائة عام على وفاته.

كان توماس مان يقرأ أحياناً لعائلته وأصدقائه المجتمعين بعض ما كتب في روايته بودنبروكس الأمر الذي أضحكهم وأدخل عليهم البهجة والسرور وهم معتقدون أنه لا يهدف من وراء كتاباته سوى تسلية نفسه والآخرين وتزجية وقت فراغهم. وفي تلك الفترة توطدت علاقته مع الأخوين كارل وبول وهما إبنا رسام في أكاديمية مدينة درزدن، الأكبر يدعى كارل والأصغر يدعى بول. كان كارل موسيقياً محترفاً وأستاذاً في أكاديمية كولوني في حين كان بول رساماً وهاوياً يتقن العزف على الكمان. وأيضاً في تلك الفترة من حياة توماس مان نراه يهوى الدراجات حتى أثناء هطول المطر وأنهماره. فضلاً أن توماس مان ربطته علاقة حميمة بإثنين من كتّاب القصة أحدهما يدعى كيرت مارتنز الذي شجعه على مواصلة إنتاجه الأدبي والآخر يدعى آرثر هوليتشر الذي لم ترق له كتابات مان بسبب ما تنطوي عليه من عناصر بورجوازية. والجدير بالذكر أن كيرت مارتنز عرفه بإبن عمه الناشر هانزوبر الذي رحّب بنشر جانب من كتابات توماس مان. يقول أدينا إن قصص الأطفال التي ألفها هانز كريسيتان أندرسون تركت في نفسه أعمق الأثر وأنه كان يحمل مشاعر العبادة نحو أدب هاين. فضلاً عن عشقه لشعر شيلر الذي ملك قلبه. ويعترف توماس مان بأن تأثره بكل من نيتشه وشوبنهور فاق كل تأثير. فإلى نيتشه رجع الفضل في صياغة عقله وتشكيل وجدانه وهو يعلق على كراهية نيتشه المشبوبة للمسيحية بقوله إنها كراهية أخلاقية وليست كراهية نفسية، بمعنى أن نيتشه كان يهاجم بقسوة كل ما يحب مثلما فعل مع الموسيقار فاجنر. ويذهب توماس مان إلى أن نيتشه كان يحمل مشاعر الحب الأخوي نحو باسكال الفيلسوف المدافع عن المسيحية في الوقت نفسه الذي هاجم فيه المسيحية بضراوة. يقول أدينا في هذا الشأن: «إن تجربتي مع نيتشه كانت تمهيداً لمروري بفترة من الفكر المحافظ. ويعرض أدينا لشعوره بما يسميه «الإنتشاء الميتافيزيقي» عند قراءة أعمال شوبنهور. وهو إنتشاء يصفه بأنه وثيق الصلة بتفجر نوازع الجنس الجياشة فيه. وعلى حد قوله راقت له فلسفة شوبنهور لما تشتمل عليه من اندماج الجنس والتصوف. وفي تلك الفترة من حياة توماس مان اجتاحته الرغبة في الإنتحار.

وفي نهاية القرن التاسع عشر انتهى توماس مان من كتابة روايته «بودنبروكس» فقام بحزم مخطوطته وحملها إلى مكتب البريد لإرسالها إلى الناشر فيشر. ونظراً لقلقه على مصير هذه النسخة الوحيدة التي يملكها فقد رغب في تسجيلها. وسأله الموظف عن قيمة التأمين الذي

يحدده ثمناً لطرده فأجاب ألف مارك. وعندئذٍ ارتسمت الإبتسامة على وجه الموظف. وبينما كان المسئولون عن دار النشر فيشر يفحصون مخطوطه كان صاحبه يقضي فترة خدمته العسكرية التي استطاع بعد لأي أن يلحق بها. فقد سبق للجيش أن رفض تجنيده بسبب ضيق صدره وضعف قلبه. غير أن التدريبات العسكرية لم تناسبه فقد أصابه الوقوف الطويل في الطوابير العسكرية بالتهاب كعب قدميه. الأمر الذي أفضى إلى نقله إلى المستشفى للعلاج. وبعد شفائه عاد إلى صفوف الجيش ليعاني مرة أخرى من التهاب في كعب القدم. ولم ينقذه من تدريبات الجيش الشاقة سوى طبيب والدته الذي كان على علاقة طيبة برؤسائه في الجيش. وتوسط هذا الطبيب لديهم لتسريحه فوافقوا على ذلك بعد أن استكتبوه تنازلاً عن المطالبة بأي تعويض عما لحق به من إصابة. وحتى عندما اندلعت ألسنة الحرب لم تقم السلطات العسكرية بتجنيده فقد تصادف أن وقع عليه الكشف الطبي طبيب معجب بكتاباته فقرر عدم تجنيده.

وبالنسبة لرواية «بودنبروكس» ساورت الشكوك دار النشر في برلين حول ضخامة حجمها، الأمر الذي حداها إلى التفكير في اختصارها ولكن المؤلف أرسل إليها خطاباً أثناء إقامته بمستشفى الجيش يطلب منها عدم إجراء أية تعديلات أو حذف على النص. واقتنعت دار النشر بوجهة نظره فقامت في نهاية عام ١٩٠٠ وأوائل ١٩٠١ بإصدار الرواية في مجلدين ثمن كل منها ستة ماركات. وبطبيعة الحال وقف ارتفاع هذا السعر دون انتشار الكتاب لفترة من الزمن. ورغم هذا فقد وجدت الرواية من النقاد الكبار من يتصدى للدفاع عنها. فقد هنأه عليها الناقد اليهودي صامويل لوبلينسكي الذي تنبأ للرواية بمستقبل باهر وإقبال الأجيال القادمة على قراءته. وبعد نفاد الكمية المحدودة من الرواية المطبوعة قامت دار النشر بطبع الرواية في مجلد واحد بلغ ثمنه خمسة ماركات الأمر الذي ساعد على ذيوع الكتاب وإعادة نشره المرة تلو المرة. وهكذا ألفى توماس مان نفسه بين عشية وضحاها مشهوراً يشار إليه بالبنان. ثم دانت له هذه الشهرة الكاسحة في مناسبتين أخريين أولهما مناسبة بلوغه الخمسين من العمر ومناسبة حصوله على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٢٩. وقد سجل توماس مان مشاعره نحو الشهرة والمجد الأدبي في كتاب أصدر عام ١٩٠٦ بعنوان «فيورنزا». هذا وقد سبق له عام ١٩٠٣ أن نشر مجموعة قصصية أثيرة إلى قلوب الشباب تحمل عنوان «تونيو كورجر» الذي استقبلته الدوائر الأدبية بترحاب بالغ. ولعل ما أغرى القراء بالإعجاب بها طابعها الموسيقي المتميز وهو الطابع نفسه الذي تميزت به روايته اللاحقة المعروفة «الجبل المسحور». وبسبب نجاحه الأدبي انهال عليه الثراء.

كان توماس مان في أوج شهرته عندما بدأ يتردد على بعض صالونات الوجهاء في ميونيخ. وراق له على وجه الخصوص ذلك الصالون الأدبي الذي عقدته الشاعرة إرنست روزمر في

منزلها. ولاحظت ربة البيت أن مؤلفها الشاب يتودد إلى إبنتها الوحيدة فلم تجد أدنى غضاضة في ذلك. وفي فبراير/ شباط ١٩٠٥ تزوج أديبنا منها. وقد أثمر هذا الزواج ستة أطفال كانت أليزابيت أقرب الأبناء إلى قلبه لدرجة أننا نراه عام ١٩٥٢ يؤلف قصة تلعب فيها إبنته دور البطولة. وتحمل هذه القصة عنوان «الحزن الباكر». وكان أول إنتاج أدبي له بعد الزواج رواية «صاحب السمو» التي حاول فيها مؤلفنا أن يصيغ الكوميديا في قالب روائي. وتعرضت هذه الرواية لهجوم النقاد الذين رموها بالضحالة بالمقارنة بروايته الهامة «بودنبروكس».

وفي عام ١٩٠٨ اشترى توماس مان منزلاً في مدينة تولز وعندئذٍ وقعت فاجعة دامية تتمثل في انتحار أخته الجميلة كارلا رغم ميلها إلى الضحك شأنها في ذلك شأن بقية أفراد العائلة. كانت كارلا تحب الأدب والفن وتهوى المسرح. ولكنها فشلت في أن تصبح ممثلة لها قيمتها بسبب افتقارها إلى الموهبة المسرحية الأصيلة. وأرادت كارلا أن تنسى فشلها فركزت جل اهتمامها على الزواج من رجل من رجال الصناعة من ألزاسيا. غير أن هذا الرجل اكتشف أنها كانت فيما مضى على علاقة بطبيب لعب بها ولم يكترث بمشاعرها معتبراً إياها مجرد أداة لإرضاء شهواته. ولامها رجل الصناعة الألزاسي بسبب ماضيها واتهمها بأنها تخونه. فلم تجد كارلا وسيلة للخلاص من عذابها غير تناول كمية كبيرة من سم السيامنيد يكفي لقتل مجموعة من الرجال الأشداء. كانت كارلا حينئذٍ في زيارة لأمها في بيتها الريفي في بولنج بالقرب من ولهم في بافاريا عندما حل خطيب كارلا الألزاسي ليعنفها ويتهمها بالخيانة . فتركته الفتاة وقد أظلمت الحياة في عينيها ومرت على والدتها وابتسمت لها دون أن تنبس ببنت شفة ثم دخلت غرفتها لتتجرع السم الزعاف. حدث هذا في عام ١٩١٠ وكان هذا صدمة مروعة لأمها المسكينة التي عاشت بعد إبنتها كارلا مكسورة القلب لمدة إثني عشر عاماً، لا يخفف من محنتها سوى ما سمعت عن نجاح أبنائها الذكور. والجدير بالذكر أن هنريش نفسه أصبح روائياً وأديباً له وزنه. وكان من حسن حظ الأم أنها توفيت عقب إصابتها بمرض بسيط فلم تر إبنتها الكبرى جوليا تقدم على الإنتحار مثلما فعلت أختها كارلا من قبل.

وبعد أن فرغ توماس مان من تأليف «سمو الأمير» بدأ يكتب «إعترافات فيليكس كرول» التي استوحاها من قراءة مذكرات مانولسكيو. يقول مان إن هذه الإعترافات تمثل موقفه المزدوج من التقاليد وهو موقف يجمع بين التعلق بالتقاليد والرغبة في تدميرها. ويضيف مان أنها بذلك حددت رسالته ككاتب فضلاً عن أن الروح التي تسري في «اعترافات فيلكس كرول» هي الروح نفسها التي تحكم رواية «الجبل المسحور».

وفي ربيع ١٩١١ كان توماس مان جاداً في بحثه عن شيء جديد يكتبه فخطرت له فكرة

طورها في قالب روائي لتصبح فيما بعد روايته الشهيرة التي تدور حول الشذوذ الجنسي «الموت في البندقية» (١٩١٢). ولم يدر بخلده أن هذه القصة سوف تخرج عن طوعه وسيطرته لتصبح على حد قوله شيئاً مستقلاً عن إرادته. وهو نفس ما حدث له عندما كتب روايتين أخريين هما «بودنبروكس» و«الجبل المسحور». ويقول مان في تعليقه على تأليف روايتي «كونيو كروجر» و«الموت في البندقية» إن المرء قد يخطىء فيظن أنه نسج مشاهد هاتين الروايتين من الخيال في حين أنه في واقع الأمر لم يخترع هذه المشاهد مطلقاً بل استقاها من الواقع. وكل ما فعله هو أنه أعاد ترتيب هذا الواقع. ويشير توماس مان إلى العاصفة التي استقبل بها الألمان نشر هذه الرواية بخلاف الفرنسيين الذين استقبلوا باستحسان ترجمة أدموند جالو لها.

ويذكر مؤلفنا أن المرض أصاب رئة زوجته عام ١٩١٢ الأمر الذي اضطرها إلى قضاء عدة أشهر في جبال الألب السويسرية. ويشرح لنا مان طريقته في الخلق والإبداع فيقول إنه ما من مرة شرع فيها في تأليف قصة حتى بدا له الأمر في البداية سهلاً وميسوراً ليتضح له عند التنفيذ الفعلي أنه أشد ما يكون عسراً وصعوبة. يقول مان في شرح هذا إنه يمر بعملية خداع للنفس ضرورية فلو أنه استشعر منذ البداية ما يحتاج إليه الخلق الفني من جهد وعناء لما تردد في نبذه منذ البداية. إلى جانب ذلك وجد توماس مان أنه يتعذر عليه أن ينصرف إنصرافاً كاملاً إلى الكتابة الخلاقة. ولهذا كان يسطر المقالات بين الحين والآخر كما لو كان يحتاج إلى فترات استراحة يجمع فيها قواه الخلاقة وطاقاته المبدعة. ولعل روايته بودنبروكس الوحيدة التي لم يقطعها لكتابة أي شيء آخر. ومن المقالات التي دبجها يراعه وهو يكتب قصصه ورواياته «أفكار رجل غير سياسي» و«فردريك الأعظم والإئتلاف الأكبر» و«الجمهورية الألمانية» و«تجربة في الغيبيات».

ومما أدخل عليه البهجة والسرور بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها أنه حضر في فيينا عرضاً مسرحياً لمؤلفه «فيورنتزا». ووجد مان هذا العرض الذي اشترك في تقديمه صفوة الممثلين النمساويين مشوقاً ورائعاً لدرجة أبهرته. وراقت له دار العرض كما راق له حسن استقبال الجمهور النمساوي لمسرحيته.

وأيضاً بعد إنتهاء الحرب العالمية الأولى قام مان بجولة من المحاضرات في كل من هولندا وسويسرا والدانيمارك. وفي عام ١٩٢٣ زار إسبانيا حيث حل ببرشلونة ومدريد وأشبيلية وغرناطة. وبهره في أشبيلية احتفال شعبها بعيد صعود السيد المسيح وبموسيقى الأرغون المصاحبة لهذا الإحتفال. ويعترف مؤلفنا أنه أحب الجزء الشمالي من أسبانيا أكثر من حبه لجزئها الجنوبي. وفي عام ١٩٢٤ دعاه نادي القلم في لندن حيث أقام الكاتب الإنجليزي

جالزورتي مأدبة على شرفه وألقى خطاباً للترحيب الحار به. ثم زار باريس بعد انقضاء عامين على زيارته إلى لندن. وفي عام ١٩٢٧ زار وارسو التي أكرمت وفادته وأظهرت له روح التآخي والمودة. وفي وارسو تضافر علية القوم والمسئولون في الحكومة لإظهار بالغ التقدير له وللثقافة الألمانية رغم ما كان بين بولندا وألمانيا من عداوة تقليدية.

ويحدثنا مان عن النجاح المذهل وغير المتوقع الذي أصابته روايته «الجبل المسحور» (١٩٢٤) التي نشرت بلغتها الأصلية في مجلدين. ويتعجب مان من شدة ذيوعها فهي ليست رواية بالمعنى المألوف كما أن سعرها المرتفع يفوف طاقة معظم القراء على الشراء. فضلاً عن أنها ليست من النوع الذي يروق للجماهير. ورغم هذه الإعتبارات فقد حظيت رواية «الجبل المسحور» الضخمة الحجم بنجاح كاسح يفوق ما حظيت به روايته الباكرة. «بودنبروكس» من نجاح. وقد بلغ نجاحها حداً جعل الناشرين الألمان في خلال أربعة أعوام فقط يطبعونها للمرة المائة. وترجمت الرواية إلى اللغة المجرية في الوقت نفسه تقريباً الذي ظهرت فيه الطبعة الألمانية. فضلاً عن ترجمتها إلى الهولندية والإنجليزية والسويدية بعد نشرها في لغتها الأصلية بوقت قصير. وفي باريس أقدم أحد الناشرين على نشر ترجمتها في مجلدين كاملة غير منقوصة. ومما يذكر أن الأديب الفرنسي الكبير أندريه جيد بعث إلى مؤلفها خطاباً كال له فيه التقريظ والثناء.

مصادر الكتاب

Genet:

(1) Richard N. Coe. **Unbalanced Opinions: a Study of Jean Genet and the French Critics**, Proceedings of the Leeds Philosophical and Literary Society, XIV, Part 11, 1970.

(2) Richard C. Webb. **File on Genet,** Methuen Drama, London, 1992.

(3) Edmund White. **Genet,** Randon House, London, 1993.

Gide:

(1) Guerard, A.J. Gide, Cambridge, Mass: Havard University Press, 1969.

(2) O'Brian, J. **Portrait of A. Gide,** London, Secher and Warburg, 1953.

(3) Watson-Williams, H. Gide and the Greek Myth, Oxford: Clarendon Press, 1967.

(4) Pollard, Patrick. Gide: **Homosexual Moralist,** Yale University Press, New Haven and London, 1991.

(5) **Gide ed.** by Dennis Poupard. Twentieth Century Literary Criticism, Vol. 12, Michigan, 1984.

(6) Gide, André. **Corydon,** Gay Modern Classic, London, 1983.

The Immoralist, Penguin Books, 1960.

The Vatican Cellars, Penguin Books.

Proust:

(1) Harold March. **The Two Worlds of Marcel Proust**, Oxford University Press, 1948.

(2) George D. Painter. **Marcel Proust: A Biography,** Penguin, 1989.

(3) William Sansom. **Proust,** Thomas and Hudson Literary Lives, London, 1973.

(4) Philip Thody. Marcel Proust, MacMillan Education, London, 1987.

(5) Proust, A La Recherche du Temps Perdu, 1913-26.

Mann (Thomas):

(1) Nigel Hamilton. **The Brothers Mann,** Secher and Warburgn, London, 1978.

(2) Jeffeey Meyers. **Homosexuality and Literature** (1890 - 1930), University of London, 1977. (On Gide, Mann, Proust and otehers).

(3) Thomas Mann. **Death in Venice,** Penguin Books.

رباعيات الشذوذ والإبداع

الأساتذة يتحرجون من ذكر بعض الحقائق أمام طلبتهم. ومن بين الأشياء التي يتجنب الأساتذة الخوض فيها لواط عدد من أعلام الأدب الإنكليزي مثل إي إم فورستر وأوسكار وايلد ودابليوه أودين رغم وجود صلة وثيقة بين أدبهم وشذوذهم الجنسي.

ويرجع هذا الوضع العجيب بطبيعة الحال إلى أننا نتحاشى أن نذكر أمام الطلبة ما قد يخدش حياءهم، ولكن الأقدمين كانوا. أكثر منا أمانة وموضوعية وتحدياً للحقيقة، عندما قرروا أن لا حياء في العلم.

وهذا الكتاب يميط اللثام عن أدباء عالميين يفضحون أنفسهم بصراحة ، حتى يدرك القارئ العربي حقيقة ما يدور في العالم من حوله. وأن الحرية المزعومة التي يتمتع بها الكاتب العربي لا تقاس على الإطلاق بالحرية التي يتمتع بها نظيره في الغرب.




ISBN 1-841170-003
9 718411 700037